

TIGHT BINDING BOOK

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190469

UNIVERSAL
LIBRARY

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. ۴ ۱۹۲۵۷۰۴ . Accession No. ۱۵۴۶۱
Author ۲ ۲۰ صبر ۱۵۴۶۱
Title فتاوت مرجع الزمرا

This book should be returned on or before the date
last marked below.

مختارات عزيمى زيمان

فى

فلسفة الاجتماع والعمران
تحوى مباحث أخلاقية وحكمية
ونسائية وسياسية وأدبية
الح... الح...

الجزء الثالث

مطبعة الهلال بشارع نوبار نمرة ٤ بمصر

سنة ١٩٢١

القسم الرابع

مقالات عمرانية وتهذيبية

علموهم وكفى

ان كل الصيد في جوف الفراء^(١)

في مصر اليوم ضوضاء صحافية ناشئة عن نهضة في النفوس غايتها رفع مصر الى مصاف الامم الدستورية والدول المستقلة . فبعضها تطلب جلاء الانكليز والبعض الآخر يطلب تشكيل مجلس نواب وآخرون يطلبون تقديم الوطنيين في المناصب الكبرى وبعضهم يطلب توسيع دائرة التعليم وجعل اللغة العربية قاعدة التدريس في المدارس المصرية . واختلفوا في الاستقلال وطرق طلبه بين أن يكون بالعنف أو بالحسنى عاجلاً أو آجلاً وقد كتبوا في كل من هذه المطالب مقالات ضافية ونباحوا وتجادلوا وتخاصموا - ولو احسنوا لجمعوا كل قواهم في طلب واحد يغنيهم عن سائرهما لانه أساسها كلها وبدونه لا يتيسر الوصول اليها نغني « التعليم »

فسواء اردنا تشكيل مجلس نواب مع بقاء الاحتلال أو بدونه أو اردنا التقدم في المناصب الكبرى وسواء طلبنا الاستقلال التام بالعنف أو بالتؤدة وسواء اردنا أن نفعل هذا أو ذاك بارادة المحتلين أو بغير ارادتهم لا يفيدنا التقدم في هذا السبيل خطوة واحدة الا بعد بث التعليم الكافي الذي يؤهل الامة لتولي أمثال هذه الشؤون لا تنكر رغبة المصريين في تعليم ابنائهم ولكمنا نشكو من قلة المدارس الوافية بالافرض المقصود . ان الكتاتيب لا بأس بها وهي أساس التعايم ولكن المهم انصرفت اليها دون سواها ونحن أحوج الى مدارس عالية تهذب النفوس وترقي العقول وتعلمنا ما لنا وما علينا مما الى مدارس تلقن الصرف والتحو والحساب والرسم . أليس من

العبث أن نطلب الحكم الدستوري أو ننادي بالاستقلال الإداري أو نلتمس النجاة من سيطرة الإنكليز ونحن إلى الآن عالة على مدارس الحكومة ليس عندنا مدرسة كلية واحدة؟ ألا ننجسنا أن نقدر روتنا بأربعمائة مليون جنيه وأن يزيد احصاؤنا على اثني عشر مليون نفس وليس عندنا مدرسة كلية فلا نألفنا قضاء صياحاً وألفنا لها اللجان وحرضا الأغنياء واقتنحنا المكتتابات واستخدمنا في جمعها جماعة من خيرة فضلائنا ونخبه محبي الإصلاح بيننا ولكننا لم نخط بها حتى الآن خطوة تستحق الذكر ولم يتجاوز ما جمع من المال بضعة وعشرين ألف جنيه اشترك في دفعها بعض اغنياء القطر . ورأس مال هذه المدرسة لا يعجز عن تقديمه كله رجل واحد من الأغنياء اذا هزته الاربحية وأخذته الغيرة الوطنية كما يفعل اغنياء العالم المتمدن الذين نحتاجهم في طلب الدستور أو الاستقلال فيغنيينا بآربحيته عن جمع ذلك المال بالقرش والجنيه من تلامذة المدارس وصغار المستخدمين

أيلق بنا أن نطلب النيابة أو الاستقلال وهذه حالنا من الجهل ؟ لم نقرأ في التاريخ عن أمة نالت شيئاً من ذلك وهي في هذه الحالة سواء ارادت نيله بالسيف أو بالقلم فانها لا نجد سبيلاً إليه . وهب أنها نالته وقبضت عليه يدها فانها لا تحسن الاحتفاظ به ولا تلبث أن تضيعه وتكون حالها الثانية شراً من الاولى

كم من مرة حاول الهنود التماس من نير الإنكليز وكم صاح خطباؤهم ونادت جرائدهم « الاستقلال الاستقلال » وكم استحثوا الامم واستنهضوا الهمم وكم ثارت شعوبهم فقاوموا الحكم وحاربوا الجنود فهل فازوا بما أملوا . كلا . ولماذا ؟ لان عامتهم لم يتعلموا وبعبارة أخرى لم ترتق عقولهم وتنهذب نفوسهم إلى درجة يدركون بها معنى اجتماع الكلمة فان بالعلم ينفي التعصب وبالعلم تجتمع الكلمة وتتحد القلوب وبالعلم تدرك الامة غايتها القصوى . ولا يكفي تعليم الخاصة فان ذلك حاصل في اكثر الامم وانما الغرض تعليم العامة وتثقيفهم وتدريبهم لان جمهور الامة منهم . ولا تفلح أمة في مشروع وعامتها من الجهلاء

كم ألح العثمانيون وكم كتب كتبهم وخطب خطباؤهم يطلبون تأليف مجلس المبعوثان (البرلمان العثماني) تشبهاً بدول أوروبا فلما تألف لم يعيش الا قليلا . ما الذي اماته ؟ أماته الجهل لا نقول ذلك طعناً في معارف اعضائه معاذ الله فانهم خلاصة رجال المملكة العثمانية بلا خلاف ولكننا نقول ان البرلمان العثماني يحتاج إلى أعضاء

أسمى عقولاً وأرقى آداباً واثقاً اتحاداً من أعضاء البرلمان الفرنسي أو الانكليزي لان في سبيله عقبات ليست في سبيل أولئك - يكفيك من آفات المملكة العثمانية باختلاف عناصرها ولغاتها ومذاهبها وسيادة التعصب فيها والتعصب أبو الانشقاق والانشقاق ينبوع الخراب فاذا احتاج أعضاء البرلمان الفرنسي في اجتماع كلتهم الى جزء من العلم كان أعضاء البرلمان العثماني في حاجة الى عشرة اجزاء فكيف ونحن لم نبلغ مبلغ أولئك بعد

لما انحلت مجلس المبعوثان قامت الامة العثمانية تلتبس اعادته وقد ألت في طلبه بعنف وشدة وألفت لذلك الجمعيات السرية وغيرها ولسكنها تطلب عبثاً وترجو باطلا . وهب ان الدولة اعادت ذلك المجلس الان فانه منحل غداً لان الامة لم تبلغ درجة من العلم تؤهلها لمثل هذا العمل العظيم ولن تبلغه الا بانتشار العلم بين افرادها على اختلاف طبقاتهم ولا نشترط عليهم نبذ التعصب فان العلم الصحيح يتكفل بذلك ولا يغرنك نيل الفرس بعض هذه المطالب وهم لا يفضلوننا بالرقى الادبي ولا المادي فانهم نالوا الدستور بسعي جماعة من الخاصة لا بصوت الامة ولذلك يعسر عليهم الاحتفاظ به لانه جاءهم قبل اوانه فاذا تغيرت الاحوال أو تبدلت الاشخاص عادت الامور الى ما كانت عليه

فن الحكمة وسداد الرأي ان نسير على مقتضى ناموس الاجتماع فنصرف همنا الى ترقية الامة وتهذيب نفوسها وتدريبها على الاعمال وترك سائر المطالب لانبثا او احفادنا اذ يكونون ارقى عقولاً وأوسع علماً من اهل هذا الجيل واقدر على فهم ما ينفعهم او يضرهم فينظرون في حالهم فاذا رأوا الاستقلال انفع لهم طلبوه أو رأوا الدستور ملائماً لأحوالهم التمسوه فيفعلون ذلك عن روية ونظر ويكون حكمهم اقرب الى الصواب

هذه أمة الاميركان خضعت لحكم الانكليز الى اواخر القرن الثامن عشر فصبرت حتى تعلم ابناؤها وتتقوا ونظفوا الحكومة والجيش وانشأ منهم العلماء ورجال السياسة والقواد وهم يحاسبون الانكليز ويستعطفونهم . فلما خاب نداءهم ورأوا الاستقلال ضرورياً لبقيتهم ووجدوا في انفسهم الكفاءة لنيله قاموا قومة رجل واحد وظفروا بما ارادوا . وقد كان العلم اساس استعمادهم لانهم بعثوا ابناهم لتلقيه اولاً في كليات اوربا ثم انشأوا كليات مثلها في بلادهم يخرج منها الشبان

وقد تعلموا الاعتماد على النفس وادركوا معنى الوطن ومعنى الحرية . ولما نهضوا للاستقلال كان عندهم ست مدارس كلية كبرى وعددهم يومئذ مليون نفس وبعض المليون فكيف تشبه بهم ونحن نزيد على اثني عشر مليوناً أي نحو عشرة أضعافهم وليس عندنا مدرسة كلية واحدة .. ؟ ويظهر اننا مع ثروتنا وكثرتنا لا نستطيع القيام بكلية واحدة !

ناهيك بما أعدّه الأميركيان لاستقلالهم من الثروة الصناعية بانشاء المعامل والمناجم فضلاً عن الثروة التجارية التي يجسدهم الانكليز عليها - كل ذلك من ثمار التعليم العالي والتربية الصحيحة على الحرية الشخصية والشجاعة الادبية وعلو الحكمة واجتماع الكلمة . فاین هذا كله منا وكيف ندركه بغير التعليم . فعلياً ان نطالب أولاً الاستقلال الادبي وبه يصل الى الاستقلال السياسي ونحن احوج الى ذلك الاستقلال منا الى هذا

انا في حاجة الى التدريب على الاستقلال في التفكير والاستقلال في العمل حتى لا نبقى عالة على الحكومة لا نعلم اولادنا الا في مدارسها ولا نرشح شباننا الا لخدمتها فاذا أغلقت الحكومة أبواب تلك المدارس بات أبناءها بلا تعليم واذا أوصدت أبواب الخدمة دونهم تعرقلت مساعيهم وباتوا يشكون الفاقة

على ان الاستقلال الحقيقي الاساسي هو استقلال الامة بمصالحها وطرق معاشها في التجارة والزراعة والصناعة فنجتمع الثروة في ايديها والثروة دم المجتمع الانساني لا تحيا الامة بدونها فبدلاً من ان تتعلق معاش الامة على اهواء الحكومة تصبح الحكومة في حاجة الى ثروة الامة او الى رأيها

فنتسلف انتباه ارباب الصحف الذين جعلوا افلامهم وقفاً على طلب الاصلاح والمناداة بخدمة المصلحة العامة ان يتكافؤوا على الناس الاصلاح من ابوابه . فبدلاً من ان يصرفوا ذكائهم وينفقوا قواهم في كتابة ما يثير خواطر الامة على حكومتها او يأول الى سوء الظن بمشيريها ان يحرضوها على التعليم والتهذيب ويستردوا اموال الاغنياء لانشاء المدارس العالية والخروج من طبقة القاصرين الذين لا يزالون عالة على سواهم لا يؤذن لهم ان يعاطوا شؤونهم بانفسهم . ويستنهضوا همهم للسعي في تنقيف ابنائهم وتدريبهم على الاعمال المستقلة الآيلة الى الثروة الحقيقية فاذا فعلوا ذلك قاموا بما يطلب منهم وتركوا ما ورائه الى من ائني بعدهم ولا يكلف الله نفساً الا وسعها

هذبوا أبناءكم وهم اطفال

عاموهم الصدق والترتيب والمحافظة على الوقت

وبعضوا اليهم الكبرياء^(١)

الناس من حيث تأثير التربية في الانسان فريقان فريق لا يرون للتربية فائدة على الاطلاق وعندهم ان الانسان انما يشب على ما فطر عليه ان خيراً وان شراً . فالصادق عندهم مفطور على الصدق منذ ولادته والكاذب مفطور على الكذب وكذلك الكريم والبخل والمقدام والكسول وغيرهم . وحيثهم في ذلك ان عشرة اخوة قد يربون في بيت واحد وأحوال واحدة يربهم أب واحد وأم واحدة ثم يتعلمون في مدرسة واحدة ومع ذلك فان كلا منهم يشب على خلق خاص به وقد يكون بينهم الصادق المبالغ في الصدق والكاذب المبالغ في الكذب او الفاضل العفيف والسافل الدنيء . - فإين ذهب تأثير التربية في هؤلاء . فعندهم ان التربية عبارة عن مصقلة تصقل بها المواهب كما يصقل النحاس والفضة والذهب والاماس وغيرها فلها تنظف الظواهر ولا تنطرق الى البواطن ولا يلبث كل من هذه المعادن ان يعود الى طبعه بعد قليل لان النحاس لا يزال نحاساً والذهب لا يزال ذهباً والفضة فضة

وفريق يزعم ان الانسان صنعة التربية يكون كما يشاء مربيه فيشب على ما يتعوده من خير او شر ولما يكون للفطرة تأثير على أخلاقه وأطواره بل هو كالعجينة او الطينة مهما أرادت طبعه فيها انطبع وإذا جفت ظل ذلك الدلبع فيها . وحيثهم في ذلك ان الطفل يولد وهو لا يدري شيئاً ولا علم له بشيء فيكسب العلم مما يقع عليه بصره أو يطرق سمعه من الحوادث الجارية حوله . فاذا كملوه بالعربية شب وهي لسانه أو بالانكليزية فكذلك أو بكليتيهما فيشب وهو يتكلمهما . واذا ربوه على اعتبار الخير شراً أو الشر خيراً شب على ذلك

والواقع ان التربية ليست من قبيل صقل النحاس أو الفضة أو الذهب أو غيرها من المعادن لان هذه اجسام جامدة والانسان حي نامٍ . ولاهي من قبيل العجين أو الطين فان هذين لا حياة فيهما ولا مرونة تدفعهما الى طريق يستدعيها النمو .

والانسان فيه منذ طفولته قوة كامنة تدفعه الى النمو والتغير شأن الاجسام الحية وانما الانسان من حيث التربية وسط بين ذينك القولين فهو كالشجرة تنمو مستقيمة او معوجة بحسب ما يطرأ عليها من المؤثرات . فلو القيت بعض بذور البرتقان في بستان ولم تعدها بالسقي او الاصلاح ولا تعمدت اذيتها بوجه من الوجوه فانها تنمو وتصير اشجاراً وفيها المعتدل والمعوج والقصير والطويل والمثمر وغير المثمر وفيها ما لا يكاد ينبت حتى يبس وفيها ما لا ينبت بالكلية . ولو تتبعنا اسباب ذلك لرأينا بعضه يرجع الى أصل تركيب البذور والبعض الآخر يتعلق بالظواهر الجوية والبعض الآخر بالحوادث الارضية - ذلك شأن الانسان اذا ترك للطبيعة ولم يعتن بتربيته . فقد يكون فيه استعداد للاعمال العظمى وفطرة غريزية للاخلاق الحسنة او يكون مفطوراً على الرذائل والحوال فيشب بمقتضى ذلك مع ما قد يطرأ عليه في طفولته من الطوارئ الخارجية وهي مختلفة وتأثيرها على الناس مختلف

أما اذا غرست تلك البذور يدك في امكنة ابعادها متناسبة ثم تعدها بالسقاية والاصلاح فاذا تبينت في بعضها ميلاً الى الاعوجاج تلافيته واسندتها وقومتها وغصنها لا يزال لدينا ثم تعدها بالمقراض فقطعت ما ينبت فيها من الاغصان الفاسدة او المعوجة - فاذا فعلت ذلك بعناية وتعقل لا تكاد ترى في بستانك شجرة عوجاء او مشوهة . على انك لا تزال ترى بين تلك الاشجار تبانياً في الحجم والشكل وقوة النمو . واذا كان بين تلك البذور بذرة من برتقان بري لا تطمع في ان تجعلها حلوة من الغرس الاول ولو سقيتها مذوب السكر وبذلت كل جهدك في تخليتها والانسان يولد وفيه غرائز فطرية تذهب به الى الخير او الى الشر وفيه ايضاً قابلية للاكتساب فاذا عومل بالعناية اللازمة اكتسبت غرائزه شكلاً جديداً فاذا كان ميلها الى الخير زادتها تلك العناية روفاً واذا كان ميلها الى الشر لطف شرها تلطيفاً حسناً . فاذا ولد احدهم وفيه ميل فطري الى الكذب مثلاً وعني مربوه منذ طفولته في تقبيح الكذب في عينه ومراقبة ذلك فيه المراقبة الدقيقة وتتبع كل خطوة من خطواته فانه يعود ان يخاف من الكذب . فاذا شب لا يبعد ان يعود اليه ولكنه يبقى بحكم العادة يخافه فيقل وقوعه فيه . وقس على ذلك سائر الرذائل وقد يولد الطفل وفيه جرائم بعض الفضائل فاذا أهملت التربية ماتت تلك الجرائم كما يزداد البدن ضعفاً اذا لم يسع في تقوية أعضائه بالرياضة البدنية ونحوها .

ومن الامور المشهورة ان بعضهم قد اكتسب بذه قوة عظيمة بمجرد الرياضة البدنية ولم يكن أحد يتوقع منه ذلك

على اننا اذا اعتبرنا التربية بالنظر الى الامة على وجه الاجمال رأينا تأثيرها أعظم كثيراً ويزداد ذلك التأثير بتوالي الاجيال . كما تتحول الاشجار البرية الى أشجار بستانية بتوالي غرسها وتعهدها بالاصلاح والعناية ويظهر ذلك جلياً في تأثير الاديان بالامم . فترى لسلك امة آداباً وأخلاقاً عامة تختلف عن آداب وأخلاق الامم الاخرى قد اكتسبتها بتوالي الاجيال من تعاليم ذلك الدين . واذا انتقلت الامة من دين الى آخر لا تلبث ان تتغير آدابها وأخلاقها حتى توافق تعاليم ذلك الدين - اعتبر ذلك في قبائل الجرمان كيف كانت أطوارهم وأخلاقهم قبل اعتناق الديانة المسيحية وكيف أصبحت بعدها . وفي قبائل العرب في الجاهلية وفي الاسلام وقس عليه . أما في الافراد فالترية أقل تأثيراً وقلما يظهر أثرها الا اذا بوشرت في الصغر والعود رطب فانها تأتي بفوائد حسنة

ولا بد في تربية الاولاد من النظر في قواهم (غير البدنية) نظراً تشريحيّاً فهي تقسم بالاجمال الى قسمين القوى العاقلة والاخلاق (القوى الادبية) وقلما نجد علاقة متبادلة بينهما . اذ قد يكون المرء قوي العقل فيحلل العضلات ويحرز علوم الاولين والآخرين ويذهب في الفلسفة مذاهب سامية ويرتكب مع ذلك أدنى الرذائل . فكم من عالم منساق او بخيل أو فاسد الاداب وكم من ضعيف العقل صادق اللمجة حر الضمير كريم الخلق . لكن بعض كبار العقول اذا كان فيهم ميل فطري الى شيء من الرذائل اصلحوه بقوة ارادتهم وصبرهم . على ان الغالب في أقوياء العقول ان يكونوا حسان الاخلاق

وهيما مما تقدم ان الطفل يخلق وفيه شيئين يجب الانتباه اليهما في تربيته وهما عقله وأخلاقه . فالعقل اذا قصر الولدان في تربيته فالمدرسة تعوضها عليه . أما الاخلاق فلا بد من مداركتها في الطفولة والا فان المدرسة قلما يكون لها تأثير في تربيته . والاخلاق هي عماد الفضائل وعليها يتوقف مستقبل الانسان في هذه الحياة من خير أو شر - بالاخلاق يكون الانسان سعيداً أو تقيساً وبالاخلاق يكون نافعاً او ضاراً . فلا يفرح الآباء اذا رأوا أبناءهم يسبقون أقرانهم في العلم والمعرفة وغيرها

من ثمار الذكاء لان ذلك لا يغنيهم شيئاً اذا لم يكونوا على خلق حسن . ماذا يفيد الرجل كثرة ما يحسنه من اللغات او يفهمه من العلوم اذا كان كاذباً او متكبراً او ماذا يفيد علمه اذا ساء اديه وتلطخت سيرته فانه ساقط لا محالة . فتهذيب الاخلاق اول ما يجب الاعتناء به وهو من واجبات الآباء والامهات . بل هو من واجبات الامهات على الاكثر لان الام تصاحب الطفل في ذلك السن اكثر مما يصاحبه أبوه . ولذلك قالوا ان التي تهز السرير يمينها تهز الارض يسارها . لانها اذا أحسنت تربية أخلاق ابنها جعلته سعيداً لنفسه ومفيداً لابناء نوعه

فلوالدون مطالبون بتربية أولادهم على حب الفضائل ونبذ الرذائل . ولكن هذا التعريف مبهم لا تتسع حدوده وكثرة ما يعدونه من صنوف الفضائل والرذائل . وفي اعتقادنا ان تربية الاخلاق المراد بها سعادة الانسان ومنفعة أبنائه نوعه تنحصر بهذه العبارة « علم ابنك الصدق والترتيب والمحافظة على الوقت وبغض اليه الكبرياء » لان الصدق أساس كل الفضائل . فالصادق لا يكون خائناً ولا مختلساً ولا سارقاً ولا زانياً ولا مزوراً ولا ناماً . فاذا عاملت صادقاً فانت في مأمن على مالك وعرضك وهو على يقين من رغبة الناس في معاملته

والترتيب اساس انتظام الاعمال فمن يتدرب من طفولته ان يضع كل شيء في مكانه يشب مرتباً في اعماله في هذه الحياة . فمن تعلمه امه اذا خلع قميصه ان لا يلقيه على الارض كيفاً اتفق بل يضعه في المكان المعد لتعليق الثياب او اذا عاد من المدرسة ان لا يضع كتبه في مكان لا يهتدي اليه في الصباح الا بعد البحث فانه يعود الترتيب ويشب مرتباً في حساباته وتجارته ومعاملته فلا يضيع شيئاً من اوراقه او دفاتره ولا يخشى ضياع ثروته . ومن كان محافظاً على وقته لا تفوته فرصة لا يعمل بها عملاً فانه لا يخاف فقراً

وأما الكبرياء فهي عقبة من عقبات الرزق في سبيل هذه الحياة . فلو عرفت صانعاً مهما بلغ من مهارته في صناعته وكان مع ذلك متعجرفاً كبير الدعوى فانك تنفر منه وقد تعاف نفسك الاتقاع بصناعته فراراً من معاملته . واذا بحثت بحثاً تحليلياً في منزلة معارفك عند نفسك من حيث رغبتك في مجالستهم أو نفورك من قربهم لرأيت للكبرياء والتواضع دخلاً عظيماً في ذلك . لان المتكبر مكروه حينما كان والمتواضع مقبول في أي حال . وكبير الدعوى لا تجد من يحبه أو يصبر على عشرته او معاملته

لانه جاهل ولو احرز علوم الارض وأحرق ولو احاط بفلسفة المتقدمين والمتأخرين -
اذ لا يدل على مقدار جهل الانسان اكثر من جهله مقدار نفسه . ولو بحثت في ما
يعبر عنه الناس بقولهم « فلان خفيف الروح » أو « فلان ثقیل الروح » لوجدت
علة ذلك بالاكثر التواضع والكبرياء . فالتكبر المدعي يستقل الناس دمه وبمكس
ذلك الوديع المتواضع فانه مقبول حينما أقام وهو خفيف الروح أو الدم - ولا يخفى
ما يترتب على ذلك من المنافع أو المضار في حياة الانسان

علموا أبناءكم الصدق بكل معانيه أي علموهم ان لا يقولوا غير ما يعتقدون
واغرسوا فيهم حب الترتيب والحفاظة على الوقت أي ان لا يضيعوا وقتاً لا يعملون
فيها عملاً وبغضوا اليهم الكبرياء فانها أشد ما يبغضهم الى الناس . فاذا فعلتم ذلك فقد
قمت باهم واجب عليكم في تربية ابناءكم والله ما وراء ذلك

التعليم الالزامي

والتعليم المجاني^(١)

١ - تمهيد

قد تقرر في الاذهان أن التعليم أساس كل ما يتطلبه المصريون من الرقي السيامي
أو الاداري أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو الزراعي أو الصناعي . وتناولت صحفنا هذا
الرأي وخاضت فيه ونصرته وأيدته ودعت اليه وحثت عليه وأصبح القوم اذا ألفوا
حزباً جعلوا من أهم مطالبه « التعليم » والحكومة نفسها اعترفت بصحة ذلك الرأي
بما اتخذته من أسباب السعي في تسهيل التعليم أو توخته من ارسال الطلبة الى أوروبا
واحياء اللغة العربية في مدارسها. فاصبح قولنا « التعليم ضروري » أو « علموهم وكفى »
أو حث الامة أو الحكومة على التعليم من قبيل التكرار البارد

على اننا لم نقصر عن القول بتعميم التعليم وأنه أساس كل تقدم ولسكننا يئنا
الطريق المؤدي الى ذلك واستحثنا رجال المال وأهل الغيرة على انشاء المدارس

الكبرى من اموالهم وأتيناهم بالامثال استهنضنا بها همهم ففشرنا أمثلة مما جاد به اغنياء الامم الاخرى في سبيل انشاء معاهد العلم والفضيلة من الاموال الطائلة وطلبنا اليهم الاقتداء بهم في انشاء مدرسة كلية مصرية تكون فائحة انشاء مدارس أخرى . وبئنا لهم أننا قد حان لنا أن نعول على أنفسنا في تعاليم ابنائنا بالخروج من وصاية الحكومة والاستغناء عن اعانتها في نشر التعليم كما تفعل سائر الامم المتقدمة - ضمنا صوتنا في ذلك الى اصوات سائر ارباب الافلام وقد نهضوا نهضة واحدة يستحثون ويستنهضون ويؤنبون ويغنّفون - وكلنا كالسكاتب على الماء لسرّ لم ندرك كنهه مع علمنا أن اغنياء المصريين أهل سخاء وأريحية يشهد بذلك ما رأيناه ونراه من سخائهم في مشروعات يتوقعون منها نفعاً زينه لهم الساعون فيها بعارضة الخطيب وبلاغة السكاتب . فذهب أكثر ما جمعه ضياعاً وربما عاد بعضه بالضرر عليهم وعلى بلادهم . فلو أن الساعين في تلك المشروعات بما أوتوه من الذكاء والنشاط وقوة البرهان صرفوا تلك المساعي في استدرار الاموال السكافية وانشأوا بها المدارس بدل الاحزاب لبغنا الغاية التي نطلبها على اهون سبيل . لان ما بذل من المال والسعي في تلك الشؤون قد يكفي لقلب الحكومة وتغيير وجه السياسة ولكن الامة المصرية غير مستعدة لمثل ذلك فذهب السعي هدرًا - ولم من رجل عظيم يضع مواهبه وبحر الخيبة لنفسه والخراب لبلاده لاستخدام مواهبه في غير الجهة الملائمة للاحوال . وقد يكون مخلصاً في عمله يستخدم في خدمة وطنه وفيه ذكاء وهمة ولكنه يسيء استخدام تلك القوى فتعوق بالفشل عليه وبالضرر على أمته ولو نظر في ما يستطيع اجراؤه وفيه نفع لأفاد واستفاد

وفي مصر الان جماعة من ارباب الافلام وأصحاب الثروة والجاه قد ملكوا قياد الامة بما أوتوه من الذكاء والدهاء لا يستنفرون أغنياءها الى مشروع الالبوم على اختلاف في الاغراض بينهم . فآلفوا الاحزاب والشركات وجمعوا اموالا تكفي وحدها لانشاء الكلية التي بحّ صوتنا في طلبها ولكنّها ذهبت في سبيل أخرى . فلو صرفوا عنايتهم الى هذه الجهة واستخدموا قواهم ومواهبهم في هذا السبيل لما كلفونا مؤونة العود الى هذا الموضوع ولا يضرهم ذلك في ما يريدونه من الاغراض السياسية بل هو انفع لهم اذ تكون الامة بعد نشر العلم أكثر استعداداً لما يريدونه منها . ولكن يظهر أننا لم نزل في حاجة الى وصاية الحكومة لا غنى لنا عن ارشادها وتدريبها - بل

نحن في حاجة الى استبدالها كما يستبد الوالد في ولده رغبة في مصاحته . فحبذا الاستبدال في هذا الشأن وما في ذلك عار على الامة المصرية فانه الطريق الذي تمش فيه سائر الامم المتمدنة نعي به « التعليم الالزامي »

٢ - التعليم الالزامي

ونعني بالتعليم الالزامي أن تجعل الحكومة تعليم الابناء فرضاً على آباءهم يسألون عن التقصير فيه . وكما يطالب الوالد بطبيعة الوجود بحفظ الولد وحياته وتربية بدنه بالغذاء والكساء ريثما يشتد ساعده ويستقل بنفسه فهو ايضاً يطالب بتربية عقله وتهذيب نفسه ليقوى على معاركة الحياة . ولكننا نرى الآباء غير عاملين بهذه القاعدة والحكومة انما أقيمت لحماية العاجز ونصرة الضعيف والاقتصاص للظالم من الظالم . فكما تطالب الوالد اذا قصر في تغذية ولده وكسائه وتحمله على القيام بهذا الواجب فهي مسئولة عن تقصيره في الواجب الآخر اذا رآه مقصراً به ولم يحبره عليه . ولذلك كان للحكومة أن تجبر الوالدين على تعليم اولادهم ولا سيما اذا كانوا لا يزالون في اوائل ادوار نمطهم

كذلك فعلت الامم الراقية ولا يزال التعليم اجبارياً في الممالك المتمدنة حتى الان فلماذا لا يكون كذلك بمصر بعد ان رأينا تقاعدنا عن انشاء المدارس من عند أنفسنا مع قلة المعلمين بيننا ؟ فارتأت الامم المتمدنة لم يكثر عدد الفارين فيها الا بالتعليم الاجباري . كان عدد الاميين في الشعب الانكليزي سنة ١٨٤٣ نحو ٣٢ في المئة من الرجال و٤٩ من النساء فاصبح (١٩٠٨) واحداً في المئة من الرجال واثنين من النساء . وعدد الاميين في الولايات المتحدة اكثر منه في غيرها نظراً لكثرة المهاجرين اليها واكثرهم لا يقرأون ومع ذلك فقد كان عدد الاميين فيها سنة ١٨٨٠ نحو ١٧ في المئة فاصبح عشرة في المئة فقط مع انها اكثر الامم اتفاقاً في سبيل التعليم . وفي المانيا يختلف عدد الاميين باختلاف المقاطعات ولكنهم قليلين جداً ففي بعضها لا نجد في المقاطعة كلها صبيّاً أو شاباً أو شابة أو كهلاً أو شيخاً لا يعرف القراءة والكتابة واكثر الاميين في مقاطعة شرقي بروسيا وهم هناك واحد من سبعة وثلاثين وقس على ذلك سائر ممالك العالم المتمدن الكبرى والصغرى . ولا خلاف في أن زيادة عدد الفارين في الامة يدل على ارتقائها

أما مصر فيدعوها أن الاميين فيها لا يزال عددهم أضعاف عدد الفارين وقد بلغ

عدد الذين يعرفون القراءة من سكان القطر المصري باحصاء سنة ١٨٩٠ أقل من ٦ في المئة من مجموع السكان وهب أنه بلغ ضعفيه الان وثلاثة أضعافه فهو قليل جداً بالنظر الى الامم المتقدمة . فهل نستطيع ادراك منزلة تلك الامم بغير التعليم الاجباري - ربما أدركناها بدونها ولكن بعد أجيال متوالية فبقى في أخريات المتمدنين الى ما شاء الله

والتعليم اجباري الان في انكلترا وفرنسا ومانيا والنمسا والدانمارك وأسوج والبلجيكا وهولندا واليونان وفي الولايات المتحدة والمكسيك والارجنتين وفنزويلا وسالفادور وساتو دومنيكو وأورغواي وسائر جمهوريات أميركا الجنوبية وفي اليابان وغيرها حتى السرب والجيل الاسود ورومانيا وهو اسمي في تركيا لا ينقصه الا التنفيذ فالدول المتقدمة تجبر شعوبها على تعليم ابنائهم وتعين المدة التي يجب ان يلازموا بها المدارس وهي تختلف في ذلك باختلاف الامم وأطولها في انكلترا . فان الاب فيها مكلف أن يدخل ابنه المدرسة من أوائل طفولته الى السنة السادسة عشرة من عمره . ومدة التدريس عند الفرنسيين سبع سنين أي من السنة السادسة من عمر الولد الى الثالثة عشرة وعند النمساويين من السادسة الى الرابعة عشرة وكذلك عند اليابانيين وقس عليها سائر الامم المرتقبة . وقد سهلت حكوماتهم على الاهالي تعليم ابنائهم بجعل المدارس عامة في البلاد والقرى يزيد عددها بزيادة عدد السكان . ومن قوانين فرنسا من هذا القبيل ان كل قرية بلغ عدد سكانها خمسةة نفس يجب أن يكون فيها مدرسة ابتدائية

فاذا كانت دول العالم كبراهما وصغراها جعلت التعليم فيها اجبارياً والناس هناك ينشئون المدارس من عند انفسهم لان الايام علمهم شدة افتقار الناشئة الى العلم فكيف ونحن كما تقدم ؟ فكما تراقب الحكومة الصحة العمومية وتجبر الوالدين على تلقيح أولادهم بلقاح الجدري تخفيفاً لويلات هذا الوباء عنهم وعن سائر أهل القطر فهي مطالبة باجبارهم على تعليم ابنائهم لتخفيف ويلات الجهل وهو أشد نكابة وأسوأ مصيراً من الاوبئة الجارفة

وهي تنشئ المحاكم والسجون وتقيم الارصاد على الافاقين وأهل البطالة وتنفق الاموال في حفظ الامن العام فاذا أحبرت الناس على تعليم ابنائهم خففت كثيراً من هذه المصائب عنها وعن الامة لان التعليم الصحيح يقلل أسباب الفساد وكما يدعن

الناس للحكومة بما تأمرهم به من وقاية أبدانهم وصيانة حقوقهم فهم يذعنون لها في تربية أبنائهم

٣- التعليم المجاني

ولكن اذا سنت الحكومة قانوناً يقضي بالتعليم الالزامي وأذعن الناس لاوامرها فهل يستطيع كل منهم الانفاق على تعليم اولاده ؟ كلا . لان معظم الشعب وهم الفلاحون لا يقدرّون على نفقات التعليم فضلاً عن حاجتهم الى ابناءهم للاستعانة بهم في الفلاحة فان احدهم لا يصدق ان يبلغ ابنه السابعة او الثامنة من عمره حتى يستخدمه في بعض حاجيات بيته أو حقله . فاذا اضطر الى تعليمه في المدارس كانت خسارته مضاعفة - وهو اعتراض معقول ولكن دفعه ميسور بالقياس على سائر امم الارض وفي كل امة الصانع والمزارع والتاجر والغني والفقير

أما من حيث حاجة الوالد الى معونة ولده في قضاء حاجيات بيته أو حقله فتضع الحكومة لمثل هؤلاء شروطاً لا يلحقهم معها ضرر حتى يرى الفلاح مع الزمن ان استغناءً عن خدمة ابنه في طفولته يعوض عليه أضعافها اذا تعلم أما نفقات التعليم فيرجع أمرها الى الحكومة وهي مطالبة بها للأسباب التي قدمناها . والحكومة التي تسن قانون التعليم الالزامي يجب عليها أن تنشئ المدارس المجانية فتنفق في التعليم كما تنفق في سائر الاسباب المأداة الى صيانة الوطن واعداء شأنه كمتجديد الجند وانشاء المعاقل وحفظ حياة الافراد وحقوقهم بانشاء المجالس الصحية والقضائية والتنفيذية وهي تنفق في ذلك الاموال الطائلة . ونشر العلم يخفف عنها كثيراً من أعباء هذه المهام - هكذا فعلت الامم المتقدمة ولا سيما التي سنت قانون التعليم الالزامي . فان كلاً منها ينفق قدراً معيناً من أموالها على تعليم الفقراء ...

وأكثر هذه الاموال تنفق في التعليم الابتدائي لان المقصود بتعميم العلم أن يكون كل فرد من أفراد الامة يعرف القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والجغرافية والتاريخ ليستدير عقله في أعماله وتسهل عليه المطالعة . وأما ما وراء ذلك فملى اختيار الآباء حسب الاحوال . والدول تختلف أنفاقاً على المعارف باختلاف درجات رقيها على اننا اذا نظرنا في مصر نظراً تاريخياً من حيث التعليم الالزامي والمجاني رأيناها سائرة الفهقرى فقد كانت المدارس في زمن محمد علي تشبه ان تكون اجبارية لانه كان يحمل الاهالي على تلقي العلوم العصرية جبراً . وكانت أيضاً مجانية

ولم يقتصر محمد علي على التعليم مجانياً بل كان يطعم التلامذة ويكسبهم ويقوم بسائر لوازم حياتهم . وقد بطل الاجبار في اواخر حكمه واما المجانية فظلت متبعة على الكيفية التي ذكرناها الى اواخر ايام اسماعيل فكان الطلبة الفقراء يقيمون في المدرسة يتعلمون وياً كلون ويشربون وينامون ويكتمسون على نفقة الحكومة . وفي سنة ١٨٧٤ ارادت الحكومة ان تجري على سنة سائر الامم فتفرض على التعليم جعلاً تأخذه من الاغنياء ولكنها تطرفت حتى منعت الفقراء من التعليم لانها ابطلت المجانية . وبلغ عدد الدافعين من تلامذة مدارسها للعام الماضي ٩٢ في المئة وكانوا سنة ١٨٨١ اقل من ٣٠ في المئة وكانت واردات المدارس الاميرية تلك السنة ٢٣٢٣ جنياً فاصبحت للسنة الماضية ١٠٧٠٠٠ جنيه

٤ — العطاء من اكواخ الفقراء

فالحكومة بابطال المجانية من مدارسها قد اساءت الى الامة لانها حالت بين الفقراء واسباب الارتقاء فنعت عن الوطن جنداً من ارباب العقول ينبغ من اكواخ الفلاحين وفيه نشاط الحلاء وصحة الابدان لا يحول بينهم وبين العلم غير الفقر فاذا صار التعليم مجانياً ظهر جماعة من رجال العلم والعمل يخدمون الامة بعلمهم ونشاطهم . ولو تدبرت تاريخ هذه النهضة لرأيت اكثر الذين ظهوروا في اولها وايدوها بمؤلفاتهم أو ادارتهم أو حكمتهم انما نبغوا من ابناء الفقراء الذين علمتهم الحكومة على نفقتها . ولو لم يكن التعليم مجانياً لظلموا في زوايا النسيان — وكم في اهل الغيط من صحيح الجسم والعقل يقضي نهاره عارياً يركض في اثر جاموسة يرعاها أو غنمة يختلبها فتذهب ايامه ضياعاً ولو تعلم لصار رجلاً عظيماً . وكم من رجل عظيم نبغ بين الاكواخ والشواهد على ذلك كثيرة حتى بين اظهرنا في مصر والشام

فالحكومة مسئولة عن ضياع هذه المنافع بافقال باب المجانية في مدارسها . ولا تنكر أنها شعرت بتلك التبعة وأعادت النظر فيها فاجازت المجانية في بعض الاحوال . غير ان ذلك لا يكفي فالامة تحتاج الى التحريض على التعليم ولا يكفيها المجانية وانما هي في حاجة الى التعليم الالزامي اقتداءً بسائر الدول المتقدمة على اختلاف طبقاتها ودرجات رقيها من سلطنة البحار التي لا تغيب الشمس عن املاكها الى الحيل الاسود الذي لا تزيد مساحته على ٣٦٣٠ ميلاً مربعاً وعدد سكانه اقل من ٢٤٠٠٠٠ نفس وميزانيته اقل من ١٢٥٠٠٠ جنيه وليس فيه من الاميين الا القليلون

فاذا كانت هذه الدولة وغيرها من الدول الصغرى كالسرب ورومانيا الى اصغر جمهوريات اميركا تجبر رعاياها على تعليم ابنائهم وتساعدهم على تعليم الفقراء منهم فضلا عما يبذله اغنيائهم من المال في انشاء المدارس الاهلية أليس من العار علينا والامم بحسدنا على مياه النيل وتربة واديه وما يجري من سيول الثروة في خزائنه ونحن نقلد الامم الراقية بظواهر المدنية من الرياض والحدايق والفصور واشياى والحلي والمركبات البخارية والكهربائية وسائر اسباب البذخ ونطالب حكومتنا بما عند اولئك من الرقي السياسي ونلج عليها بطلب الاستقلال والدستور ونقلد الافرنج بانشاء الاحزاب والشركات - ان تكون هذه حالنا من الانحطاط العالمي . ما بالنا لا نقلدhem باسباب ذلك الرقي وهو نشر التعليم بين طبقات الاممة بالقوة اذا كانت هي لا تقدم عليه من عند نفسها

جامعة أم كلثية

والعلوم الادبية أم الطبيعية^(١)

الهلال أول من نادى بحاجة مصر الى مدرسة كلية بمقالة ظهرت في الهلال التاسع من السنة الثامنة عنوانها « مدرسة كلية مصرية هي حاجتنا الكبرى » قلنا في مجلها:

« نحن في حاجة الى مدرسة كلية تعلم العلوم العالية يتولى أمرها رجال يتخذهم التلامذة قدوة في الاعتماد على النفس والافئام وحرية الفكر والقول ومعرفة الحقوق والواجبات . فاذا خرج التلامذة منها انشأ بعضهم المدارس في البلدان والقرى يثون تلك الروح في أبنائها ويبنها الآخرون في رفاقهم بالاسواق والجمعيات والدواوين وفي المجالس العمومية والخصوصية »

ذلك ما قلناه منذ تسع سنوات وكنا كلما سنحت فرصة نعيد الكرة وننبه الازدهان الى ضعف التعليم ونستنهض الهمم لانشاء المدارس حتي تفضل مصطفى بك كامل العمراوي

(١) عن الهلال سنة ١٦ صحيفة ٥١٦

منذ عامين باخراج ذلك القول الى حيز العمل فاقترح على الامة المصرية انشاء مدرسة كبرى سماها « جامعة » وفي اعتقادنا أنه يعني « كلية » أي مدرسة تعلم العلوم العالية وتربي النفوس على استقلال الفكر والقول . فاستقبلت الامة اقتراحه بالترحاب والاستحسان وتألقت اللجنة لجمع الاكتابات كما هو مشهور

ولكن يظهر أن اللجنة أخذت اقترح الغمراوي بمؤداه الحر في فجعلت الغرض انشاء جامعة على نمط جامعات أوروبا . والجامعة عندهم مؤلفة من عدة كليات . فتربصنا حتى تنشر اللجنة النظام الذي تسير عليه في العلوم التي ستعلمها وفي كيفية التعليم . فلما صدر منشورها المختصر الذي نشرناه في الهلال الماضي ذيلناه بملاحظتين بدتا لنا من مطالعته : الاولى اننا لم نجد فيه ذكراً للغة العربية ورجونا أن تكون هي قاعدة التدريس . والثانية اننا اعترضنا على الطريقة التي تنوي الجامعة السير عليها في التعليم وهي الخطب في بعض المواضيع الاجتماعية

ثم جاءنا كتاب نظامها الكامل والبشرى بدخولها في رعاية الجنب العالي ورئاسة الشرف لسمو ولي العهد . فكان ذلك باعثاً على الثقة في نجاح هذا المشروع . وقد مررنا ما قرأناه في نظامها عن اللغة العربية أنها ستكون قاعدة التدريس فيها . وأما التعليم فقد قالت أنه « سيكون مماثلاً للخاص في المدارس الجامعة بأوروبا مع مراعاة تطبيقه على احتياجات القطر المصري » وهو قول مبهم يحتاج الى ابضاح ولكن يظهر لنا من قرائن كثيرة أهمها ما أعلنت عزمها عليه من الشروع بالقاء الخطب أنها ستجعل التدريس خطباً في بعض العلوم على ما ذكرناه في الهلال الماضي أو محاضرات كما يفعلون في جامعات أوروبا أي أن تعين أساندة يلقي كل منهم خطاباً في الفن المختص به مرة أو مرتين في الاسبوع يحضره الطلبة فيلقت كل منهم ما يعلق في ذهنه من ذلك الخطاب على قدر اجتهاده وذكائه لا يجبره احد على الحضور ولا يطالب ببيان ما تعلمه الا في الامتحانات العمومية . وقد قلنا في الهلال الماضي أن هذه الطريقة وإن أفادت الافرنج في جامعاتهم فهي غير ما نحتاج اليه نحن لاختلاف احوالنا عن أحوالهم . هم يلقون الخطب في المواضيع الاجتماعية أو الاقتصادية أو الطبية أو القضائية أو غيرها من العلوم والفنون على شبان أتوا دروسهم العلمية ونالوا البكلوريا الحقيقية . وأما نحن فسنلقينا على حملة البكلوريا المصرية (أو بكالوريا

الخدمة الاميرية) وقد بينا الفرق بينهما في مقالة المدرسة السككية المصرية في السنة الماضية - هذا هو المحور الذي عليه مدار الكلام

ان الخطاب في المواضيع الاجتماعية أو الاقتصادية أو التاريخية جزيلة الفائدة ولكنها ميسورة لنا بغير المشقة التي يقاسيها اعضاء اللجنة والعناية التي يبذلونها في جمع الاموال ووضع النظامات . اذ يسهل القيام بالفاء هذه الخطاب في الاندية العلمية والادبية التي نشأت بين أظهرنا في هذه الاثناء . على اننا نعد الخطاب في هذه المواضيع كمالية بالنظر لنا - نحن في حاجة الى العلوم الاساسية التي يتلقاها حملة البكالوريا الحقيقية في العالم المتقدم . والى التدريب على الدرس والبحث والتحصيل وترقية النفوس بالتربية المدرسية العالية . بل نحن في حاجة الى التربية اكثر مما الى العلم . وهذا لا يكون بالخطب والحضور الاختياري بل هو لا ينال الا بالزام التلميذ على تفهم الدرس واعادته على المعلم والمناقشة فيه حتى يرسخ في ذهنه . وبالعزيمة الطلبة المدرسة معظم ساعات النهار تحت مراقبة أساتذة عقلاء يرقون نفوسهم بارشادهم وقدرتهم وبما يشكلونه لهم من الجمعيات الادبية ويعودونهم اياه من الخطب والمباحثات والمناقشة في التأليف والجدال وغير ذلك على نحو ما هو جار في المدرسة السككية السورية

لما جاء الاميركان لنشر العلم في سوريا قضوا اعواماً في تجربة الطرق الملائمة للشرقيين وان خالفت طرق الغربيين فوصلوا الى طريقة هي أفضل الطرق المؤدية الى هذا الغرض . فما بنا لا نستفيد من اختبارهم - ان انشاء هذه الجامعة خطوة مهمة في تاريخ هذه النهضة والآمال عالقة بها والابصار شاخصة اليها . فاذا لم نحسن وضعها على ما يلائم حاجتنا ذهناً بآمال المكتسبين وأضعنا اموالهم عبثاً وأسأنا الى أبنائنا وأحفادنا الذين نزعم أننا نهيء لهم سبيل الاستقلال بانشاء هذه المدرسة وأماها . فينبغي أن نضع الاساس على الصواب قبل ضياع الفرصة . ويجب على كل منا أن يقول رأيه لانتا شركاء في النتيجة فيجب أن نشترك في مقدماتها . وفي اعتقادنا أن الشبيبة المصرية تحتاج الى مدرسة تعليم وتربية يدخلها الطالب لدن العود لين العريكة فلا يزال يتلقى العلم ويتمرس باسباب الترقى حتى يخرج مهذباً متقفاً قوي الارادة نشيطاً هماماً مستقل الفكر يحب وطنه ويتفانى في خدمته . وهذا لا يتأتى بالحضور الاختياري لسماع الخطب . لان معظم هذه المحامدينال بالقدوة والمباحثة والمعاشرة

اناء الليل واطراف النهار . وبعبارة أخرى أننا في حاجة الى مدرسة يسبك فيها الطالب سبكا في قالب جديد يوافق مصلحة بلاده

العلوم الطبيعية أم الادبية

وكتب الينا غير واحد يسألوننا رأينا في العلوم التي يحسن بالجامعة تقديمها : العلوم الطبيعية كالطبيعية والكيمياء والتاريخ الطبيعي والرياضيات والفلك وغيرها ام العلوم الادبية كالتاريخ والفلسفة والاقتصاد والشعر ونحوها من المباحث الاجتماعية والادبية ؟ والجواب على ذلك ان جميع هذه العلوم لازمة لتوسيع مدارك الشبان وترقية قوسهم ولكن العلوم الطبيعية اولى بالتقديم لانها تثير الازهان بالاطلاع على اسرار الكون ونواميسه وكلها حقائق ثابتة مترابطة تدرب العقل على النظر الصحيح والحكم الصواب . فظهر له الكون كما هو ويدرك حقيقة الموجودات ويسهل عليه تحليل الحوادث . فلا تأخذه الاوهام والخرافات واذا قرأ التاريخ أو الادب أو نظر في نظام الاجتماع بعد ذلك كان نظره صادقا وكان حكمه اقرب الى الصواب

فالطبيعية تعلمنا مثلا نواميس السمع والبصر والاثقال والميكانيكات والجاذبية والمغناطيسية والكهربائية وغيرها فلا نصدق ان زرقاء الخيامة رأت جيش العدو على مسافة ثلاثة ايام ولا نخاف الشفق اذا احمر ولا السماء اذا أرعدت ونهزأ بما يرد في احاديث القوم من أخبار العفاريت وغرائب الحوادث المخالفة لنواميس الطبيعة . والكيمياء تكشف لنا سر الظواهر التي رآها في التحليل والتركيب فلا نصدق ان الحجر يحول الى طعام أو النحاس الى الذهب ونعلم ان المادة لا تتلاشى . والمطلع على مبادئ علم الفلك لا يخاف على القمر من الحوت أن يبتلعه ولا يزعم أهله وجيرانه بضرب النحاس

والتاريخ الطبيعي يعلمنا أن الانسان لا يعمر خمسمائة سنة أو الف سنة وأن الأدميين وسائر أصناف الحيوان قلما اختلف شكلها أو حجمها من أول عهد التاريخ الى الآن . ومبادئ الفسيولوجيا والتشريح تعلمنا كيف تتألف أجسام الناس وكيف يحول الطعام الى غذاء ويتطهر في الدم الرئتين فلا نصدق أن الانسان يعيش أشهراً أو أعواماً بلا طعام ولا أن مدة الحمل تتجاوز أشهرها المعدودة

والجولوجيا تدلنا على عمر الارض وما في جوفها من الطبقات وتبين لنا أسباب الزلازل والبراكين وغيرها --- وقس على ذلك سائر العلوم الطبيعية التي تعلم في

المدارس الكبرى باوربا . فطالب البكلوريا عندهم يتعلم الفلسفة الطبيعية والفسولوجيا والكيمياء والحيوان والنبات والجيولوجيا والفلك والمنطق والفلسفة العقلية والادبية والجغرافية الطبيعية والظواهر الجوية والاقتصاد السياسي فضلا عن التاريخ والجغرافية واللغات وغيرها

وفي مدارسهم المعدات اللازمة لبسط هذه العلوم وايضاها بالمشاهدة والتجربة كالمعارض التشريحية وفيها اجزاء الجسم وأعضاؤه باشكالها . والمعارض الجيولوجية وفيها أصناف المعادن والاحجار حسب طبقات الارض ومواقفها . والمعارض النباتية وفيها أصناف النبات على اختلاف الافاليم والاصقاع ناهيك بالآلات الفلكية والمراسد لمشاهدة الاجرام ومراقبة حركاتها والمعامل الكيماوية لتحليل المواد وتركيبها ومسارح الحيوانات ومعارض عظامها وبقاياها على اختلاف الانواع والاجناس غير المعارض الطبيعية لتجربة الميكانيكات والبصريات والسمعيات وغيرها

فالشاب الذي يدرس هذه العلوم على هذه الكيفية يخرج من المدرسة وقد استنار عقله واتسعت مداركه وعرف نواميس الطبيعة وتفاعل العناصر وطبائع الاجسام فيدرك عظمة الكون وحقيقة الانسان فلا يأخذ الغرور ولا يتخذع الاوهام . واذا سمع خطاباً في التاريخ أو الادب أو الفلسفة أو آداب اللغة فهم منه غير ما يفهمه حامل البكلوريا المصرية التي لم يتلق صاحبها من هذه العلوم الا شذرات من الكيمياء والطبيعات والرياضيات يتلقاها على عجل لقلة المعدات اللازمة لايضاها وتفسيرها

فالناشئة المصرية تحتاج قبل كل شيء الى العلوم الطبيعية التي توسع المدارك وتعلم الانسان حقيقة هذا الوجود من حيث علاقة الارض بسائر الاجرام السيارات والثوابت وتكشف له عما يجري على سطح هذه الكرة من تفاعل القوى واسبابها وتناججها وطبائع ما ينبت فيها من النبات او يسرح عليها من الحيوان وأسباب ما يغلي في باطنها من اللحم أو يتساقط عليها من المطر أو يهب فوقها من الرياح . وتذله على تركيب جسمه وأسباب نموه وطرق غذائه وتوالده ونواميس عقله وأخلاقه - يحتاج الشاب المصري الى هذا كله قبل الجنوح الى النظر في العلوم الاجتماعية او الفلسفية أو التاريخية او درس تمدن الامم أو آداب لغاتهم . ولا يتم ذلك الا بمدرسة كلية علمية تلقى فيها هذه العلوم كما تلقى في المدرسة الكلية الاميركانية

فستلقت انتباه لجنة الجامعة الى هذه الملاحظات لانها صادرة عن قلب يحب مصر ويغار على مصلحتها . فاللجنة المشار اليها اذا ارادت ترقية الشعب المصري واعداده ليحكم نفسه فعلها ان تبدأ بانشاء مدرسة علمية كبرى على نحو ما قدمنا تقيم فيها اسانذة من اهل الفضل يفيدون التلامذة بقوتهم كما يفيدونهم بعلومهم ويكون التعليم فيها بالحفظ والاسماع والمراجعة والمناقشة كما ذكرنا . واذا ارادت القاء الخطب في اثناء ذلك في العلوم الاجتماعية أو الاقتصادية أو غيرها من الادبيات فانه يكون مفيداً هذه كلمات نقولها في سبيل المصاحبة العامة وقد نكون مخطئين في بعضها أو كلها وانما قلنا ما نظنه صواباً - والمباحثة نجملو الحقيقة . وقد همنا النظر في هذا الموضوع دون سائر المواضيع التي تتناقش فيها الصحف أو يتحدث بها الناس لاعتقادنا أنه أهمها كلها بالنظر الى مصلحة مصر لان ما يتطلبه أهلها من الاستقلال أو الدستور أو الحرية أو الثروة أو غيرها لا ينال بغير العلم . والعلم للعقول كالغذاء للابدان لا يصح تناوله الا في نسق وعلى مقدار بالتدريج الملائم للصحة والنمو . فكما اتسلا لا نطمح الطفل الرضيع اللحوم والتوابل باعتبار أنها تغذي البالغين وتقوهم لعلنا انها تلبك معد الاطفال وقد تقناهم . فلا ينبغي أن نكلف حملة البكلوريا المصرية لتلقي المسائل الفلسفية والاجتماعية العالية قبل تقوية عقولهم بالعلوم الطبيعية والرياضية ونحوها

(١) ما هو الاستقلال الحقيقي

في مصر اليوم فئة من ارباب الاعلام نسمع نداء بعضهم على المنابر ونقرأ اقوال البعض الاخر على صفحات الجرائد يدعون الناس الى الاستقلال ويستحثونهم على الاتحاد للمطالبة بحقوق هُضمت أو حرية سُلبت . وهم بعبارة أخرى يلتمسون التملص من قيود الاحتلال . وليس في الناس عاقل لا يحب الاستقلال ولا منصف يسوِّغ احتضام الحقوق . بل نحن نعتقد أن فئة كبيرة من رجال دولة الاحتلال يقولون مثل هذا القول في أعظم نوادي السياسة عندهم . وليس من شأن الهلال البحث في الاساس الذي بنيت عليه الشكوى . ولكننا رأينا أن نقول كلمة في هذا الموضوع من حيث علاقته بناموس العمران

لا يعرف قدر الحرية غير العاقل الحكيم ولا يدرك السبيل إليها غير المنتقد البصير
واذا باتت حرية قوم في قبضة قوم أقوى منهم بطشاً وأمنع جنداً فن الجهالة أن
يلتمسوا استرجاعها بقوة السلاح الا اذا استنصروا قوماً آخرين . وهب أنهم افلحوا
وكسروا تلك القيود فهل يضمنون أن لا يكون نصراؤهم الحديثون أشد وطأة عليهم
من اعدائهم الاولين . على ان التاريخ والقرائن يدلاننا على خطر تلك الخطوة

ولا نطيل الكلام في هذا الموضوع والقارىء يعلم ما آلت اليه مصر في مثل
هذه الشؤون من أقدم ازمئة التاريخ الى الان . يكفيننا من ذلك ما تقلبت عليه منذ
الفتح الاسلامي . فقد كانت قبيل الاسلام تحت سلطة الرومان فلم يرض أهلها بذلك
الاحتلال فاستنصروا المسلمين ونصروهم على رجال حكومتهم فدخلت مصر في حوزتهم
فانتقلت من دولة الى دولة وأهلها في كل حال محكومون . وقضت بعد ذلك اجيالاً
تحت سيطرة الخلفاء الراشدين فالامويين فالعباسيين حتى تولاها بنو الاخشيد في اوائل
القرن الرابع للهجرة فللمصريون مما استحكم بين الاخشيدية من الخلاف فاستنجدوا
الدولة الفاطمية في المغرب فجاء القائد جوهر مصر ففتحها . وكان رجالها عوناً له في
ذلك الفتح فاصبحت في سلطة الفاطميين في أواسط ذلك القرن . وما برحت في
قبضتهم الى أواسط القرن السادس في خلافة العاضد بن يوسف فاختلف اثنان من
رجال دولته على الوزارة فخرج المغلوب منهما الى الشام واستنجد نور الدين زنكي
صاحب دمشق فانجده بجند تحت قيادة شيركويه عم يوسف صلاح الدين (السلطان
صلاح الدين) وكان لا يزال غلاماً قال ذلك الاستنجد الى تداخل الاكراد في
حكومة مصر ثم افضت الوزارة الى شيركويه ومنه الى صلاح الدين وأخيراً استخرج
صلاح الدين الحكومة لنفسه فانتقلت مصر من الدولة الفاطمية الى الدولة الايوبية

ولو تتبعنا تاريخ مصر في انتقالها من دولة الى اخرى لرأيت سبب ذلك الانتقال
في الغالب استنجد فئة من أهل البلاد أو رجال الحكومة دولة أجنبية ولنا بالحوادث
العراية أقرب دليل

فاذا تبين لك ذلك علمت ان الالتجاء الى دولة أجنبية التماساً للاستقلال ضرب
من العبث . فاستنهاض الهمم واثارة العواطف في هذا السبيل لا يخلوان من العواقب
الوخيمة بغير فائدة ترجى

يقي علينا البحث عن سبيل آخر الى الاستقلال . لان الاستقلال مستحب تهواه

النفس الابية وتستهلك في الحصول عليه

فنعول اتنا اليوم في حاجة الى استقلال أدبي أكثر مما الى استقلال سياسي ومعنى ذلك اتنا نحتاج الى التدريب على الاستقلال في الفكر والاستقلال في العمل لكيلا نكون عمالة على الحكومة لاننا لم اولادنا الا في مدارسها ولا نرشح شبانا الى خدمتها فاذا اغلقت الحكومة أبواب تلك المدارس بات ابناءؤنا بلا تعليم أو سدّت أبواب الخدمة دونهم تعرفت مساعيمهم وباتوا يشكون الفاقة . وهي أحوال تكاد تكون خاصة بمصر أو هي على معظمها فيها

وسبب هذه الاحوال ان المغفور له محمد علي باشا لما تولى شؤون هذه الديار رأى الجهل مخبأ في ربوعها وهو حكيم يعلم اتنا في عصر النور ولا سبيل الى الاستنارة الا بالعلم فأنشأ المدارس وجعل صبغتها عربية ونشط كل عمل عربي وأحيا الجامعة العربية ثم أنشأ الدواوين والمصالح فاحتاج الى كتاب وعمّال فاتخذهم من تلامذة تلك المدارس وكثيراً ما كان يبعث البعثات العلمية الى اوربا على نفقة حكومته لتعليمهم . واقتدى به من خلفه من الولاة والحديويين . فاصبحت المدارس الاميرية مبعث العلم ومصالح الحكومة مصدر الرزق وشغل المصريون عن زراعتهم وصناعتهم وتجارتهم فباتوا عالة على عاتق حكومتهم . حتى اذا كانت الاحتلال الانكليزي واقضى الاقتصاد الاداري الاستغناء عن بعض المستخدمين غصّت الشوارع باهل البطالة . وبات ابناء البيوت العامرة يتضورون جوعاً لانهم أصبحوا بعد تهودهم خدمة الحكومة لا يستطيعون عملاً مستقلاً

والاستقلال الحقيقي اتنا هو استقلال الامة بمصالحها وطرق معاشها من التجارة أو الزراعة أو الصناعة فتجتمع الثروة في أيديها والثروة دماء المجتمع الانساني لانحيا الامة بدونه

فبدلاً من أن تتعلق معاش الامة على اهواء الحكومة تصبح الحكومة في حاجة الى ثروة الامة او الى رأسها وأقل ما ينجم عن ذلك ان الحكومة اذا أرادت الاقتصاد لا يترتب على اقتصادها اقبال البيوت فينقم أصحابها عليها . ولو تدبرت أسباب نقمة أكثر الفاضيين على الحكومة اليوم لرأيت حجتهم في ذلك انها تولي وظائفها أناساً دون آخرين . فما اغنانا عن هذا التحاسد

ومما نحتاج اليه من ضروب الاستقلال استقلال الفكر ومن ثماره الرأي العام

وذلك لا يكون الا بالتعليم والثقيف وقد نهينا الى ذلك في مقالات سابقة واقترحنا انشاء مدرسة كلية مصرية على مثال المدارس الكبرى في اوربا فلا حاجة بنا الى التكرار
ولكننا نستلفت انتباه ارباب الاقلام الذين جعلوا أقلامهم وفقاً على طلب الاصلاح
أن يتكاتفوا على التماسه من ابوابه فبدلاً من ان يصرفوا ذكاءهم وينفقوا قواهم في
كتابة المقالات الرنانة التي تثير عواطف الامة على حكومتها او مشيرها ان يحرضوهم
على التعليم والتهديب ويستدروا اموالهم لانشاء المدارس العالية ويستنهضوا همهم للسعي
في تنقيف ابنائهم وتدريبهم على الاعمال المستقلة الآيلة الى الثروة الحقيقية كما يفعل
سواهم من المشاركة الذين شعروا بالخطاى الشرق فنهضوا لاهياء معلمه

ما برح أهل الهند يعترفون لنا بالسبق في ميدان العلم وبغبطوتنا على ما نلناه من
عوامل المدنية حتى رأيناهم قد سبقونا في هذه السنين الاخيرة الى السعي في نشر لواء
العلم وتعميم التربية فالفوا الجمعيات لانشاء المدارس وشكلوا اللجان للبحث في ما تحتاج
اليه بلادهم من ضروب التربية الصحيحة . فوقف خطباؤهم على المنابر وبذل اغنياؤهم
الاموال في سبيل التعليم . ونحن اولى منهم في التماس ذلك وفيما يحول الله نخبة الادباء
والفضلاء وبين ظهرائنا جماعة كبيرة من أهل اليسار لا يذخرون وسعاً في ما يؤول
الى ترقية شؤوننا . ولكن كتابنا (او بعضهم) شغلوا عن الجوهر بالعرض فبذلوا
قواهم في ما لا طائل نخته من اثاره الضعائن وتهيبج العواطف وهم يعلمون انهم اذا
دعوا الناس الى قومة لا يلقون بحبياً واذا لقوا لا نخاهم يحبهلون عاقبة ذلك فضلاً عن
ضياع الوقت واضلال البسطاء فلا يزيدون الجهال الا جهالة

فاذا قالوا انهم انما يفعلون ذلك غيرة على الوطن وضناً باستقلاله قلنا لهم نعم الغاية
ولكن بس الوساطة . هذه بلاد الهند مرّ عليها اجيال في حال مثل حالنا بل هي
أثقل وقرأ وأصعب مراساً وقد حاول أهلها ما حاولناه مراراً فلم يروا نتيجة غير
الفشل . فاجع عقلاؤهم على التماس الاستقلال الحقيقي بالتربية والتعليم فخصروا غنايتهم
في هذه الغاية فالفوا مؤتمرأ سموه مؤتمر التربية أو هو مؤتمر الاصلاح الاجتماعي
عقدت جلسته الثالثة عشرة في آخر دسمبر الماضي في اسكناو فحضرها بضعة آلاف
من وجهاء الهند ونخبة رجاله فتليت الخطب ودارت المباحثات في الوسائل اللازمة
لتربية شؤون الامة الهندية فاجع المؤتمر على ثلاث عشرة وسيلة . هذه خلاصتها :

(١) تعليم المرأة . فاجمعوا على ان ترقية الشؤون الاجتماعية لا تتأني الا بتعليم المرأة وتهذيبها تهذيباً كافياً ووضعوا لذلك شروطاً منها (اولاً) انتخاب معلمات صحيحات المبدأ حسنات التربية من عائلات معروفة (ثانياً) تدريب اولئك المعلمات على طرق التعليم والتربية في مدارس خاصة بذلك (ثالثاً) اذا عجزت بعض البلاد عن انشاء المدارس الكبرى يكتفى فيها بمدارس يتيمة صغيرة (رابعاً) ان يكون من أهم علوم تلك المدارس الدين والآداب والهيچين وصناعة اليد والتدبير المنزلي وتربية الاولاد

(٢) اصلاح عادات الزواج . بخفض نفقات الاعراس ومنع الزواج قبل سن ١٢ او ١٤ في البنات و ١٨ او ٢٠ في الفتيان

(٣) الاعتدال . ويريدون به السكف عن المسكرات فالعوا لجناً في أشهر مدن الهند لمنع انتشار تلك الوسائل الجهنمية

(٤) نزع التعصب الديني وما ينشأ عنه من الخصام بين المسلمين والبراهمة

(٥) الترغيب في الاسفار . باقناع بعض طوائف الهند الذين يمدون الاعتراب حراماً بأنه جائز ومفيد

(٦) انشاء جمعيات خيرية . تجنباً لطواف الشحاذين في الاسواق وفيهم جماعة لا يستحقون الاحسان

(٧) النظافة . بان يتعود الهنود على تنظيف منازلهم وحوالياتهم وشوارعهم ويطلبوا بعض العوائد الوثنية التي تخالف شروط النظافة

(٨) نزع التعصب وقبول المرتدين بلا تردد

(٩ و ١٠ و ١١ و ١٢) هي بنود تتعلق باصلاح بعض احوال الزواج الخصوصية بتلك البلاد

(١٣) الرياضة البدنية للاولاد . بان تجعل المدارس جوائز خصوصية لمن يفوز على أقرانه في الالعاب الرياضية ترغيباً للاولاد في ممارستها

هذه خلاصة قرار تلك الجلسة . ويظهر منها جلياً ان اخواتنا الهنود سبقونا في تنشيط وسائل التربية شوطاً بعيداً مع انهم يعترفون لنا بالسبق في أكثر شؤون المدنية فحاجتنا الكبرى الآن الى الاصلاح الادبي قبل السياسي . وهو اصلاح الامة في شؤونها الادبية ومعاملاتها العمومية . ولا يتم ذلك الا باصلاح العائلات وهذا لا يكون الا بالتعليم والتربية

والحثُّ على التعليم والتربية أصبح موضوعاً مبتذلاً لا يكاد يُغفل ذكره كاتب أو خطيب ولذلك فإن الحثَّ عليه قلما يستلفت الانتباه . ولكننا بعد أن فصلنا عواقبه وأسبابه وذكرنا الامثلة بالدليل والقياس لم نجد نرضى بمجرد البحث النظري ولا بد لنا من مباشرة العمل فنقترح انشاء جمعية أو لجنة أو مؤتمر على مثال المؤتمر الهندي الذي ذكرناه وهو يضمن لنا كل ما نتمناه من وسائل الاصلاح . وبدلاً من أن نعذب على نظارة المعارف لاغفالها علوماً نعتقد فائدتها في اصلاح شؤوننا وتركها وشأنها وتتولى اصلاح امورنا بأنفسنا كما تفعل سائر الأمم الحية فإن السواد الاعظم منهم إنما تعتمد على رجالها وأموالها بالسعي والاتفاق . على أن الحكومة المصرية قد أدت الواجب عليها بيدر أغراس العلم بيننا قرناً كاملاً فانتشلنا من هوة الجهل واهدتنا سبيل العلم فوجب علينا استثمار ذلك الغرس بإبدننا . والاعتماد على النفس أصل كل محمده

بنات الشوارع

الخطر على الشبيبة المصرية ^(١)

أتحسب اذا علمت انك في اكبر المدارس وثقفته في أرقى المعاهد وربيتك أحسن تربية وغرست في قلبه حب الفضيلة، والتمسك بالآداب السامية واتخذت كل وسيلة لوقايته من الامراض الوافدة كاللقح بمادة الجدري والحقن بمصل السكوليرا . وهب أنهم توفقوا الى وقاية الابدان من سائر تلك الامراض بالمصل أو غيره وانك لم تغادر وسيلة للوقاية الا اتخذتها من حق أو تلقيح - أتحسب اذا فعلت ذلك كله وأنت مقيم في القاهرة أو الاسكندرية انك امنت على ابنك وفلذة كبذك من غوائل المرض أو فساد الآداب ؟ كلا . واذا توهمت ذلك فانك في غرور

لا خلاف في أن التعليم والتربية برفيان النفس ويهذبان الاخلاق فيجتنب صاحبهما أسباب الاوبئة ويتبعد عن مفسد الاخلاق فيهجر المقامر والحانات واما كن الفحشاء . وقد يبلغ من عفة نفسه ان ترعد فرائضه عند ذكر تلك الاماكن الجهنمية . ولكنه

لا يزال مع ذلك عرضة لخطر هو أشد وطأة على الإنسانية من سائر الاخطار لانه يتناول عذاب النفس والجسد . اذا أصاب شاباً ذهب بصحته وأفسد آدابه وجرحه الى بلايا الموت أخف منها وطأة وأسهل مراساً

اذا شب الفتى على كره الرذيلة كان في مأمن من غوائلها لبعده عن أسباب العدوي وقد يغربه عشاؤه على المنكر فيمسك نفسه ويعصام ولا ينفع عصيانه الا اذا كان شديداً فاذا سايروهم مرة ولو على سبيل التجربة واقترب من تلك الفخاخ اصبح الخطر أقرب اليه من حبل الوريد . لان الانسان مهما بلغ من تعقله مفطور على الضعف وخصوصاً بين يدي المرأة ولا سيما اذا كان شاباً . فكيف اذا كان الخطر يعترضه في الساحات العمومية وعلى قارعة الطريق ويظهر له باحبال الاشكال الى قلبه . يظهر في ثوب المرأة التي جعل الله بينها وبين الرجل تجاذباً هو أساس العمران فانخذته بعضهن ذريعة الى الدمار . نعي بنات الهوى اللواتي بلغ من تساهل حكومتنا واغضاها ان تترك لهن الحبل على الغارب . فلا تتوارى الشمس حتى ترى العشرات منهن يخطرن في اكبر شوارع القاهرة والاسكندرية وسائر المدن الكبرى تجرشن بالمارة من أبناء السبيل ياتمن صيداً ينان به رزقاً . وقد لبسن وجوهاً نضبت حياؤها فاعتضن عنه بالمساحيق والادهان وتدرعن بالخلاعة وقلة الادب حتى يعاف الابي النظر اليهن من بعيد . ولكنه اذا تكرر ذلك عليه نازية وثالثة ورابعة أشرف على الخطر - الا الذين تعصمهم نفوسهم من قوحي الارادة وأحجاب المبدأ القويم وهم قليلون . ناهيك بفتاة ربيت في الشوارع وتمرست باساليب الخداع أن تغوي فتى غض الشباب سريع التصديق على عينيه غشاوة وفي قلبه ميل وضعته العناية لغرض مقدس ولكن أكثر الشباب لا يفهمون معناه

ولا تحسبن الخطر من ذلك السقوط يقتصر على خرق حرمة الآداب وتشويه وجه الفضيلة ولكنه يتناول الوقوع في داء هو أعضل الادواء وأشدها وطأة وافظعها مغبة بتوارثه الابناء عن الآباء . واخف عواقبه تشويه الحلقة وفساد الدم وتعريض الاعضاء الرئيسية للمرض . وقد يؤول الى قطع النسل - على أن قطعه اخف وقماً على الإنسانية من تسلسل الداء الوخيم في الابناء والاحفاد وبئس المصير فلا يعجبك من بنات الشوارع بياض الوحوه وبريق العيون ونظافة اللباس واعتدال القوام فان وراء ذلك البياض حيفة قدرة وفي خلال ذلك الدسم سم قاتل .

وأكثرهن لم يصلن الى هذا القطر الا بعد ان نبذهن بلادهن نبذ النواة ولو وجدن فيها مرتزقاً لم يجشم من مشاق الغربة الى حيث يقضين الليالي غاديات وأحبات يرمين الشباك ويحملن أسباب الاهانة والصغار . فويل لمن نزل قدمه ويقع في تلك الهاوية . واذا كان هذا مبلغ الخطر على الشبان الذين تربوا على العفة والبعد عن الرذيلة فما قولك بالذين أخذوا بفنائص هذا المدن وقلبوا فضاءه الى رذائل فلم يتعلموا من الحرية الشخصية غير اطلاق العنان لشهواتهم ومجالسة بنات الهوى على قوارع الطرق او في المركبات والمنزهات . فهو لا يرجو لهم صلاحاً من عند انفسهم ولا ينجع فيهم نصيح . وانما ينفع في تخفيف ذلك الويل استئصال السبب من جذره بابعاد تلك الاشراك عن الناس - وهل يستطيع ذلك غير الحكومة ؟ وهي ملح الارض على ما يقولون

واجبات الحكومة

ان حكومتنا تبذل الاموال الطائلة في وقاية رعاياها من أسباب الامراض فتجبر الالباه على تلقيح ابنائهم بلقاح الجدري وتشد في اتخاذ الوسائل اللازمة لدفع الاوبئة الوافدة تحت طائلة القصاص . فاذا علمت بمجاذنة كوليرا أو طاعون في منزل أحاطت به الجند ومنعت الناس من دخوله وأحرقت كل متاعه ولا يدخله أهله الا بعد تطهيره على الطرق القانونية . واذا خلفها بعضهم عن جهل أو بخل شددت عليه النكير وانفذت ما تريده قهراً ولو احوجها ذلك الى شد الوثاق أو اطلاق الرصاص أو غير ذلك من وسائل العنف . ولا تثريب عليها لانها تفعل ذلك في سبيل المصلحة العامة . وقس عليه ما تتوخاه من العناية في تطهير أمتعة المسافرين وتضييق الحاجر الصحي على الوافدين ولو كانوا اطفالاً أو شيوخاً ولو بعثها ذلك على تعذيبهم أو احراق ثيابهم وغايتها من ذلك حميدة أيضاً ناهيك بما تنفقه من الاموال في اصلاح الشوارع وحفر الترع وضاءة المدن وكس الطرق ورشها - أرايت اذا هي فعلت ذلك كله وكلفت الناس في سبيله ما يحتملون وما لا يحتملون رغبة في المصلحة العامة فانها اذا لم تدارك الخطر الذي نحن في صده كان عملها ناقصاً . لان تنظيف المجتمع المصري من تلك الادران السامة أولى من تنظيف الشوارع من القبار . ووقاية الشبيبة المصرية من مهاوي الفساد وحماية أبدانهم من تلك الامراض القذرة أولى في اعتبارنا من تطهير منزل حدث فيه اصابة بالثيفويد أو الدفتيريا لان عدوى هذه

الامراض وامثالها تنحصر في بعض الاقربين ولا تتعدى الحيل الواحد من الناس .
وأما تلك فانها تنتقل في الاعقاب حتى تأول الى فناء الذرية

وقد يعترض على ذلك بان الحكومة تتلافى هذه الاخطار بمن اقامتهم لفحص
المؤسسات . نعم . ولكنها لا تتمكن من ذلك لتساهل المنوط بهم تبليغ خبر أولئك
العواهر فلا يفحص الاطباء منهم الا جزءاً صغيراً . واللوم يرجع اكثره على البوليس
لان رجاله المكلفين بذلك لا يفهمون معنى الفضيلة ولا يدركون التبعة التي تلحقهم
بالاغضاء الذي قد يكسبهم درهماً أو يساعدهم على نظرة ولكنه يقتل المئات والالوف .
فلو كان البوليس متعاملاً مثقماً لكانت المصيبة أخف من ذلك كثيراً - اقتبسنا هذه
العادة الجهنمية من الافرنج وانقمنا اقتباسها بحذافيرها ولكننا لم نحسن تدارك اضرارها
كما يتداركها هم . فالبوليس مكلف بمنع نبات الهوى من الطواف على الشكل الذي
نشكو منه ولكنه لا يفعل لاعدار لا طائل تحتها

هذه شكوانا على الخصوص من نبات الهوى اللواتي يتجولن في الشوارع
الكبرى حول الازبكية بالقاهرة والمنشية بالاسكندرية . ولكننا نشكو شكوى عامة
من اباحة الفحشاء والعبث باسباب العفاف - والعفاف سياج العمران

لا تفلح أمة انغمس ابناءؤها في حمأة الفحشاء ولا سيما اذا انتهت ونهضت تطلب
استقلالاً أو نيابة أو رقياً سياسياً أو ادارياً والانغماس في الفحشاء انما يقع في اواخر
الدولة ويكون دليلاً على سقوطها . أما في اوائلها أو في أثناء نهوضها فلا بد من تنزيها
عن تلك الدنيا لما يترتب على ذلك الانغماس من ضياع القوى العقلية والبدنية فيتولى
صاحبه ضعف العزيمة والحوّل فيذهب نشاطه وتسقط همته وتضعف نفسه - ومن
كان عبداً لشهواته لا غرو اذا استعبده الآخرون . ولا يعترض بشيوع ذلك في
أوروبا فلنا عاداتنا وطبائعنا ولهم عاداتهم وطبائعهم وما يوافق قوماً قد لا يوافق آخرين

شهادة الباروخ

على اننا لا نعرف أحداً ينكر مضار الفحشاء وما تأول اليه من أحوال الضعف
عقلاً وبدناً . يدلك على ذلك اجماع الامم على تجنبها ولا سيما في أثناء تيقظها ونهوضها
لاصلاح شؤونها . ولا خلاف في ان الامة الناهضة لا فائدة من مساعيها ان لم يكن
العفاف نبراسها . اعتبر ذلك بما مر على الامم من أدوار التاريخ قديماً وحديثاً . فلا ترى
دولة قامت وتآبدت الا كان العفاف سياجها مع اعتبار طبائعها وسائر أحوالها . وما

من دولة ذهب الا كان الانقاس في المنكرات من أكبر أسباب ذهابها . انظر الى دولة الرومان التي امتد رواق سلطاتها على الخافقين وحملت اليها الجزية من أربعة أقطار المسكونة فانها حالما فسدت آداب أهلها فسدت نظامها ووهبت قواها وما لبثت ان سقطت وكان سقوطها عظيما . ولو تتبععت تواريخ الأمم على اختلاف الزمان والمكان لرأيتهما تتشابه من هذه الحيشة وكلها قد ذهبت فريسة التهلك والابتذال

واكن ما لنا وللامم البعيدة . اليك دولة العرب التي قل أن بلغت دولة مبلغها من العظمة والسطوة وهي انما بلغت ما بلغته من ذلك في صدر الاسلام على عهد الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم من التابعين وتابعي التابعين الذين اتخذوا العنافة نبراساً وعملاً بمقتضى الكتاب والسنة فاتسع ملكهم ودانت لهم الرقاب حتى اذا كانت أيام دولة بني العباس وقد بلغت شمسها الهاجرة في عهد الرشيد واماؤن مالوا الى البذخ وانقطعوا الى الشهوات . فاذا كانت أيام المعتصم ومن بعده تعاظم اقتناؤهم للجواري والماليك واطلقوا لشهواتهم العنان فانتفوسوا في الفساد واكثروا من التهلك والفحشاء فذلت نفوسهم وخارت قواهم وتغلب عليهم الاتراك والترك والاكراذ وغيرهم فذالت دولتهم وانكد طود ملكهم واندرت اعلام مجدهم ولم تقم لهم قائمة من ذلك الحين

على اننا لا نحتاج الى النظر بعيداً وشاهدنا قريب في دارنا هذه مصر السعيدة فقد جاءها المغفور له محمد علي باشا مؤسس العائلة المحمدية العلوية والمنكر ضارب اطنابه فيها بما احله الامراء المماليك من المحرمات وقد ضربت الذلة والمسكنة على المصريين حتى لم يكن يرحى لهم بعث من ذلك الموات وخصوصاً بعد الحملة الفرنسية التي زادت الاباحة واطلقت سراح المومسات فعلم محمد علي باشا الداء وبادر الى الدواء فشدد التنكير على كل منكر وعمل على قطع دابر المتهتكات نفياً وقتلاً ويحكى انه علم بارتكاب بعض رجاله منكراً من هذا القبيل فامر به وبالمرأة فاغرقا في النيل معاً ولا ازيدك علماً بعاقبة ذلك ولسان الحال شاهد عدل

وبالغ المغفور له سعيد باشا في اتباع العقاف حتى في الحلال لاعتقاده بما ينجم عن اطلاق هوى النفس من ضعف العزائم فقد ذكروا أنه لما سافر في أوائل سنة ١٢٧٩ هـ الى اوربا لمعالجة نفسه من داء السرطان كتب الى قائمقامه في مصر يطلب جميع الضباط المصريين من بلادهم واقامتهم في قصر النيل ومدامتهم على التدريس في القوانين العسكرية وهذا قوله « ان الضباط الوطنيين المترقين من تحت السلاح قد

اشتغلوا بملازمة نساءهم وتركوا دروسهم ولو تركناهم على هذا الحال الذي لا يعود عليهم الا بالوبال لفقدوا العافية والنظر وصاروا عبدة لمن يعتبر . وبما اتنا نحن الذين ربناهم وربناهم وأظهرناهم فلا يصح لنا تركهم في هذا الحال الذي ذكرناه فقد اقتضت ارادتنا جمعهم من بلادهم وعدم تمكينهم من نساءهم حتى ولا بالنظر اليهن بالعين والتشديد عليهم بمداومة التدريس ليلاً ونهاراً في قصر النيل »

وزد على ذلك ان الفحشاء منكر من المنكرات التي ينهى عنها الدين والشرع على اختلاف الاعصر فما من دين الا وهو ينهي عنها ويشدد العقاب على مرتكبيها . والشرائع لم توضع عبثاً سواء كانت دينية او مدنية وهي مجمعة على اضرار هذا المنكر على انا اذا سلمنا مع الفائلين باطلاق الحرية اقتداء بالدول المتقدمة وأن ذلك الشر ضروري لا مندوحة عنه بشرط أن تتولى الحكومة مراقبته وتعهدها المؤسسات بالكشف الطبي منعاً لانتشار الامراض ايثاراً لاختيار اهون الشرين لانها في حال تخالف ما كان على عهد محمد علي وانما تعجز عن منع الفحشاء - اذا سلمنا معها بذلك فانها لا تنجو من غائلة اللوم على أمر هو عندنا من الاهمية بمكان عظيم وذلك أن اما كن الفحشاء هذه معظمها في اواسط المدينة وعلى الشوارع العمومية بحيث تكون اشراكها اكثر اصابة فضلاً عن الاضرار التي تلحق بالعائلات الساكنة في ذلك الجوار فالحكومة مطالبة شرعاً وعرفاً بدفع هذه الحظورات بتقنية المدينة من هذه الاوساخ وتطهيرها من هذه الارجاس واذا كانت لا تستطيع استئصال شأفة أولئك الابالسة فلا أقل من اخراجهن من قلب المدينة الى مكان بعيد في ضواحيها فلا يذهب اليهن الا المستهلك في سبيل شهواته وهذا حياته كماته وينجو كثير من الشبان الذين انما يقادون الى تلك الاماكن أنقياد الشاة الى الذبح اما بلفظة أو بشارة او على اثر كاس من الخمر او قدح من (البيرا) وهم ليسوا مخطورين على الرذائل ولكن وجود تلك الفخاخ في وسط المدينة وعلى قارعة الطريق هو الذي جرهم الى هذا المنكر لان أولئك المؤسسات يخرشن بهم بأساليب الخلاعة مما تشتمل منه النفوس ولا ينجو منهم الا الذي رسخت قدمه في المبادئ الصحيحة ولكن الضمءاء في الناس أكثر كثيراً من الاقوياء فلو كانت هذه الاماكن خارج المدينة لما وصل اليها الا المنغمس في شهواته ولا سبيل الى اصلاحه ولا فائدة من وعظه

من المألوف

فاللوم واقع معظمه على الحكومة وهي الوصية على الناس تراقب أعمالهم وتتولى هدايتهم ووقاية أبدانهم فعلها التبعة الاولى يشاركها فيها الآباء . ولا يخلو الشبان أنفسهم من هذه التبعة ولا سيما في هذا العصر عصر النور والعرفان وهم لا يجهلون عواقب هذه المنكرات

والانكى من كل ذلك ان مرتكبي هذه الدنيا أكثرهم من أهل اليسار وهم الذين يرجو الوطن منهم رفع مناره وتعزيز شأنه - نعم ان ذلك لما يزيد المصيبة كبراً . ومن البلية ان يكون المال وسيلة للخراب والناس انما يسعون فيه طلباً للعار وهو بالحقيقة قوام العمران اذ يتخذ اولئك الاغرار وسيلة لهدم أركان الهيئة الاجتماعية وتدنيس الآداب العمومية . أليس من موجبات الاسف أن يكون بيننا شبان وهبهم الله جسماً صحيحاً وعقلاً صحيحاً وقد تعلموا وتمذبوا وثقفوا فضلاً عن استمدادهم الطبيعى للعمل وقد خلو جيوبهم عثرة في سبيل أعمالهم وربما قضوا السنين الطوال يحرقون ويتمرمرون لقصر ابدىهم عن أعمال قد حال فقرهم دون مباشرتها ولو باشرها لجات بالنتائج العظيمة لوطنهم اول بني الانسان كافة . وأن يكون في الجانب الاخر شبان ولدوا في نعيم وعز وتربوا في بحبوحة السعادة والرفاه لا يعرفون للدينار قيمة الا بما يسهل لهم من طرق الفحشاء والعياذ بالله فينفقون الاموال الطائلة في سبيل امرينكره الشرع والعرف وتنفر منه الآداب وتحافه الفضيلة ويرتجف لهوله العمران لانه هادم لأركانها مقوض لدعائمها كأن الغنى وسيلة لارتكاب الدنيا فبئس الغنى ويا حبذا الفقر

آفات التمدن الحديث

في الهيئة الاجتماعية الشرقية (١)

مرّ على الانسان من اول عهد التاريخ الى الآن ادوار كثيرة تمدن في كل دور منها تمدناً يختلف نوعاً ومقداراً باختلاف الاحوال والاماكن . وتقلب التمدن في

(١) عن الهلال سنة ١٠ صحيفة ١٠٩

مختارات

عهد التاريخ بتقلب الدول والاحياء فنشأ التمدن المصري القديم والتمدن الاشوري فالفينيقي فاليوناني فالروماني فالتمدن العربي الى التمدن الافرنجي الاخير وهو التمدن الحديث . على ان اكثر ضروب التمدن مأخوذ بعضها عن بعض او قائم بعضها على انقاض بعض . والتمدن على اطلاقه حسن لانه دليل الارتقاء أو هو الغاية التي تسعى الامم اليها فاذا بلغت ذروة مجدها

على اننا لو نظرنا في انواع التمدن على اختلاف العصور لما رأينا تمدناً خلا من آفات ما زالت تخرب في بدنه نخر السوس حتى أماته وذهبت باهله الى مهاوي الانحطاط . فقد كان من آفات التمدن المصري القديم مثلاً استبداد الفراعنة والسكينة في الشعب واستعباده ونسيخه واستبقاؤه في ظلمات الجهل . فاقاموا الجمعيات السرية حاجزاً بينه وبين العلم فأحصرت المعرفة في فئة السكينة دون سائر الناس قال الجهل هؤلاء الى الانغماس في عبادة الاحجار والانصاب والتعويل على الخرافات والالوهام وما عاقبة الجهل الا السقوط

ومن آفات التمدن العربي المغالاة في الترف والقصف والاستكثار من الجواني والماليك . والعرب انما اقتنوا المالك في بادى الامر من الاسرى للتفاخر بابهة الملك والتمتع بلذة النصر . ولكنهم ما لبثوا ان عمدوا على اقتنائهم بالمال أو بالمهادنة . وما زالوا يبالغون في ذلك حتى كثر هؤلاء وتعلموا وتدريبوا فهدوا أيديهم الى الحكومة وجعلوا يرتقون فيها رويداً رويداً حتى قبضوا على أزمة الاحكام فاندurst دولة العرب ونشأت دول الاكراد والشركن والاراك وغيرهم مما يطول شرحه ولا محل له هنا

ويقال مثل ذلك في سائر اصناف التمدن القديم فقد كان لكل منها آفة أو آفات ما زالت تخرب فيه حتى أماته . ويزعم انتخاب التمدن الحديث انه افضل ضروب التمدن وأقربها الى البقاء لانه مؤسس على العلم والعدل والحرية . وهو قول معقول نرجو أن يكون صحيحاً ولكن لهذا التمدن اضراراً كثيرة لا يصح التجاوز عنها وقد انتهت بعض الامم اليها فتلافت ضرورها وتغافلت أمم اخرى عنها وما عاقبة تغافلها الا السقوط وغرضنا في هذه المقالة البحث في ما جره هذا التمدن من الاضرار على الهيئة الاجتماعية الشرقية مما كانت غنية عنه في حالها الاولى . ولا نعرض لما اكتسبه الشرق من فضل التمدن الحديث فانه مشهور لا يحتاج الى بيان . وذكر مساويء

هذا التمدن لا يقلل قيمة ما اشتهر من محاسنه . ولكننا عمدنا الى ذكر المساوئ
 رغبة في تجنبها قبل استفحال امرها وهي عديدة نذكرها بالنوالي - فمنها :

التهمك

طُبع الشرقي على الحياء والغيرة وجاءه الحجاب متمماً لها . فاصبح التهجيب
 من الغرائز الشرقية الظاهرة ومهما قيل في الحجاب واضرارها أو منافعه فانه بلا
 خلاف خير من التهمك الشائع في بعض المدن الكبرى
 يبدأ تاريخ الشرق الحديث بظهور الاسلام والاسلام انما انتشر وتأيدت دولته
 في الصدر الاول بما اشتهر به الخلفاء الراشدون من العفاف والزهادة عملاً بالكتاب
 والسنة فكان الناس في اثناء القرن الاول للهجرة لا شاغل لهم الا الجهاد والفتوح
 والتسابق الى الفضائل حتى رسيخت قدم الاسلام وتوطدت دعائمه على عهد الدولة
 الاموية . ثم عمد الامويون في اواخر دولتهم الى البذخ والقصف وبالغ بعضهم بالتهمك
 قال بهم ذلك الى السقوط . فانتقل الملك الى العباسيين فعملوا على نشر العلم والصناعة
 حتى بلغ التمدن في عهد الرشيد والمأمون أعلى ذرى المجد . فمالوا الى البذخ
 وعمدوا الى اقتناء المالبك والجواري - بدأ الخلفاء في ذلك واقتردى بهم الناس على
 اختلاف طبقاتهم عملاً بالقول المأثور « والناس علم دين ملوكهم » - وتصدق هذه
 القاعدة على أهل كل تمدن غير التمدن الحديث في بلاد الشرق لاختلاف العناصر فيه
 واختلاف الاذواق والاخلاق مع تمتع الناس بالحربة الشخصية فلا يعمل العامل الا
 ما يترأى له . وأما من قبل فقد كان الناس كما يكون خلفاؤهم او سلاطينهم ليس من
 حيث الاداب العمومية فقط بل في كل شيء حتى اللباس والطعام والصلاة وغير ذلك .
 فقد كان سليمان بن عبد الملك الخليفة الاموي (سنة ٩٦ - ٩٩ هـ) يحب الطعام اذا
 اتاه الطباخ بشواء فلا يصبر حتى يبرد فيأخذه بكفه وكان نهماً يأكل أكلاً كثيراً فكان
 الناس في زمن خلافته اذا تلاقوا سأل بعضهم بعضاً عما أكلوا البارحة وعما يأكلون
 اليوم . وكان عمر بن عبد العزيز الاموي (سنة ٩٩ - ١٠١ هـ) زاهداً صاحب عبادة
 وتلاوة قرآن فكان الناس اذا تلاقوا في ايامه سأل بعضهم بعضاً ما وردك الليلة وكَمْ
 تحفظ من القرآن وكَمْ تقوم من الشهر . وأدلة ذلك كثيرة في الاعصر الاولى للاسلام
 الي اوائل هذا القرن لما دخل التمدن بلادنا ونودي بالحرية الشخصية وأصبح الناس

أخلاقاً من أمم شتى وألسنة تترى لا قاعدة لآدابهم ولا رادع لهم
واقف أن التمدن جاء هذه البلاد وهي في مهايي الانحطاط على أثر استبداد
الماليك ومن جرى مجراهم . ولكنه لم يتناول في أول عهده الا التعليم والتربية مع
الحفاظة على الحشمة الشرقية . وأما التهنك وخرق الحجب فلم يظهر الا في اواخر
القرن الماضي لما كثر تقليدنا للأفرنج حتى في ما ينافي فطرتنا . وربما لا ينافي فطرتهم
اذ ما يوافق طبع الغربي قد لا يوافق طبع الشرقي . بدأنا بهذا التقليد في أول القرن
الماضي على أثر دخول فرنسا، بين مصر فكان في جملة ما خلفوه من عادات الافرنج
اطلاق سراح المومسات مثل ما كان شأنهم في بلادهم . وخرج الفرنسيون وبقي
ذلك الاثر حتى تولى المغفور له محمد علي باشا فشدد التكبر على أما كن الفحشاء وعمل
على قطع دابر المتهنكات قفياً وقتلاً . وبحكي انه علم مرة بارتكاب بعض رجاله منكراً
من هذا القبيل فامر به وبالمرأة فأغرقا في النيل معاً

وكان المغفور له سعيد باشا من أكثر الولاة شغياً في صيانة الآداب العمومية .
ولم يطلق سراح أهل الخبلاء الا على عهد الحديوي اسماعيل لكثرة من قدم مصر
من جالية الافرنج على اختلاف مقاصدهم وأغراضهم . وظهرت على أثر ذلك بيوت
الخبلاء وانتشرت وسائل التهنك . وما زالت على ذلك الى الان والحكومة ساكتة
عنها كأنها ترى الاصلاح والمدنية يفتقران الى مثل تلك البيوت - بل هي تعمد السبيل
لها بما أوففته من الاطباء لفحص المومسات فحسباً طبيباً في أوقات معينة وأما كن معلومة -
وهي انما فعلت ذلك اقتداء بدول الافرنج . ولعل عذرهما انها اختارت أهون الشرين
فلما لم تر سبيلاً الى منع الفجور خافت تفشي الامراض الخبيثة فعينت الاطباء دفعاً
لتلك الغائلة

فالحكومة لا تلام في عجزها عن قطع دابر المومسات اليوم وهي اذا أرادت
ذلك فالامتيازات الاجنبية تقف في سبيلها في جملة العثرات . ولكنها تستطيع أمراً
لا عذر لها في التعاضى عنه وهو اخراج تلك الاماكن النجسة من اواسط المدينة
وابعادها عن الشوارع العمومية فيقل خطرهما ولا يصل اليها الا المستهلك في سبيل
شهواته وينجو جماعة كبيرة من الشبان الذين انما يتقادون الى تلك الاماكن بضعف
ارادتهم فيساقون كما تساق الشاة الى الذبح بلفظة أو اشارة على اثر كأس من الخمر أو
قدح من البيرا مع سهولة الوصول الى « نوافذ جهنم » لقربها من الحانات والقهوات

ولو اقتصرت تلك الآلات الجهنمية على التربص في منازلهم ونصب الشباك على
النوافذ والابواب لهان البلاء . ولكنهم يخرجون للصيد في الطرق وحول الحدائق
يشرن بالحواجب والعيون والانامل . وقد يفعلون ذلك على مشهد من رجال الشرطة
لا يبالين ولا يبالون كأنهم يدعين الناس الى فضيلة او يساومهم على تجارة
نعم اننا في عصر الحرية وكل مسأول عن نفسه ولكن المحافظة على الآداب
العمومية من قبيل المحافظة على الامن العام اذ لا تنقضي ليلة لا نسمع في غدها خبر
خصام أو نزاع ووقوع قتل أو جريح في أماكن الفحشاء أو ما يجاورها . وقبلما تبغنا
السبب الا رايناه يتصل بما قدمناه من اطلاق السبيل الى هذا الحد
وليس من الانصاف أن نلوم الحكومة ولا نلوم الشباب واكثرهم من أهل
البيوت المعروفة وفيهم جماعة من تلامذة المدارس . ومن العار على من تعلم الفضائل
واستنار بنور العلم أن يطرح آدابه وحقته في تلك المصارف المنجسة

الانتحار

الحادث والمزمع^(١)

الانتحار او قتل النفس قديم بقدم الانسان لانه من نتائج الضعف البشري
والانسان ضعيف من فطرته . وأقدم ما ذكره من حوادث الانتحار مقتل شمشون
في اوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد ومقتل شاول في أواسط القرن الحادي عشر
على ما جاء في التوراة

وأما حوادث الانتحار في التاريخ القديم فعديدة من أفظعها ان فرقة من الجند
الروماني على عهد تروكون الاول انتحرت كلها سنة ٦٠٦ ق م تخلصاً من عار توهموا
انه لحقهم بأوامر صدرت لهم ان يجنفروا أسراباً للاقدار العامة . وهناك حوادث
اخرى انتحرت فيها الملوك والقواد والفلاسفة وغيرهم
ومع ذلك فالشرائع اليونانية والرومانية كانت تعد الانتحار من أظفح الجرائم

وكانت تحرق اليد التي تتعمد ذلك دون سائر البدن - فضلا عن غضب الكنيسة على المنتحر لاي سبب كان . وكانت تحلل الاستيلاء على ماله وعقاره . ثم تعدلت تلك القوانين وتخففت فاكثفوا بصلبه على متصلب الطرق عبرة للناس . ثم تعدلت مرة أخرى سنة ١٨٨٢ ولكن المنتحر لا يزال الى الآن يدفن ولا يصلون على جثته

وللعلماء بحث طويل في الانتحار وأسبابه وعلاقته بالفصول والاعمار والمهن والبقاع والاجناس وغير ذلك . وقد وضعوا الاحصاءات المختلفة عن حوادث الانتحار في ممالك أوروبا باعتبار الازمان

ويظهر من مقابلة هذه الاحصاءات ان الانتحار في ايرلندا أقل مما في سائر ممالك أوروبا . وفي سكسونيا أكثر مما فيها كلها . ويظهر بالاجمال ان سكان جزائر بريطانيا العظمى وايطاليا أقل تعرضاً للانتحار من سواهم

وقد بذل العلماء قصارى جهدهم في ارجاع هذه الفروق الى أسباب متصلة بالشعوب أو بالاقليم أو بالازدحام أو بأحوال أخرى ولكنهم لم ينتهوا الى نتيجة قطعية . وبحث آخرون في علاقة ذلك بالجنس بين الذكور والاناث وبالسن بين الشباب والكهولة وبالهن ودرجة التهذيب . فأتضح من هذه الجهة أن الانتحار أكثر في المتعلمين مما في سواهم ولذلك رأيناه يترادى بتوالي الاعوام

أما بالنظر الى الجنس فقد اتضح أن الانتحار في الاناث لا يقل عن ١٥ ولا يزيد على ٣٠ في المئة من معدل وفيات الانتحار في أي بلد كان وما بقي فهو من الذكور . ومع ذلك فإنه يختلف باختلاف الأمم فهو على معظمه تقريباً عند الانكليز فقد كان معدل وفيات الانتحار في نسائهم الى سنة ١٨٧٦ نحو ٢٦ في المئة من مجموع المنتحرين ثم أخذ في التناقص . وكذلك الحال في فرنسا . واما في بروسيا وسائر المقاطعات الجرمانية فمعدل الانتحار في النساء عشرون في المئة من مجمل الحوادث

أما السن فتأثيرها في الانتحار اقرب الى القياس والضبط ويؤخذ من الاحصاءات التي وضعوها في هذا الموضوع ان للسن تأثيراً في حوادث الانتحار يكاد يكون واحداً في كل الممالك مع اعتبار ما يشاركه من العوامل الاخرى التي تختلف باختلاف الاقاليم والامزجة ويظهر من هذه الاحصاءات أيضاً ان حوادث الانتحار آخذة في الازدياد كل سنة عما قبلها

وقد ثبت أن وطأة الانتحار تزايد بسرعة من سن العاشرة الى الخامسة والحسين وتبقى على وتيرة واحدة تقريباً عشر سنين ثم تتناقص بقلّة . ومما يستحق الذكر ان نسبة الانتحار في الاناث الى الاعمار تختلف عما في الذكور وللمهن تأثير على حوادث الانتحار ولكن تحقيق تلك النسبة صعب . على ان الدكتور اوكل قد بذل العناية في استخراج ذلك في المدة من سنة ١٨٧٣ - ١٨٨٣ في انكاترا وويلس فجمع تسعة آلاف حادثة انتحار لاناس اصحاب مهن معروفة فوجد اكثر المهن تعرضاً للانتحار الجندية وحوادث الانتحار فيها تزيد على سائر الحوادث زيادة فاحشة - ولعل السبب في ذلك اقترار اصحابها على الانتحار في أي وقت كان لوجود الاسلحة معهم دائماً . ثم يأتي بعد الجند أصحاب النزل والحانات ممن يدمنون المسكرات . ثم رجال الطب والصيدلة والعطارة لسهولة توصلهم الى العقاقير السامة ومعرفتهم أنسبها للقتل بلا ألم . ولاحظ الدكتور أوكل أيضاً أن أصحاب المهن البدنية على الاجمال أقل تعرضاً للانتحار من أصحاب المهن العقلية . وبالجملة أن الانتحار في المتعاملين اكثر مما في أهل الجهالة - نقول ذلك مع الاسف الشديد

وللفصول تأثير شديد في الانتحار فقد تحققوا بالاحصاء والمراقبة انه اكثر حدوثاً في مايو ويونيو مما في سائر الاشهر . ويكاد ذلك يكون عاماً في كل الممالك الا في بافاريا وسكسونيا فان معظمه يقع في يوليو . ويظهر تأثير الفصول في الانتحار في الاناث اكثر مما في الذكور وخصوصاً في ايطاليا ويعمل ذلك بعضهم بان الاناث يفضلن الانتحار غرقاً وهذا ميسور لهن في الصيف اكثر مما في الشتاء

وطرق الانتحار تختلف أيضاً باختلاف البلاد فالانكليز يفضل رجالهم الانتحار شنقاً ونساءهم غرقاً . والايطاليان اكثر ما يكون انتحارهم باطلاق الرصاص والنساء بالغرق والبروسيان اكثر من نصف حوادث الانتحار عندهم بالشنق رجالاً ونساءً . وهناك طرق اخرى لا نخوض فيها لضيق المقام

قلنا - ولم يتأت لاحد ان يضع احصاء لحوادث الانتحار في بلادنا ولكن بالقياس على البلاد الاخرى يجب أن يكون ذلك المنكر قد تكاثر فيها من اواسط القرن الماضي ثم تزايد زيادة فاحشة في أواخر ذلك القرن . وسيتزايد في اوائل هذا القرن بناء على ما تقدم من علاقة تلك الجريمة بانتشار العلم وتزايد انتشاره للاسباب

التي قدمناها . ولأن التعليم وسائر وسائل الحضارة تضعف القوى البدنية وتزيد حساسة القوى العصبية فتعظم الانفعالات النفسية حتى تسدل على العقل حجاباً كثيفاً فيعمل صاحبه ما لا يعمل الا المجانين - والانحار ضرب من ضروب الجنون وخصوصاً ارتكابه للأسباب النافذة التي قد لا تخرج عن اعتبارات وهمية لا حقيقة لها في الواقع . فالمتنحر اذا كان مصاباً بداء عضال لا يرجو منه شفاءً مطلقاً وهو يقاسي منه آلاماً مبرحة قد لا يلام اذا احب التخلص من هذه الحياة وعجل اجله اياماً او اشهرآ وان كان ذلك مما لا يحجزه الشرع ولا الدين

ولكن أكثر الذين عرفناهم من المتنحرين شبان في مقتبل العمر يحاح الابدان والعقول يرجون مستقبلاً مجيداً وقد حامت الآمال حولهم . فلا نعلل انتحارهم بغير الجنون الموقت - والا فيستحيل على عاقل أن يقدم على ارتكاب جريمة القتل من نفسه وهو اذا أراد احداً مسه بجراحة أعظم أمره وطالبه بعمله اما انتقاماً واما تقاضياً فكيف يقدم هو على قتل نفسه وفيه عقل ؟

على ان المتنحر لا يمد تلك اليد الاثيمة لهدم ذلك البناء المقدس الا وهو مقتنع بما يسوغ له ذلك وربما عدَّ عمله هذا فضيلة . على انه لو اتقى على نفسه وكشف احداً بعزمه او تربص ريثما يعود الى رشده لرجع عن جنونه

واكثر ما نسمع به من حوادث الانتحار سببه الفقر او اليأس من النجاح او الفشل في بعض الاعمال او الحية في بعض الآمال . فالذي ينتحر فراراً من الفقر انما هو حيان أدى به اعتقاده العجز عن الارتزاق الى التخلص من الحياة بفعل منكر يفتقر الى اقدام أعظم كثيراً مما قد يحتاج اليه الارتزاق . فلو ان بدلاً من اقدامه على قتل نفسه نشط للسعي في أسباب الرزق بالاسفار أو الاخطار لسكنى نفسه مؤونة هذا الذنب واختبر الحياة من وجه آخر - ولكننا لا نعد الانتحار اقداماً وانما هو جنون ناتج عن ضعف الارادة وانحطاط القوى الادية

أما الذي ينتحر لفشل في أمل فما أضيّق مطامعه وما أقصر آماله - وما عليه اذا خابت آماله في جهة الا أن يحولها الى جهة أخرى ويعد خيبته درساً استفاده في حياته الدنيا فلا يعود الى تمليق الآمال وحصرها في جهة واحدة او في شخص واحد اعتباراً بقول الشاعر :

لست الملموم أنا الملموم لاني أنزلت آمالي بغير الخالق

لا نستنتي من ذلك ما يحدث من هذا القبيل في حوادث العشق ونحوه لان الحب مهما يكن من سلطانه على القلوب فالعقل لا يزال يرقب سبله من قمة البدن فيستشرف حركات القلب ويهزأ بها ويعد أكثرها جنوناً - فلا يعدم الانسان بالعقل نذيراً في ساعة اليأس وما عليه الا ان يحجب أنذاره بالترص برهة ريثما ينوب الى رشده . والغالب في المترص أن يخجو من الموت وبضحك مما مرَّ في ذهنه من هذا الشأن ومن الاسباب المهمة للانتحار بين شباننا مطالعة أقاصيص الانتحار في الروايات الغرامية المنقولة الى لساننا وفيها من ينتحر او يتسرع في الانتحار لاسباب طفيفة وهمية ومؤلف الرواية يحسن ذلك العمل ويعدّه من الفضائل - فاذا كان الفارسي ضعيف الحكم انتقاد بما تؤثره عليه تلك الكتابة الى استحسان الانتحار والتشبه به عند الحاجة - فالانتحار فظيعة من الفظائع البشرية المحرمة شرعاً وادباً ولا يقدم عليها الا من مسه الحبل او غلب عليه الحين والضعف

(الانتحار المزمّن) على انا نرانا بالغنا في اعظام عمل المنتحرين « الانتحار الحاد » - ونريد به قتل النفس الذي يرتكبه المرء عن حدة او غضب او يأس فياتمس الموت العاجل - وفاتنا النظر في « الانتحار المزمّن » وهو قتل النفس على مهل ومرتكبوه يزيدون على اضعاف اولئك - ان بين ظهراينا مئات والوفاء يقتلون انفسهم بعادات تتملك فيهم فتتخر عظامهم وتذيب اكبادهم وتفرح امعاءهم وتشوش أعمال ادمغتهم ففسد آدابهم وتهدم منازلهم وتسقط بهم الى حضيض الذل والضعف - ولو أردنا تعداد الرذائل التي يعد مرتكبها منتحراً لضاق بنا المقام فنشير الى بعضها ونبدأ برأسها وهو المسكر « رأس المعاصي » - ألا تعدون السكير منتحراً وهو انما يستدني أجله بما يتعاطاه من تلك « الارواح الشريرة » فضلاً عما يأتيه من الاضرار في اثناء ذلك الانتحار « المستطيل » من القدوة السيئة وما قد يورث اولاده من العلل البدنية والعقلية كما فصلنا ذلك غير مرة

ومن ضروب الانتحار المزمّن « الفحشاء » وفي الاشارة اليها ما يغنينا عن تدنيس القلم في تفصيل اضرارها

ومن قبيل الانتحار المزمّن أيضاً « المقامرة » فان الاسترسال فيها يضعف البدن ويورث العلل ويفسد الاخلاق وكثيراً ما كانت المقامرة علة للانتحار

وقل نحو ذلك في سائر الرذائل على اختلاف ضروبها . فانها مجلبة للاسقام والعلل وتنهي بالموت . ومن يعمل الفكرة في ماجريات الطبيعة يرى من النواميس الادبية الثابتة ان الذين يحدون عن طريق الفضيلة يعرضون انفسهم للهلاك وينتجرون « انتحاراً زمناً » وشواهد الحال اكبر دليل

المسكر والهيئة الاجتماعية^(١)

لم تر المدنية سوساً انخر في جسمها من المسكر . وقد يعترض ان الفحشاء والمقامرة اكثر ضرراً واسوأ مصيراً . لكنك اذا نظرت الى العاقبة وفكرت في الاسباب والمسببات رأيت المسكر اكثرها ضرراً لانه كثيراً ما يكون الباعث على سائر المنكرات لان الانسان يعمل في سكره ما لا يجراً عليه في صحوه ولذلك قالوا « السكر رأس المعاصي » وهي حكمة مبنية على الاختبار وقد يتبادر الى الاذهان اننا نريد بالسكيرين الذين يترنحون ويعربدون ويخلطون في اقوالهم أو يفقدون رشدهم أو يتقيأون ما في أحشائهم . نعم اننا نريد هؤلاء ولكننا نريد أيضاً طائفة من الادباء وأهل الوجاهة أدمنوا على المسكر بالاعتداء أو الاستطراق وهم لا يحسبون انفسهم في عداد السكيرين لانهم لا يعربدون ولا يترنحون ولا يفقدون رشدهم بل قد يكونون في حال سكرهم أوعى منهم في حال الصحو . ولكنهم مع ذلك مولعون بالشرب مدمنون عليه فاذا مالت الشمس انقبضت نفوسهم واطلمت قلوبهم ولا يزالون في تلك الظلمة الى أن تشرق شمس الحياء في الكأس ثم تدب في عروقهم ديب الافعى ولكنها نظرهم وتفرج همومهم فيعاقرونها ساعات متوالية وهي تزيد وجوههم اشراقاً وقلوبهم انبساطاً وربما دام سرورهم الى آخر الليل . وقد يثابرون على هذه الحال اياماً أو أشهراً أو اعواماً وهم لا يرون ما يكدرهم ولا ما يدعو الى العدول عن معاقبتها . وقد ترى جماعة منهم يزدادون سمناً وصحة (بحسب الظاهر) فلا غرو اذا أعدها بعضهم علاجاً شافياً لكل الامراض فاذا أصابته الحمى عمد الى البيرة واذا خاف الوباء الوافد تدرع بالكنياك أو الويسيكي

وهناك فئة ثالثة من مدمني الخمر يشربونها لتنبية شهوة الطعام أو المساعدة على الهضم أو نحو ذلك من الفوائد الصحية (على زعمهم) . فهم لا يتناولونها الا قبل الاكل أو على المائدة ويقاخرون بتناولها ويصفونها لاصدقائهم وخصائهم دواء شافياً . ولكنهم مع ذلك قد أدمنوا عليها حتى أصبحوا لا يستطيعون طعاماً ولا يهنأ لهم زاد الا اذا جعلوا فراشه كاساً أو كؤوساً من العرقى أو الكنيك أو البيرة

وهناك طائفة أخرى من مدمني المسكر يريدون به ازالة الهموم أو استجلاب السررات وهم السواد الاعظم من المدمنين واكثرهم من واسط الناس واكبرهم وفيهم جماعة كبيرة من أهل الوجاهة بيننا . منهم من يشرب في منزله ومنهم من يشرب في الحانات وأماكن اللهو وهم يفعلون ذلك ولا يعدون أنفسهم من المدمنين لانهم لا يسكرون ولا يعربدون . ولكن ضرر السكر لا يفوتهم واذا فاتهم ضرره الاجتماعي أو الادبي فلا يفوتهم ضرره الصحي . ان بضعة أقذاح من الخمر متى صارت عادة تتطلبها النفس ولا ترتاح الا بها يغلب أن تطلب الزيادة منها . نعرف غير واحد من خيرة الادباء ومتخرجي المدارس المالية سيقوا الى هوة السكر حتى أدمنوه وهم لا يشعرون وكانوا في بادئ أمرهم ينتقدون كل شارب ثم أجازوا لانفسهم قدحاً قبل الطعام على اعتقاد أنه لا يضر وهم في اثناء ذلك يمزأون بالمدمنين ويؤنبونهم ويستخفون احلامهم ويعجبون لتعلقهم بالشرب وكيف أنهم لا يستطيعون ابطاله ثم ما لبثوا أن تدرجوا هم حتى صاروا من المدمنين . وسواء زاد مقدار ما يشربونه أم ظل قليلاً ان الضرر واقع على الصحة لا محالة لان كبد مدمني المسكرات تختلف عن كبد سواهم وشرايينهم تختلف عن شرايينهم ومعدتهم تختلف عن معدتهم كما فصلنا ذلك وصورناه في السنة الثامنة من الهلال

ويقال بالاجمال ان القوة الحيوية في مدمني الخمر أضف منها في سواهم ولا يظهر ضعفهم من هذا القبيل الا اذا طرأ عليهم مرض يشفي منه غير المدمن بأسبوع فلا يشفي منه المدمن بأسابيع . واذا كانت العلة شديدة تقضي على حياة السكير فلو لم يكن سكيراً لشفى منها . وشواهد ذلك كثيرة يعرفها الاطباء . فقد رأيناهم مراراً بجانب فراش العليل اذا سئلوا عن حاله وهل على حياته خطر أجابوا « لو لم يكن مدمناً المسكر لكان الشفاء مرجحاً أما وهو من المدمنين فالامل في الحياة ضعيف » - ولا ينتبه مدمن الخمر الى هذا الضعف وهو في حال الصحة لانه يرى جسمه يزداد سمناً

ووجهه اشراقاً ولو تفحص أحشاءه لرأى كبده تضرر وشرايينه تتصلب وأمعاءه تضعف فتدأهمه الشيخوخة قبل زمن الكهولة ناهيك بما يظهر من دلائل الضعف في عقله أو خلقه أو آدابه . لان المسكر لا يقتصر ضرره على الابدان فقط ولكنه يتطرق الى العقول والاخلاق والآداب ولا يثبت ذلك صريحاً الا الاحصاءات الطبية والاجتماعية وهي شهادة الارقام لا سبيل الى دفعها . فنقتصر على احصاء اضرارها في العقول والآداب وقد تقدمت الاشارة الى اضرارها البدنية

ويؤخذ من الاحصاءات الاخيرة عن حوادث الجنون في العالم المتمدن نقلاً عن كشفوف المستشفيات المبينة فيها الاسباب ان الحوادث الناتجة عن ادمان المسكرات تتراوح بين ربع عدد المصابين ونصفهم باختلاف الممالك والاقليم أقلها في ذلك انكلترا وويلس وأكثرها باريس على هذه الصورة نقلاً عن تقارير المستشفيات في البلاد المذكورة

حوادث الجنون الناتجة عن المسكر

اسم الاقليم

من ٢٥ - ٣٠ في المئة
» » ١٤٦
» » ٦٢
» » ٥١
» » ٤٠
» » ٤٥

الولايات المتحدة
انكلترا وويلس
اسكوتلاندا
باريس
فينسا
بروسيا

وأما تأثير المسكر على الاخلاق والآداب فيستدل عليه من احصاء الجرائم التي يسببها السكر وهذا جدول الجرائم الناتجة عن المسكر بالنظر الى مجموعها باختلاف البلاد الاتية

الجرائم الناتجة عن المسكر

اسم البلد

٩٠ في المئة
» » ٥١
» » ٤٦
» » ٩٠

انكلترا وويلس
ماساشوسيتس باميركا
اوبورن
اسكوتلاندا

اسم البلد	الجرائم الناتجة عن المسكر
ايرلندا	٨٠ في المئة
المانيا	٤٣ » »
فيينا	٥٨ » »
باريس	٨٣ » »

وهناك ضرر عظيم الاهمية يرجع سببه الى المسكر ايضاً نعني الفقر . ويؤخذ من احصاء الفقراء في ماساشوستس ان ٣٩ في المئة من الفقراء سبب فقرهم المسكر وفي سائر الولايات المتحدة نسبتهم ٣٣ في المئة وفي انكلترا بين ٣٣ و ٥٠ وفي المانيا ٧٧ وفي جنيف ٩٠ في المئة

والخلاصة ان نحو ثلث الفقراء المنتشرين في انحاء العالم المتمدين سبب فقرهم ادمانهم على المسكر هم أو آباؤهم فولدوا ضعاف البنية لا يقوون على العمل . وان نحو ربع المصايين بالخبيل أو الجنون سبب جنونهم الادمان على المسكر وقل نحو ذلك في اصحاب الجرائم

ومما ينبغي الالتفات اليه من عواقب المسكر الضرر في النسل . ومن المقرر المشهور ان ابناء السكيرين اهل عاهات ويغلب فيهم البله والجنون والكساح والصرع ويكثر فيهم سوء الخلق والميل الى المنكرات كالسرقة والفسق ويتسلسل ذلك في أعقابهم حتى ينقرض نسلهم

(١) الجامعة او العصية

والجامعة الاسلامية

تحدث الناس طويلاً وتناقلت الصحف فصولاً في معنى الجامعة الاسلامية او التعصب الاسلامي وتناقشوا في المراد من ذلك فرأينا ان نقول كلمة في هذا الباب من الوجهة التاريخية الاجتماعية بالنظر الى العالم على الاجمال والى الاسلام على الخصوص من عصبية العرب في الجاهلية حتى الان

١ - العصبية على العموم

العصبية نسبة الى العصبية وهي « قوم الرجل الذين يتعصبون له وبنوه وقرابته لايه » ويريدون بها اجتماع القوم للدفاع عن مصالحهم المشتركة . والاصل فيها اجتماع الاقرباء من أهل الرجل لايه ثم اطلقوها على سائر الاهل والاقارب من القبيلة الواحدة او القبائل المتقاربة . ولما صارت العرب ائماً وطوائف توسع المولدون في اطلاقها على الامة ثم ابدلوا بلفظ « الجامعة » يريدون بها مصلحة عامة او خصائص مشتركة يجتمع تحتها طائفة من الناس كالدين او الوطن أو النسب

والانسان اجتماعي من فطرته أي أنه ميال الى تبادل المنفعة بالاعانة والاستعانة . ولعل السبب في ذلك كثرة حاجاته وعجزه عن الاستقلال في قضائها فجاء ذلك الى اتئحال أسباب الاجتماع وهي كثيرة مثل أسباب ضعفه . واقدم وسائل الاجتماع القرابة وهي عصبية النسب ثم الوطن والدين واللغة ثم العادات والاخلاق والمهن والحرف حتى الجنس واللون والزواج والعزوبة والشباب والسهولة والطول والقصر مما لا يمكن حصره . وقد يشترك الرجل بجامعة النسب مع واحد وبجامعة الدين مع آخر وبجامعة الوطن مع آخر . وهكذا من حيث المهنة والعادة واللون والسن والطول والزواج وغيرها . كأن يكون طبيباً فيجتمع مع الاطباء بجامعة المهنة او محام فمع المحامين او تاجر فمع التجار . وان كان متزوجاً فهو من جماعة المتزوجين او شاباً فمن الشبان او شيخاً فمن الشيوخ . ويجتمع بجامعة الرجولة مع الرجال وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى

ولا ينبغي أحدنا لهذه الجامعة او تلك الاغتراف الاضطراب الى الاجتماع للدفاع او هجوم او الاشتراك في مصلحة عامة . فاذا رأيت النساء ظالماً من الرجال مثلاً اجتمعن عليهم واتحدن بجامعة الاثوية كما يفعلن في العالم المتمدن اليوم . ويجتمع اليوم الرجال من الجهة الاخرى بجامعة الرجولة للدفاع . وفي حال آخر يجتمع بعض نساء هذه الطوائف وبعض رجالها معاً بجامعة العصبية للدفاع عن الاهل او بجامعة الوطن للدفاع عن البلد او بجامعة الدين للذب عن حوضه . وفي كل حال لا يكون للجامعة معنى ولا هي تبدو للوجود ان لم يكن ثمت ما يبعث عليها من التماس التعاون على مصلحة مشتركة

وتتفرع الجامعة الواحدة الى فروع يشترك آحاد كل فرع منها على آحاد الفرع

الآخر واكثر ما يقع ذلك في الدين والوطن . فاهل القاهرة مثلاً تجمعهم مدينة القاهرة ولكن ابن هذه المدينة يجتمع مع ابن الاسكندرية على غير المصري ويجتمع مع أهل الشرق على أهل الغرب . والمصري المسلم يجتمع مع المصري غير المسلم بجامعة الوطن ومع السوري والعراقي بجامعة اللغة ومع الفارسي والهندي بجامعة الدين . واعتبر هذا التفرع في كل بلد ودين ولغة فترى الجامعات عديدة يشترك بها الناس بعضهم على بعض او مع بعض على التقاطع والتضارب . ولو رسمنا تلك العلائق خطوطاً بين الانسان ومن يشترك معهم بجامعة او غير جامعة لرأينا كلاً منا عبارة عن مركز تنبعث منه الخطوط انبعاث الاشعة من جسم منير حتى تتقاطع وتشبك بالخطوط المنبعثة من جسم آخر على شكل مرتبك متقاطع

فاسباب الاجتماع عديدة ميسورة لكل انسان ولكنه انما يجنح الى احدها اذا مسته الحاجة تبعاً لما يتوسمه من مصلحته بالاجتماع . فاذا خاف أهل عصبية او قبيل من عدو يسطو عليهم اجتمعوا عليه بجامعة النسب وهم الاهل والاقرباء فاذا لم ينفعهم ذلك استعانوا بجامعة الوطن فاذا عجزهم التغلب بها توسعوا بجامعة الدين او اللغة ويختلف ذلك باختلاف العصور وتباين الاحوال

واذا نظرنا الى الجامعة نظراً عاماً رأينا اوسعها واشملها اربع جامعات وهي : جامعة النسب وجامعة الوطن وجامعة اللغة وجامعة الدين . واذا راجعت التاريخ القديم رأيت الناس يختلفون من حيث اعتمادهم على احداها باختلاف حاجتهم اليها ويختلف ذلك في الامة الواحدة باختلاف ادوار تمدنهم

٢ — الجامعة عند الامم الاوربية

من اظهر اسباب الاجتماع عند الامم القديمة الوطن او اللغة فقد كان اليونان يجتمعون على الفرس والفرس على المصريين وكانت كل امة من هؤلاء تنقسم فيما بينها باعتبار البلاد فاهل اثينا يجاربون اهل سبارطة وهؤلاء يجاربون اهل طيبة وكل منهم يجارب رومية ولما اتسع نطاق مملكة رومية أصبحت اللغة أو الجنس أو الدولة جامعتهم . ولما اعتنقوا النصرانية وصارت ديانة القياصرة غلبت عليهم جامعة الدين واللغة معاً وتفوّت جامعة الدين على الخصوص لما ظهر الاسلام وفتح المسلمون بلادهم . حتى اذا ضعفت الدولة الرومانية في اوربا وتشعبت مملكتها الى فروع اخذ كل فرع بالاستقلال والنمو على حدة وجعلوا جامعتهم التي يجتمعون بها ويدافعون عنها

اللغة فتكونت دول فرنسا واسبانيا وإيطاليا وغيرها - فاعتبر كيف استعانوا على الاستقلال بجامعة الوطن وأغضوا عن الدين . فلما نهضوا لمحاربة المسلمين واسترجاع بيت المقدس عادوا الى تلك الجامعة لأنها تشملهم جميعاً تحت راية واحدة وحملوا على الشرق الحملات الصليبية المشهورة . فلما دحروا وعادوا الى بلادهم ونهبت فيهم روح الارتقاء وطلبوا العلم . كانوا استقلالهم باغفال اللغة اللاتينية وهي بقية الجامعة الرومانية . فبعد ان كانت لغة العلم والسياسة عند الامم التي تحلفت عن دولة رومية نبذوها واتخذت كل امة لغتها بدلاً منها . فزادت العصبية الوطنية رسوخاً في تلك الممالك ولا تزال هي جامعتهم الكبرى

ومع ذلك فليجامعات الاخر آثار تظهر عند الاقتضاء لان الكاثوليك اذا رأوا من الانجيليين حركة يخافون ضرراً تضافرت الدول الكاثوليكية بجامعة الكنيكة على دفعها واذا رأى أهل اوربا حركة اسلامية في الشرق تباحثوا في الجامعة النصرانية . وكثيراً ما تباحث الامم التي اصلها لاتيني كالإيطاليان والاسبان ان يحيا جامعة اللغة المشتركة باسم الشعوب اللاتينية وهكذا فعلت الشعوب التي تشترك باصل جرمانى فانها أحيت بينها جامعة الشعوب الجرمانية . وهم في كل حال لا يلتزمون هذه الجامعة او تلك الا عند الحاجة الى احداها

٣ - الجامعة الاسلامية

واعتبر ذلك في الشعوب الشرقية وأقربهم عهداً منا العرب فقد كانوا قبل الاسلام أهل جاهلية ورحلة لا دين لهم ولا وطن فلم يروا بدأ من اجتماعهم تحت راية النسب او اللغة وهما متلازمان فعنوا بحفظ انسابهم وتفاخروا بها وبالعو في استقصائها على ما بيناه في الجزء الرابع من تاريخ المدن الاسلامي . فكانت عصبية النسب جامعتهم الكبرى يجتمعون اليها ويختصمون بها فيتحد القحطانيون على العدنانيين والعينية على المضرية وقيس على كلب ونحو ذلك

وما زالت قبائلهم تتفاخر بالانساب وتتألب بالعصبية حتى جاء الاسلام واحتاجوا الى جامعة يحاربون بها الامم الاخرى فاجتمعوا باسم الدين وانغفلوا عصبية النسب لانها كانت سبباً في اختلافهم واتقسام قواهم . وأصبح المسلمون اخوة عربهم وعجمهم قحطانيهم وعدنانيهم فظفوا كذلك ايام الراشدين . حتى اذا تسلط بنو أمية واحتاجوا الى مناوأة بني هاشم ومن والاهم من المسلمين العرب وغير العرب لجأوا الى عصبية

النسب واعادوا ما كان قد تنوسي منها واصبح المسلمون مع اجتماعهم بالاسلام حزينين يجمع احدهما النسب العربي ويعرف الآخر بحزب غير العرب وهم الموالي او الشعوبية . والعرب انقسموا الى نحو ما كانوا عليه قبل الاسلام من النية والمضرية وما يتشعب منها . وكانوا انما يلجأون الى هذه الجامعات لغرض سياسي على ما قدمناه عن ام النصرانية في اوربا

وكان العرب الى ارائل دولة الامويين لا يباليون بالوطن ولا يعرفون الجامعة الوطنية لانهم كانوا في صدر الاسلام لا يزالون على بداوتهم اذا ساروا للفتح ساقوا معهم اولادهم ونساءهم وابلهم وسائمتهم كما كانوا يتغازون في ايام جاهليتهم واذا فتحوا بلداً نصبوا خيامهم في ضواحيه مما يلي المدينة (مركز الخلافة) وقد نههم عمر عن الزرع فكانت نههم عن التخصر رغبة منه في استبقائهم جنداً محارباً لا يمنهم عن الجهاد عقار ولا بناء ولا يقعدهم عن القتال ترف ولا قصف . فكانوا يقيمون في معسكراتهم بضواحي المدن كما يقيم حيوش الاحتلال في هذه الايام وكانوا يعبرون عن ذلك بالحامية او الرابطة . فكان المسلمون في عصر الراشدين فرقاً تقيم كل فرقة في ضاحية مدينة من المدن الكبرى وتسمى جنداً وكانت عساكر الشام اربعة اجناد تقيم في ضواحي دمشق وحمص والاردن وفلسطين ومنها تسمية هذه الاقاليم بالاجناد وعساكر العراق كانت تقيم على ضفاف الفرات مما يلي جزيرة العرب في معسكرين صارا بعدئذ مدينتين هما البصرة والكوفة . وكانت جنود مصر تقيم في معسكر على ضفاف النيل في سفح المقطم مما يلي بلاد العرب حيث بنيت القسطنطينية بعد ذلك

فلما طال مقامهم في تلك المعسكرات وافضت الخلافة الى بني امية ورغبوا في الشام عن الحجاز هان على المسلمين اغفال امر المدينة وسائر الحجاز وطاب لهم المقام في الشام وسائر الامصار واغفلوا وصية عمر فاقتنوا الارضين والضيايع وغرسوا المغارس فتحولت تلك المعسكرات بتوالي الاحيال الى مدن عامرة أشهرها البصرة والكوفة والقسطنطينية والقيروان مما بناه المسلمون غير المدن القديمة التي استوطنوها في الشام ومصر والعراق وفارس وغيرها . وما زالوا حتى اقتنوا المغارس والضيايع وابتنوا المنازل والقصور واشتغلوا بالزرع وتعلموا أشغال اهل المدن من تجارة وصناعة ونشأت فيهم الجامعة الوطنية في اهل كل بلد الى بلدهم

ومما حمل المسلمين على اتخاذ الجامعة الوطنية انقسام الاحزاب السياسية يومئذ باعتبار المدن . واول خلاف وقع بين بلدين اسلاميين الخلاف الذي وقع بين الشام والكوفة في ايام عثمان بن عفان ثم حدث الانقسام الوطني السياسي بعد مقتله وكان أساسه الميل الى أحد طلاب الخلافة يومئذ وهم علي ومعاوية وطلحة والزبير فكان اهل الشام مع معاوية لانه أميرهم ومعظمهم من قريش وكان أهل المدينة مع علي وهم الانصار وتبعهم مصر وكان أهل الكوفة مع الزبير وأهل البصرة مع طلحة . فلما كانت واقعة الجمل سنة ٣٦ هـ وقتل طلحة والزبير انحاز أهل العراق الى علي فضلاً عن أهل المدينة ومصر وظل أهل الشام مع معاوية . ولما كانت واقعة صفين ومسألة التحكيم سنة ٣٧ هـ وغلب عمرو بن العاص بمكره فبوع معاوية وترك مصر لعمر بن العاص صارت مصر في حوزة معاوية . ولما قتل علي سنة ٤٠ هـ ومات الحسن ثم قام الحسين بطالب بالخلافة بعد موت معاوية وخلافة يزيد استعان الحسين بأهل العراق وسافر اليهم فبايع أهل الحجاز لابن الزبير . فاصبح الحجاز مع ابن الزبير والعراق مع الحسين والشام ومصر مع معاوية - وهؤلاء انما لجأوا الى الجامعة الوطنية لانها توافق ما في نفوسهم من طلب التغلب

وكان لأهل كل بلد غرض خاص في السياسة عبرنا عنه بالعصبية الوطنية وهي غير عصبية النسب اذ قد يجتمع أهل البلد الواحد على غرض واحد ويعرثون بجامعة واحدة كاهل البصرة والكوفة والشام والفسطاط وهم اخلاط من قبائل شتى . فبكان لكل بلد في عصر بني أمية جامعة خاصة يجتمع بها ويحارب باسمها . وهو مؤلف من قبائل تختلف نسباً وعصبية وفيهم قبائل اليمن ومصر وربيعة وغيرها يقيم كل منها في حي خاص بها يعرف باسمها فكانت البصرة مثلاً دؤافة من خمسة اقسام تعرف بالاخماس كل خمس لقبيلة وقس على ذلك سائر البلاد

ولما طمع بنو العباس في الخلافة واستعانوا على نيلها بالفرس اشتغل المسلمون عن اللغة او الجنس وافترقوا الى حزبين كبيرين فاصبح الفرس في جانب والعرب في جانب وطال اختصامهما حتى غلب العنصر الفارسي على الخصوص بعد مقتل الامين وانتصار المأمون باخواله الفرس وضعف العنصر العربي . ولما تولى المعتصم واستعكث من الاجناد الاتراك ظهرت العصبية التركية وأخذت تقوى بتوالي الاجيال حتى انشأوا الدول الكبرى . ثم ظهر المغول والشرکس والاكراد وغيرهم . ولم ينقض القرن

السابع للهجرة حتى أصبح المسلمون أحزاباً تحارب بعضها بعضاً من بادية تركستان في الشرق الى شواطئ، اقرينيا الغربية في الغرب غير انقسام العرب بعضهم على بعض وناهيك بالاحزاب المذهبية الدينية . وكل طائفة انما اتخذت الجامعة التي تتوقع التغلب بها . واغضوا عن الجامعة الإسلامية لذهاب الحاجة اليها بضعف الدول غير الإسلامية عن مناوأتهم او لاستغلالهم بالاختصاص فيما بينهم عن محاربة اعدائهم

حتى اذا نهض الافرنج تحت راية الصليب وتآلبوا لاكتساح الشرق وفتح يدت المقدس شعر المسلمون بافتقارهم الى جامعة الدين فاغضوا عن كل جامعة غيرها وتكافؤوا لرد هجمات الصليبيين تحت راية الاسلام . ولم يحسن الصليبيون الاجتياح كما أحسنه المسلمون فغلبوا على ما في ايديهم من بلاد الشام وعادوا الى بلادهم

ولما فرغ المسلمون من تلك الحرب الدينية رجعوا الى ما كانوا فيه من الاختصاص من قبل . واكثر اختصاصهم بين السنة والشيعة او الترك والفرس لاستغلال أهل اوربا عنهم بانشاء دولهم الحديثة . حتى اذا شعر المسلمون بضعفهم في العصر الاخير ورأوا مطامع تلك الدول في بلادهم عادوا بطبيعة العمران الى البحث عن جامعة تلم شعنتهم فلم يروا خيراً من جامعة الدين فلبجأوا اليها وقاموا ينادون بها - وهو أمر طبيعي لا غرابة فيه ولا هم يلامون عليه

أما ما يترتب على المناداة بتلك الجامعة فليس من شأن الهلال البحث فيه لكننا بالنظر الى ما تعلمه من قواعد الاجتماع ونواميس العمران وما نعهده من أحوال المسلمين في الاقطار المختلفة الآن لا تتوقع من وراء هذه الجامعة خطراً سياسياً . على اتنا نرجو للمسلمين منها نفعاً أدبياً أو مالياً بما ينجم عن الاتحاد من تبادل المنافع التجارية أو العلمية والتعاون على الاعمال الخيرية بين مسلمي الشرق من اقصاده الى اقصاده ولا نظنه يتعدى ذلك - الا اذا تهور المتطرفون في تقرير العامة واثارة خواطرهم حتى يبدو منهم ما يسميه المتعدنون تعصباً دينياً فينقلب با رجونا من النفع لهم ضرراً عليهم والله اعلم

نظام الاجتماع في فرنسا^(١)

نظام الاجتماع من حيث أساسه واحد في كل بلد وإنما يختلف في تفاصيله باختلاف العصر والاقليم . فالهيئة الاجتماعية في ابسط أحوالها مؤلفة من العائلة والحكومة والكنيسة . فإذا ارتقت نشأت فيها المدارس والجمعيات الادبية والشركات الاقتصادية . وتختلف هذه الجماعات في كل بلد باختلاف طبائع أهله ونوع مدينتهم وسائر أحوالهم . فنظام الحكومة يختلف بين الاستبدادي والدستوري والجمهوري . ونظام العائلة في الشرق غير ما هو في الغرب وفي هذا العصر غير ما كان عليه قبله . كانت العائلة عندنا الى أوائل القرن الماضي على شكل الحكم المملكي المطلق -- الاب رئيس العائلة يستبد في أهله استبداد السلطان المطلق في رعيته زوج من شاء بمن شاء ويعهد الى من يريد بما يريد من عمل أو سفر أو إقامة -- لا يرون في ذلك غرابة . ثم تعدل هذا النظام بعد دخولنا في المدنية الحديثة فاخذت العائلة تقرب من النظام الدستوري لكنهما ما زالت أقرب الى الحكم المطلق ويختلف ذلك باختلاف الامم والاديان

وبناء على ما للاقليم او البيئة من التأثير في ابدان الناس وعقولهم وطبائعهم فاختلاف الاقليم اوجب اختلاف الامم في كل ذلك فلننظر في طبائع الامة الفرنسية على الاجمال

طبايع الفرنسيين

الفرنساوي عامل نشيط يدأب على العمل بحماسة وهمة . ولا سيما أهل الزراعة منهم فانهم اقوياء الابدان يعملون في حقولهم بنشاط . ولا تجد في فرنسا بقعة تقبل الزراعة غير مزروعة . وكذلك العمال والصناع وسائر طبقات الناس فانهم نشيطون في ذهابهم وايابهم وفي كلامهم واشغالهم وفي أسفارهم -- فان احدهم ينزل من القطار ويحمل حقبيته (الشنطة) بيده فاذا كان منزله قريباً سار الى بيته ماشياً لا يرون في ذلك بأساً . على انهم اذا طلبوا غلاماً أو رجلاً يحمل لهم الحقيرة في أثناء الطريق لا يجدون . وهي صفة يشترك فيها أهل اوربا كافة . ويتأثر بها الشرقي حلماً بطأ تلك القارة . وتقوم في نفسه رغبة في الهممة والنشاط فاذا رجع الى بلده عاد الى طبعه . الا اذا توطن اوربا

طويلاً -- ومرجع ذلك الى طبيعة الاقليم . والفرنساوي ذكي الفؤاد سريع الخاطر حاضر الذهن فصيح خفيف الروح فيه ميل الى الفنون الجميلة وذوق في الصناعة الجمال

والفرنساويين ذوق في الجمال لا تضارعهم فيه امة . يظهر ذلك خصوصاً في الباريسيين فانهم قدوة الامم في الازياء على اختلاف أشكالها . ولهم ذوق في توليد الجمال مما لا جمال فيه من نفسه بترتيب أجزائه على شكل لا قاعدة له الا الذوق . وهو على أرق درجاته في باريس . تجرد المرأة القبيحة الحلقة تزييا بري يناسبها وتصف شعرها تصفيفة تناسب ملامح وجهها فتظهر جميلة . ولهم في تصفيف الشعر واختيار شكل البرنيطة ولونها طرق تختلف باختلاف تقاطيع الوجه ولونه وشكل الانف والعينين والحيبة والفم وغير ذلك فيوفقون التصفيفة (التواليت) والبرنيطة على حال الوجه فيظهر جميلاً

ويتبع ذلك ميلهم الى تزويق الحديث فانه من قبيل رغبتهم في الجمال الخارجي . فكما يوفقون بين تصفيفة الشعر وحجم البرنيطة وشكل الوجه حتى يظهر جميلاً فهم ايضاً يحسنون الحديث حتى يلائم ذوق السامع فنبسط نفسه له . لكنهم لا يرى النتيجة دائماً كما كان يتوقعها . فالفرنساوي فيه ميل الى اتقان الظواهر أكثر مما الى اتقان البواطن وهو من قبيل حبه الجمال . وبخالفه الانكليزي في ذلك كما سنبينه فيما بعد . ومن قبيل ميلهم الى الجمال واقتدارهم على توليده ما تجده في مخازنهم وشوارعهم من الزخارف التي يراود بها التحسين . اي ان تظهر السعادة المعروضة احسن مما هي . ومن هذا القبيل استخدام المرايا في الواجها لايها الناس أنها اكبر مما هي . واذا كان الحانوت صغيراً جعلوا جدرانهم من المرايا فيظهر أضعاف ما هو

الاقتصاد والترتيب

والفرنساوي مقتصد من فطرته وترى الاقتصاد ظاهراً على الخصوص في القرى فان اصحاب المزارع الصغرى يعيشون عيشة بسيطة . والفلاح يشتغل وامرأته تشتغل واولاده يشتغلون كل على قدر طاقته وحسب مياله . ولا بد لكل منهم ان يقتصد شيئاً من ربحه مهما كان قليلاً فيحفظ به لنفسه . وهم يستخدمون الفرش البسيط عكس اهل المدن وكذلك ملابسهم . فالفلاح الفرنسي بسيط في لباسه واخلاقه ومهما يكن من فقره فانك تجده نظيف الثوب نظيف الفراش بأكل على المائدة

بالشوكة والسكينة بترتيب ونظافة . فلا تستنكف اذا دخلت بيته من ان تجلس على مقعده وتأكل من طعامه وتشرب من كأسه . وليس كذلك الفلاح المصري . ولا سبيل الى اصلاحه الا بتعليم المرأة وتثقيفها وهي المدبرة لسلك ذلك معرفة الواجب

ومن الحلال الحميدة الشائعة في معظم اوربا ونحس في حاجة اليها « معرفة الواجب » وهي تشمل كل اعمال الانسان . نعي ان يشعر الانسان بما عليه فيؤديه من تلقاء نفسه بدون استحثاث او ارهاب او ترغيب - لو فعل ذلك كل انسان لاستغنى الناس عن الحكومات وابطلت المحاكم . ولكن الناس يتفاوتون في هذا الباب واكثرهم شعوراً بالواجب قريهم من المدنية والارتقاء . وهو يستلزم الامانة وهي اساس المعاملات واكبر اسباب النجاح - ما اجمل أن يشعر الانسان بما عليه فيؤديه بلا وازع أو مراقب . والفرنساويون من اكثر الامم شعوراً به وكذلك الانكليز . وربما ظهر الانكليز اكثر قياماً بالواجب لانهم يعملون كثيراً ويقولون قليلاً . واما الفرنسيون فيله الى زخرف الكلام يظهر اعماله قليلة . لكن الشعور بالواجب قوي في كليهما

وما يجدر ذكره ان قومساري الترامواي لا رقيب (مفتش) عليهم وهم لا يسلبون الشركة باستعمال التذكرة مرتين او قبض الثمن بدمن اداء التذكرة لان القومساري الفرنسي او الانكليزي نشأ وقد غرست والدته في ذهنه من طفولته ان يعرف ماله فلا يطمع بسواه . ولو اراد السائق أن يطمع فإن الشعب ارقى من أن يتساهل في هذا لانه تربى تربية راقية وعرف ماله وما ليس له فهو يعلم ان تساهله مع القومساري في أمر التذكرة اتما هو مشاركة له في السرقة . ولكن كثيرين عندنا يتساهلون في ذلك وبعضهم يحرض القومساري على السرقة . والسبب في ذلك ضعف اخلاق العامة عندنا . وان مثل الترامواي هذا على بساطته يدل على اخلاق العامة

الثقة وقيمة الوقت وصدق المواعيد

ومن قبيل الامانة المبنيّة على معرفة الواجب وما يترتب عليها من الثقة المتبادلة ان بعض باعة الجرائد في فرنسا وانكلترا يضعون اعداد الجريدة فوق طاولة على الرصيف خارج الحانوت وبجانبتها علبه . فمن أراد أن يتساع جريدة وضع ثمنها في

العلبة وتناول الجريدة ولا رقيب عليه . وصاحبها لا يخاف أن يسرقه المارة فيأخذ أحدهم الجريدة ولا يدفع الثمن . وقس على ذلك التهمة المتبادلة في سائر الحرف دخلنا مطعماً في لندن يوم وصولنا من باريس . وبعد الفراغ من الطعام دفعنا لصاحب المطعم ليرة فرنساوية فاعتذر بأن النقود الفرنسية لا تقبل عندهم . ولم يكن عندنا نقود غير فرنساوية . فوقعنا في حيرة وأردنا أن نترك الليرة له ريثما نعود وقد بدلنا النقود . فاعاد الليرة لـ «دنا وقال « دعها معك ومتى بدلتها تدفع ما عليك » وكانت هذه اول مرة رأنا فيها الرجل . أليس ذلك من الاخلاق الراقية ؟ ان صاحبها لا يتصور رجلاً عليه حق لا يبادر الى دفعه من تلقاء نفسه . ولا يدل هذا على خلو تلك البلاد من أخطاب الاخلاق الضعيفة ولكنهم أقل مما عندنا . كما اننا لا نعي ضعف الثقة عندنا في كل الطبقات . وانما نريد الاغلبية

ومن جميل ما نحسدكم عليه معرفة قيمة الوقت وهو يتوقف على معرفة الواجب أيضاً فانهم يقسمون أوقاتهم ويفرقونها على أعمالهم فلا يفصرون بما عليهم ولا يضيعون أوقات اصداقهم بالزيارة الحبية كما يفعل كثيرون عندنا . فان بعضهم يزورك في ساعة شغلك ولا شغل له . يعلم أنك مشغول فلا يختصر زيارته ولا أنت تجرأ على الاعتذار منه لثلاثتهم بالفاظظة . ولكن هذه العادة آخذة بالزوال من بيننا في الطبقة الراقية واعتبر ذلك في صدق انواعيد فانه تابع للشعور بالواجب . وهو ينقصنا لكنه أخذ في الشيوع بين المتعلمين

لا ينبغي

ومن الاخلاق الفرنسية الشائعة في باريس اشتغال كل منهم بنفسه عن سواه فلا يتعرض أحد الى شؤون جاره بالاستطلاع أو التجسس . وهو من طبائع أهل المدن الكبرى وطبعي شيوعه في باريس وهي ثلاثة مدائن العالم . وتجسس الاخبار والدخول في أحوال الآخرين يكثر في القرى الصغيرة لفرغ أهلها للأحداث ولأنهم مطلعون على عورات جيرانهم ولا يخجلون من التجسس أو التباغض . وكلما اتسعت المدينة قلت تلك العادة فيها . ولذلك كان أهل باريس من أكثر الناس بعداً عنها . فان احدهم يمشي وهمه نفسه ولا يلتفت الى سواه . او يجلس في القهوة ولا يلتفت الى جليسه من هو . وقد يكون بجانبه رجل وامرأة يتغازلان أو يتداعبان فلا يهمه ذلك . وهذا ما نعبر عنه بضعف الغيرة ولا يستطيع الشرقي احتماله . أما

الفرنساوي فيحتمله ولسان حاله يقول « لا يعنيني »
ولكنه مع ذلك جنوح الى النجدة وفيه اريحة اذا استحيثته على منقبة اندفع
اليها بكلية ولو جرّه ذلك الى خسارة أو حمله مشقة
المفاخرة بالرجال والحرية

ومن سجاياهم انهم يفاخرون برجالهم ويعظمون النابغين منهم . وحيثما مرت
بشوارع باريس تجد تماثيل العظماء منصوبة في متصالب الطرق أو واجهات القصور
أو في الساحات العمومية يزيد عددها على مئة وستين تماثلاً كبيراً للقواد والملوك
والكتاب والشعراء والفلاسفة والعلماء . وبينها تماثيل بعض مشاهير الامم الاخرى
مثل دانتي شاعر الايطاليان ووشنطون محرر اميركا وشكسبير الشاعر الانكليزي
وغريبالدي القائد الايطالي . غير التماثيل الرمزية عن الحرية او الاتحاد أو نحوها .
وغير التماثيل المنصوبة في المتاحف والمسارح والمدارس والكنائس والمنازل وهي
عديدة جداً . واكثرها شيوعاً تماثيل بوناپرت على اختلاف أقداره وأشكاله . والتماثيل
تثير في النفوس الحماسة والميل الى الاقتداء باولئك العظماء . وهي وسيلة حسنة
لاستهراض الهمم واستحثاث القرائح لا مثيل لها عندنا - الا قليلاً

ويمتاز الفرنسيون عن سائر اهل اوربا بالنزوع الى الحرية على اختلاف
اوجهها . وقد مرت اجيال كانوا فيها نصراء الحرية يأخذون بأيدي طلابها
وينصرونهم بانال والرجال . واشهر الشواهد على ذلك نصرتهم للاميركان في طلب
الاستقلال من سلطة الانكليز . ومن قبيل تعشقهم الحرية مغالاتهم في مطاردة بعض
الجماعات الدينية لكنهم تطرفوا في ذلك حتى خرجوا به الى عكس المراد بالمدنية .
ففترت الحاسات الدينية وزع الناس الى الشك في الدين وآل الامر في بعض الاحوال
الى فساد الآداب . لان العامة لا تستغني عن وازع ديني يصلح من آدابها . ومن
اكبر اسباب الفساد القاء الشكوك الدينية في اذهان الناس

طماهم وشرابهم

والفرنساويون يكثرون من اكل اللحوم في طعامهم وهو شأن اكثر سكان اوربا
وخصوصاً في البلاد الباردة لاحتياجهم الى المواد اللحمية في مقاومة انبرد . ولهذا
السبب ايضاً يكثر من شرب الخمر وتكاد لا تجد بينهم من لا يشرب الخمر على
المائدة رجلاً ونساء واولاداً . وكثيراً ما يجبر ذلك الى ادمان المسكر فكثير المدمنون

عندهم ولا سيما في الطبقات السفلى كالعمال والصناع . اما شرب الخمر الاعتيادية فانه عام ولا يشترط أن يكون على المائدة . ولذلك ترى وجوه الفرنسيين مشرقة او مشربة حمرة - ولا يدل ذلك على الصحة دائماً وقد يدل على المرض . وترى صاحبه يميل الى التعاس بعد الطعام . ويظهر ذلك في ساقه المركبات بباريس . لان أحدهم اذا لم يكن سائقاً مركبته لا تراه الا نائماً على كرسيه ورأسه متدل على صدره وقد احمرت وجنتاه وانفخت أوداجه . وحوادث المسكر بمصر على كثرتها قليلة بالنسبة الى تلك البلاد . لكننا نشكو من شيوع الحشيش بمصر رغم منعه رسمياً . على اننا سمعنا بوجوده في باريس أيضاً بامكنة يعرفها طالبوه

بقي علينا اننظر في امرين مهمين من نظام الاجتماع عندهم نعتي طبقة العامة والمرأة

العامة

ومن قبيل النظام الاجتماعي ان تكون الامة مؤلفة من طبقات ترجع الى طبقتين: الخاصة والعامة ويختلف حال كل منهما باختلاف الامم والعصر وان تشابهها على الاجمال في كل بلد . فالخاصة وهم أهل الوجاهة والثروة يغلب أن يكونوا ممتازين في نفوذهم ومعيشتهم ويكون العامة تابعين لهم في احوالهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على تفاوت في ذلك بتفاوت أحوال المدنية وأنواعها

فالعامه في التمدن القديم كانوا كما قال الامام علي « همج رعاع اتباع كل ناعق » وقال معاوية انهم « اشباه البهائم ان جاءوا ساموا وان شبعوا ناموا » وهم نحو ذلك في الشرق الى الان الا في بعض البلاد الراقية . أما في الغرب فقد تميزت أحوالهم حتى اوشكوا ان يقبلوا نظام الاجتماع ولا سيما في الممالك الجمهورية ومنها فرنسا وهو موضوع كلامنا في هذا الباب

العامة في فرنسا

ان العامة في فرنسا يختلفون عن عامتنا بامور كثيرة : منها انهم ارقى تربية وأوسع تعالماً فلا تجد فيهم من لا يحسن القراءة والكتابة . وحيثما توجهت ترى البوابين وساقه المركبات وصغار الباعة وخدم المنازل والقهوات حتى مساحي الاحذية يطالعون

الجرائد والكتب ويهتمون بالشؤون العامة ويبحثون في السياسة ويتناقشون في حقوق الأحزاب وينتقدون أعمال الحكومة . والسبب في ذلك « التعليم » فانه عام في كل بلد وقرية فتنبهت الازدهار وتفتحت الاعين وتعلم العامي معنى الاجتماع والاتحاد وخصوصاً بعد الانقلاب الذي جعل كل شيء في ايدي العامة لانهم قبلوا الحكومة واستبدوا في الشرفاء والامراء . فتشككت الاحزاب من العامة وأرتقت نفوسهم . ورافق ذلك كثرة الاختراعات الصناعية التي أغنت أصحاب الاموال (الخاصة) عن كثير من العمال فتضايق العمال وهم من العامة واضطروا الى الاجتماع والاحتجاج والمطالبة وهو الاعتصاب . وساعدهم على ذلك شيوع مذهب الاشتراكية واحتياج النواب الى العامة في التصويت عند الانتخابات النيابية وكل نائب يجتهد في اكتساب رضى القوم في البلد الذي ينوب عنه حتى يصوتوا له . فازداد العامة نفوذاً وطمعاً واكثروا من الاعتصاب حتى اتعبوا أصحاب الاموال وحملوهم خسائر عاد معظمها على الجمهور لانها آلت الى ارتفاع الاسعار

فالحربة التي نالها العامي الفرنسي صانت حقوقه من جهة لكننها أضرت به وبالامة من جهة أخرى . لان العامي مهما بلغ من ارتقائه لا يبرح قصير الادراك وانما يتدرب على الاجتماع والصياح مع الصائحين فينحاز الى هذا الحزب أو ذاك لا عن تفطن وادراك وانما هو يساق بهواطفه ويندفع بما يخطر له حسب المؤثرات الخارجية . والعامي الفرنسي مدمن للمسكر كما تقدم . أضف الى ذلك حدة مزاجه فاذا ضربت له على وتر حساس كالدين أو الوطنية أو غيرها اندفع لما تريده منه . فالغلبة لمن يستطيعون استهواء هؤلاء العامة لاغراضهم بالفصاحة أو نحوها

والنفوذ الحقيقي للخاصة لانهم أقوى عقولاً وأكثر وسائل - ذلك هو شأن الجماعات في كل بلد : يختصم الخاصة على السيادة او الكسب فيستتصرون العامة بعضهم على بعض بما يستطيعون من الاساليب فينصرونهم وينفذون أغراضهم والعامة يتوهمون انهم يفعلون ذلك من تلقاء انفسهم . مهما بلغ من رقي العامة وحريتهم فالخاصة هم أصحاب السيادة الحقيقية وهم كالأوصياء على العامة يسنون لهم الشرائع ويضعون لهم القوانين ويدربونهم في شؤونهم السياسية والاجتماعية حتى أحوالهم اليومية . فان الحكومة الفرنسية تهتم بها كثيراً وقد فرضت على العامل أن يرتاح يوماً في الاسبوع فاذا لم يفعل عدَّ مذنباً . واذا كان عمله لا يأذن له بالراحة تخدمه المطاعم

والقهوات ونحوها دبرت الحكومة وسيلة تمكنه من الراحة. وذلك أنها أمرت العامل من هؤلاء أن يختار يوماً من الأسبوع يرتاح فيه وعينت من يقوم مقامه في ذلك اليوم ويستولي على أجرته. وعندهم طائفة من العمال تحت الطلب لهذا الغرض. فهذه الوسطة يشغلون سبع العمال ويريحون جمهورهم. لكن بعض العمال يشكون من هذه المعاملة لأنها تضيع عليهم سبع دخلهم ولأنهم ينفقون في يوم الراحة أكثر من يوم الشغل. وللا تكليل عناية مثل هذه أو أشد منها في تدبير شؤون العامة سنأتي عليها فيما بعد

المرأة

كانت المرأة في العصر المظلمة بأوربا وغيرها مردولة محتقرة تعد من قبيل المتاع. وكان للرجل أحياناً أن يبيع امرأته بالزاد العمومي. وتفنن الكتّاب والشعراء في هجائها واتقدها. وتباحث اللاهوتيون طويلاً في « هل للمرأة نفس » وزعموا أنها « باب جهنم » و « معمل أسلحة الشياطين وصوتها خفيج الافاعي » وأنها « نبال الشيطان » و « سامة كالصل وحقودة كالنتين » وقال الشاعر العربي :

ان النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين

فلما بزغ نور التمدن الحديث وتحولت العلوم والمعارف من النظريات والتقاليد إلى الاختبار والدرس كان في جملة ما همهم « المرأة » فادركوا خطورة مركزها في الحياة الاجتماعية وإن النجاح معقود بتعليمها وترقية نفسها. لأنها قوام العائلة ومربية الأبناء وشريكة الرجل في أحوال الحياة. فقدموها وعلموها ورفعوا منزلتها فقامت تطالب بحقوقها. واختلف الكتّاب في مقدار تلك الحقوق لكنهم اتفقوا على احترام المرأة واجلالها حتى مثلوا بها الفضائل والمفاخر. فاذا أرادوا تصوير الحرية مجسمة نحتوا لها تمثال امرأة. وهكذا فعلوا بتمثيل الاتحاد والبلاغة والعمل وغيرها من الفضائل المجردة فانهم يمثلونها بصورة امرأة والفرنساويون من أكثر الأمم احتراماً للمرأة

المرأة الفرنسية

أخرجوا المرأة من ظلمات الجهالة وأطلقوا سراحها واعترفوا بحقوقها وساووها بالرجل ما له وما عليه. فبرزت من خدرها وتعاطت أعمال الرجال وسابقتهم في كثير من أعمالهم لأنها أقل أجرة من الرجل فكثير استخدمها في ما تستطيعه من المناصب

والمهن . فمن الذكاء عندهم بائعات في المخازن وعاملات في المناجم والمصانع والمعامل وخادمت في المنازل وكتابات في المتاجر والشركات وفي بيوت التلغراف والتلفون والبريد وحاسبات في المصارف . وقد تعاطين أهم المهن العلمية كالحمامة والطب والتحرير والشعر والتأليف والوعظ والعمل في معامل الكيمياء والبكتريولوجيا وغير ذلك . وافتتان الجمليات العلمية والادبية والاندسة الاجتماعية . وألفن الاحزاب السياسية المطالبة بحقوقهن . وتعاطين كثيراً من الصنائع الحفيرة او المتعبة فمنهن غارسات في الحقول ومنظفات في الشوارع - حتى سوق المركبات فقد شاهدنا واحدة منهن تسوق مركبة بالاجرة في شوارع باريس فادهشنا ذلك فاخبرنا صديق كان معنا ان في باريس ١٢ سائفة مثل هذه

والسبب في نزول المرأة هذه المنزلة عندهم ان الفتاة الفرنسية تنشأ في منزل والديها كما ينشأ الغلام تتعلم كما يتعلم ويطلب منها أن تتكسب بالشغل كما يتكسب هو . وهي تجالس الرجل وتحادثه وتباحثه في كل موضوع كأنها رجل مثله وتساfer للسياحة والاكتشاف وحدها لا ترى في ذلك بأساً او غرابة مما لم تألفه في بلادنا . فان فتاتنا تتعلم او لا تتعلم ثم عمكت في منزل والديها في انتظار نصيبها للزواج وزينتها الحشمة والحياء ولا يخطر لاهلها أن تعمل عملاً . فهي اما أن تزوج او تبقى عانساً في بيت ابيها ولا تشتغل الا نادراً . وأكثر أشتغالها بالتعليم او الحياطة ويندر أن تتعاطى عملاً آخر . ومهما بلغ من حريتها فهي لا تجالس غير معارفها وذوي قرباها

أما الافرنجية فلما تخرج من المدرسة تمضي الى السوق كما يمضي الشاب فاذا أتاها النصيب تزوجت فيشغلها الزواج عن الارتزاق اكتفاء بعمل زوجها . والا فلها تشتغل هي أيضاً . ولا يخفى ما في ذلك من تضاعف الايدي العاملة في الامة الفرنسية أي ان العمال من الجنسين نحو ضعفي العمال عندنا بالنسبة الى عدد السكان .

والمرأة الفرنسية في القرى والبلاد الصغيرة مثال الاقتصاد والترتيب والعطف على أولادها والأمانة لزوجها وكذلك المرأة في العائلات الراقية من الطبقة الوسطى والعليا . لكن هذه الحرية أدت في المدن الكبرى الى تشويه ذلك الجنس اللطيف في طبقة معينة من العامة . وهذا التشويه أخذ في الامتداد ويخشى ان يجر الى انقلاب اجتماعي وخصوصاً في باريس ام المدائن الجميلة

كنا نشكو من جهل الفتاة الشرقية وحجبها ونحسد الفتاة الافرنجية على تعلمها

وحريتها فلما رأينا حالها في باريس انقلبت شكوانا وكدنا نرضى بالحجاب والجهل -
 انهم أساءوا الى ذلك الخلق اللطيف بتلك الحرية المتطرفة. أرسلوا المرأة الى الاسواق
 تخلط الشبان وتبايعهم وتساوهم وتماشروهم وهي ضعيفة حساسة فتعرضت لمفاسد
 كثيرة . وأغراها الشبان بالمال تخدعوها . فلما خرجت من صف الحرائر خدعتهم .
 ثم آل أمرها الى ضياع العمر في الشوارع والازقة لا تجد رزقاً الا باستهواء الشبان .
 وفي القاهرة مثال صغير من تلك الطبقة يعرفن بينات الرصيف . اما هناك فانهن
 ألوف ولا تكاد تخلو منهن حديقة أو منزله أو شارع ولا سيما في أثناء الليل ولا حرج
 عليهن بحجة الحرية الشخصية . والحكومة الفرنسية تبيع الفحشاء على شروط
 وضعتها وقوانين سنتها . فباحث للتجربين بالاعراض أن يبتنوا المنازل والقصور
 ويحشدوا فيها الغواني أصنافاً وألواناً يعرضونهن عرض السلع او الاثاث بلا عيب ولا
 حياء ولهم سماسة في أيديهم شهادات من الحكومة تخول لهم معاطاة تلك المهنة .
 ولهذا الطبقة من المهتمكين مجالس وأندية وجرائد وكتب لترويج تلك البضاعة . وليس
 ذلك جائزاً في اسكترا . ولكن مصر اقدت فيه بالفرنساويين كما اقدت بسواه
 من اسباب تمدنهم . وما كان أجدرنا أن نأخذ الحسن النافع من أسبابه ونعرض عن
 القبيح الضار

الارساليات المصرية

ومن قبيح هذه الحرية في باريس ان من تلك الشباك الجهنمية كثيراً في حي
 يعرف بالحلي اللاتيني (quartier Latin) فيه اكثر المدارس العالية التي ترسل مصر
 شبانها ليلتقوا فيها الحقوق أو الطب أو غيرها . ولا مندوحة لهم عن الاقامة هناك
 والتعرض لتلك الاخطار في المراقص والملاعب حيث يختلط الشبان بالشابات . فلا
 ينجو من ذلك الخطر الا قوي الارادة ثابت العزيمة . ولكن الانسان ضعيف
 ولا سيما الشاب القادم من بلاد لا يرى فيها المرأة الا محتجبة وهو في بلده بين أهله
 ومعارفه يمنع الحجل من مخالطة غير المحتجبات . اما في باريس وكل شيء فيها مباح
 فانه يرى الشبان والشابات في الطرق أزواجاً (غير مطهرة) ذكراً وانثى بلا حرج
 ولا خجل يتداعبون ويتغازلون . ويجد من رفاقه من يغريه على الرذيلة ويحببها اليه
 باسم الحرية فاذا احجم غيره بالضعف . فهل يلام اولئك الشبان على السقوط ؟ وانما
 اللوم على الذين يرسلونهم الى تلك المدارس . واذا كان لا بد للحكومة المصرية أو

الآباء من ارسال ابنائهم الى مدارس فرنسا فمن الخطأ ارسالهم الى باريس وتعريضهم لملك الاخطار

على ان هذه الطبقة من النساء ليست كلها من أهل تلك العاصمة فان فيهن كثيرات من أهل الارياف الفرنسية او من خارج فرنسا . وبعضهن من روسيا والمانيا وغيرها . ويندر يبنهن القادمة الى باريس بقصد العهارة . وانما يفد اكثرهن اليها للارتزاق ببعض المهن فيعرضن للوقوع في تلك الفخاخ ويعينهن الفقر على الوقوع فيها . لان البائسة في مخزن واجرتها فرنكان أو ثلاثة في اليوم تنفقها على الطعام واللباس والمنام يقع نظرها كل يوم على عشرات من شبيهاها في الحلقة أو أقل منها جمالاً وكل منهن قد تأبط زندها شاب كساها أحسن الاقشة وزينها باجمل الحلي فاذا قويت هذه البائسة المسكينة على محاربة الحسد فاتها لا تقوى على مدافعة من يتعرض لها من اولئك الشبان الذين يعرفونها بالمواعيد العريضة . ويحبون اليها باطراء جمالها يشكوى الغرام وغير ذلك فتقع في الشرك . ولا يعاشرها ذلك المفرم الا مدة ثم ينتقل الى سواها . فتصبح غير قادرة على العمل في مهنتها الاولى ويهون عليها الارتزاق من أمثال ذلك الشاب . واعتبر كيف تكون حالها متى ذهب شبابها وذوى جمالها !

فالملة الاصلية في شيوع التهلك بباريس انما هو اطلاق سراح الفتاة ومساواتها للرجل وتكليفها الارتزاق مثله واباحة الحكومة للفحشاء رسمياً . وزد على ذلك ان الفتور الديني شائع في فرنسا حتى اصبح شبانها يعدون العهارة ضرباً من التجارة ولا فرق عندهم بين الفحشاء والتمتع بسائر ملاذ الحياة كالطعام والشراب والسماع ونحوها . فيغترون المرأة على ذلك فتدليعهم . وليس أقبح من فتور المرأة في الدين لانها أقرب الى التقوى من الرجل واكثر تعففها من طريق الدين خوف العقاب . وهي دقيقة الاحساس سريعة التأثر فاذا لم يشتغل قلبها بالتقوى والرهبة من العقاب خيف عليها السقوط اذ ليس لها ما للرجل من قوة الارادة . ومع ذلك فانه اكثر سقوطاً منها لكن الناس لا يعيرون سقوطه كما يعيرون سقوطها - وذلك من جملة مظالم نظام الاجتماع

في شوارع باريس الوف من الفتيات لولا هذه الاسباب لكن امهات وربات عائلات يربين أبناءهن رجال المستقبل على الفضيلة بدلا من ضياع شباهن في الرذيلة

ويضيع معهن الوف من الشبان بلا عقب . لان هذه الاباحة من اكبر أسباب العقم في فرنسا اذ يمسك الشبان عن الزواج تخلصاً من متاعبه وهمومه واكتفاء بملاذه الوقتية بضمن قليل لا مسئولية بعدها ولا تعب . فلا نبالغ اذا قلنا ان فرنسا بين يدي خطر اجتماعي يهددها ولا تخرج منه الا بعد انقلاب عظيم

بلغ عدد اللقطاء في باريس للعام الماضي ثمانية عشر ألفاً لا يعرف آباؤهم فهم من نتاج هذه الرذيلة . من نتاج الافراط في الحرية والفتور في الدين . ان الجهل والحجاب يضران المرأة ويؤخران الهيئة الاجتماعية عن أسباب المدنية . لكن الحرية الزائدة مع العلم أو بدونه تفسد المجتمع الانساني وتضر بالعائلة . وحال فرنسا الاجتماعي اكبر شاهد على ذلك لان احصاءها يكاد يكون الآن كما كان منذ أربعين سنة . ولم تبقى امة الا تضاعف احصاؤها في اثناء هذه المدة

خلقت المرأة أما تدبر العائلة وتربي الاولاد . وتعليمها ضروري للقيام بمهمتها الطبيعية في الشؤون العائلية . وأما تكليفها بأعمال الرجال فانه خارج عما خلقت له . الا اذا اضطرت اليه لاسباب قهرية . ولكننا نرى بعض كبار العلماء يحجزون لها كل عمل يعمل به الرجل وان تعاطى كل صناعة أو مهنة لانها مساوية له . وبعضهم الف كتباً في هذا الموضوع خلاصتها ان المرأة يجب أن تعمل كل أعمال الرجال من صناعة او علم او تجارة أو زراعة بحجة تضاعف الثروة بتكاثر الايدي في العمل . وهو رأي نظري لا ينطبق على حاجة المجتمع الانساني . اذا نزل الرجل والمرأة الى السوق من يربي الاطفال ويدربهم ويعنى باحوالهم ؟ فان قيل ان المراضع والخدم يفعلون ذلك قلنا ان الطفل لا تربيته الامه . واذا فرضنا قيام الخدم مقامها فالنفقات التي يستلزمها استخدامهم تستغرق ما تكتسبه المرأة بالعمل خارج بيتها

ومهما بلغ من ارتقاء الجنس البشري في الاكتشاف والاختراع فانه لا يقوى على قلب نظام الاجتماع . وهذا النظام يقضي على الام أن تربي طفلها بحيث لا يخرج من دائرة عنايتها . وان يكون هو أهم مشاغلها مع تدير بيتها وليس ذلك بالشئ اليسير . ان القيام بشؤون العائلة لا يقل اهمية عن أعظم عمل من أعمال الرجال في التجارة او السياسة او الصناعة او غيرها

الخلاصة

في مدينة فرنسا وغيرها من مدن أوربا حسنات كثيرة يجب علينا اقتباسها

والاستفادة منها . ولكن فيها سيئات يجب تجنبها والابتعاد عنها فالحسنات التي يحسن بنا اقتباسها هي :

- ١ معرفة الواجب
- ٢ المحافظة على الوقت وصدق المواعيد
- ٣ تهذيب أخلاق العامة بالتربية الصحيحة
- ٤ تعليم المرأة وتثقيفها
- ٥ ترقية التعليم والتوسع في الآداب
- ٦ العمل والجد

- أما ما يجب علينا تجنبه من ادران تلك المدنية فاهمه
- ١ الافراط في الحرية واستخدامها في غير موضعها
 - ٢ ما يخالف الحشمة الشرقية . على ان نأخذ من العلم والتربية القدر الملائم لعاداتنا
 - ٣ الفتور في الدين والمجاهرة بالكفر فانه من اسس ذلك الخراب

نظام الاجتماع في انكلترا^(١)

نظام الاجتماع في انكلترا يشبه على اجماله نظام سائر الممالك الاوربية من حيث العائلة والحكومة والمدرسة والكنيسة . لكنه يمتاز في انكلترا بخصائص لا يخلو ذكرها من فائدة هالك أهمها :

١ — طبقات الامة

لا يخفى ان انكلترا ام الحكومات الدستورية وأقدم من اعترف بحقوق العامة . ومع ذلك فالامة عندهم مؤلفة من طبقتين متباينتين لا تختلط احداها بالآخرى - نعني الخاصة والعامة او اشرقاء والمال أو الاعيان والعموم . وذلك من بقايا القرون الوسطى التي كان فيها اللورد صاحب الارض وله السيادة هو وأهله على بلده وسائر الناس أعوان له أو عمال في مزارعه . وكان ذلك شأن أكثر امم اوربا في عصر الاقطاع . لكن أكثرهم عدلوا عنه وساووا بين طبقات الامة في الحقوق والواجبات . الا الانكليز فلا يزال لاهل السيادة القديمة حقوق يمتازون بها عن سواهم في بعض

الأحوال السياسية والاقتصادية ، ولكل من هاتين الطبقتين شأن خاص مستقل عن شأن الطبقة الأخرى . ونواب الأمة طبقان في مجلسين مجلس الأعيان ومجلس العموم وقد ترى مثل هذين المجلسين في بعض الأنم الأخرى لكنه عند الانكليز مبني على تسلسل الارستوقراطية من الاجيال الوسطى . ولا يزال كثير من الارضين مملوكاً للشرفاء يتوارثونها ولا يبيعونها بيعاً قاطعاً . وانما يبيعون مرافقها الى أجل معين . والغالب ان يبيعك الشريف الارض تملكها الى ٩٩٩ سنة فتدفع له ثمنها او هو حق صيرورتها اليك بعد تلك المدة . ويبقى له عليك مالٌ يتقاضاه كل سنة يتم الاتفاق عليه يسمونه في اصطلاحهم تشيف (Chief) وقد يحنلون في تملكك الارض حيلة شرعية فيتفق الشاري والبائع على مبلغ يدفعه الشاري مرة واحدة بدل الاقساط السنوية نحو ما تفعل الحكومة المصرية في استبدال معاش المستخدمين . فاذا دفع الشاري ذلك المال صار مالكاً للارض . عرفنا صديقاً لنا في منشتر ابتاع منزلاً من أحد الشرفاء بالفي جنيه دفعها معجلاً وبقي عليه الاقساط (التشيف) نحو مئة جنيه يدفعها كل سنة . وأخبرنا انه ينوى أن يستبدل الاقساط بالفي جنيه أخري فيصير المنزل مملوكاً له

فالانكليز عندهم الحرية والاخاء وليس عندهم المساواة . على أنهم عاملون على نزع تلك الامتيازات من الشرفاء . وقد أفلحوا في كثير من مطالبهم لكن المساواة الكلية ببطء الوصول اليها لتأصل الارستوقراطية في نفوس القوم من أجيال متوالية . حتى تراها في كثير من آدابهم الاجتماعية . ومن آثارها الحموسة انه ليس في قطر السكك الحديدية درجة وسطى بين الأعيان والعموم . فالقطار عندهم فيه عربات من الدرجة الاولى وعربات من الدرجة الثالثة . ولا نجد درجة ثانية في قطارهم الا ما يتصل منها بالقطر الفرنسية وغيرها على الحدود

٢ - ضرائب الدخل

لا تخلو دولة من ضرائب تضربها على رعاياها تسدُّ بها نفقات رعايتهم والقيام على حراستهم او القضاء بينهم . لكن الانكليز يزيدون على ذلك نوعاً من الضرائب اقتضاه تفاوت الثروة في طبقات الأمة . فجعلوا مقدار الضريبة بنسبة تلك الثروة ويعولون في تقديرها على الدخل لا على رأس المال . فيفرضون على الغني أو التساجر

مبلغاً من دخله السنوي بسمونه ضريبة الدخل . أصلها اعانة فرضتها الحكومة على الامة للاستعانة بها على محاربة الفرنسيين سنة ١٥١٢ فقرر البرلمان يودئذ أن يدفع العامة ٢٪ من دخلهم تلك السنة والسكنة الخمس . وفي سنة ١٧٩٨ زادوها لمثل ذلك السبب وما زالوا يزيدون الضرائب وينوعونها حتى بلغت ما هي عليه الآن . وهي تختلف حسب السنين ولكنها نحو خمسة في المئة من الدخل أو شلن في الجنيه . ولا يدفع هذه الضريبة الا اندي يبلغ دخله ١٦٠ جنيهاً في السنة فما فوق . ولهم شروط لمن يزيد دخله على ذلك الى ٧٠٠ جنيه ف هؤلاء يعفونهم من بعض الضريبة . أما من زاد دخله على ٧٠٠ جنيه فيدفع الضريبة كاملة . وقد بلغ دخل الحكومة من هذه الضريبة نحو ٣٢ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه في السنة . غير ضرائب الجمارك وعوائد الروحيات وسائر المسكرات والمخدرات . وغير حق الرخص والاذن في معاطاة المهن على اختلاف أشكالها

٣ - العامة والعناية بهم

للعامة في انكلترا مشاكل من اعتصاب واضراب كما في فرنسا لسكن للانكليز عناية خاصة بهم ولا سيما طبقات العمال والخدم . لعل ذلك من بقايا واجبات الارستوقراطية في العهد القديم . لان رب البلد (اللورد) كان يرى نفسه مسئولاً عن حال اتباعه من حيث أسباب معاشهم . ولو تتبعنا تاريخ وضع ضرائب الدخل المتقدم ذكرها لرأيته تنوعت وتعدلت طبقاً لمصلحة العمال أو الفقراء من أصحاب التجارات الصغرى . كانت في أول وضعها شاملة كل انكليزي . هما قل دخله . ثم أخذوا يعدلونها حتى أعفوا منها أصحاب الدخل القليل الذي لا يزيد على ١٦٠ جنيهاً . وخففوها عن الذين لا يزيد دخلهم على ٧٠٠ جنيه . وأبقوها على سائر الناس كما رأيت . ولا يخفى ان الاموال التي تجمع من الضرائب تنفق في مرافق الامة بلاميز بين الغني والفقير . او هي لمصلحة الفقير أكثر مما لمصلحة الغني . وهي عناية بالعامة كالزكاة في صدر الاسلام تؤخذ من الاغنياء وتنفق في الفقراء

والحكومة الانكليزية تعدد نفسها وصية على الفقراء من رعاياها فتضع القوانين لمصلحتهم وتبخرهم على اتباعها . او هي تتولى تنفيذها عليهم . لعلها تتقي اعتصابهم أو اضرابهم . من ذلك قانون صدر في الصيف الماضي ونحن في انكلترا وضعته الحكومة لمنفعة الخدم وصغار المستخدمين اسمه (National Insurance act) في ١٤٠

صفحة كبيرة . مآله ضمانه مستقبل كل مستخدم في المملكة الانكليزية سنة بين ١٦ و ٧٠ سنة يقل دخله السنوي عن ١٦٠ جنيهاً وكل عامل يشتغل بيده لحساب نفسه ولو زاد دخله على ١٦٠ جنيهاً في السنة . فتفرض على كل من هؤلاء أن يحتزن من دخله مالا يعينه في شيخوخته او مرضه - جعلت ذلك اجبارياً لا يرى العامل مفراً منه بوجه من الوجوه . وهو يشمل الممثلين في المراسح وأساتذة المدارس الصغرى واثناوية وكتاب المصارف والمتاجر وخدام المخازن وعمال المعامل وفيهم أصحاب المعاهد البدنية وساقفة المركبات والنوتية وغيرهم وكل عامل له رئيس يدفع له أجرة وكيفية ذلك الضمان ان الحكومة طبعت أوراقاً كالمراكي أو الاسهميات في اصطلاحنا تفرقها في العمال . وعلى العامل أن يقدم واحدة منها كل اسبوع وعليها طوابع محتومة يشترك هو ورئيسه والحكومة في دفع قيمتها . وتختلف تلك القيمة باختلاف راتب العامل . فالرجل الذي تزيد أجرته على شلنين ونصف شلين في اليوم يدفع هو أربعة بنسات في الاسبوع ورئيسه يدفع ثلاثة بنسات والحكومة تدفع بنسبين . الجملة تسعة بنسات (نحو ثلاثة قروش ونصف) تلصق بقيمتها طوابع على الاسمارة وتختم وتقدم للحكومة كل أسبوع . واذا كان العامل صاحب هذه الاجرة امرأة تعامل مثل معاملة الرجل الا ما تدفعه هي فيكون ثلاثة بنسات بدلاً من أربعة ويختلف مقدار المدفوع باختلاف درجة العامل ومقدار أجرته والحكومة تحفظ للعامل ما يقدمه كل اسبوع وتحتزنه لحسابه وقد تستثمره له فيضمن مستقبله رغم ارادته . ومعظم هذه الضمانات من رئيسه والحكومة وهي لا تضرها لكنها تنفع العامل المسكين . وفي ذلك القانون شروط واحكام تفصيلية لا محل لها . ولكنها بلا شك من أحسن ما استنبطته القرائح لمصلحة العمال وضمان مستقبلهم على نفقة الحكومة وأصحاب الاموال . فضلاً عما فيها من المشقة على أصحاب التجارات او المعامل فان كل واحد منهم مكلف بالتوقيع على السراكي او الاسماتار بيده كل اسبوع وقد يكون عنده مئة عامل أو ألف

انتماء الانكليز

١ - الثبات والتمويل على الحقيقة

الانكليز أخلاق بارزة واضحة تختلف عما لسواهم من الأمم يمكن تلخيصها

بكلمتين يعني (١) « أنهم ينجحون في أعمالهم وشؤونهم الى الحقيقة المحسوسة دون الظواهر » (٢) « أنهم ثابتون في مبادئهم وعاداتهم ومشاريعهم ». فاذا عرفت ذلك فيهم هان عليك تمليل أكثر ما يعرض لك من أخلاقهم . والانكليزي هادى الخلق بنذر ان تغلب عليه الحدة حتى تخرجه عن طور ارادته ولذلك تجدهم ينجحون في أهم المسائل وأخرج المشاكل وينجادلون ويتناقشون بهدوء وسكينة . ويغلب في أدلتهم أن تبني على العقل أكثر مما على العواطف . ويظهر لك الانكليزي جامداً وقد ترى في نفسك تفوقاً عليه بسرعة الخاطر لكنك عند العمل تجده اثبت منك قدماً وأصبر على التعب وأقدر على المشاريع الكبرى . وترى فيه سكوتاً وطول اناة في موقف يستفز سواه ويهيج غضبه وليس ذلك من بلادة في طبعه وإنما هو من قبيل ثباته في أعماله وتعويله على الحقائق فلا يكثر بالصغائر بل يجمل همه الغرض الذي يسعى اليه لا يبالي بما يقف في طريقه من العقبات ولا سيما اذا كانت تلك العقبات أموراً وهمية كالكلام في الصحف ونحوها اذا لم يكن مبنياً على حقائق محسوسة - فهو يهيمه أن يصل سحاره الى العباسية ولا يلتفت الى شفقة المسكاري في أثناء الطريق

٢ - الكدياء والابانية

ومن الاخلاق المشهورة عن الانكليز أنهم متكبرون يترفعون عن مخالطة سواهم من الامة . وهي تهمة لا تخلو من الحقيقة . ان الانكليزي معجب بنفسه يفخر بدولته وامتة ويفرد عن سائر الامة فلا يزواجهم او يختلط بهم الا بما تقتضيه المصلحة التجارية او السياسية . ولا عجب فاتفق في عصر الانجلو سكسون كما كان العرب في ابان دولتهم والرومان قبلهم . ولكل أمة عصر اذا تفوقت فيه على سواها توهمت امتيازها الفطري عليهم بالجليلة الاصلية - وهي طبعاً لا تنال ذلك التفوق الا لما وهب فيها تمتاز بها عن سواها

ومما يوجه على الانكليز من الانتقاد أنهم انانيون يحبون الاستئثار بالمنافع لانفسهم وهو خلق فطري في الانسان لا يختص بامة دون اخرى . لكنه يظهر في الانكليزي لانه لا يبالي ان يظهره ويتمسك به . ولا يهمه ما يسميه الآخرون اريحية أو نجدة وبعدها من اسمى المناقب فهو لا يعرض نفسه للخسارة لمنفعة سواه كما يفعل الفرنسيون مثلاً او كما يفعل العرب وبعده من مفاخرهم . ولذلك كان العرب اسرع اختلاطاً بالفرنساويين مما بالانكليز

ومن مقتضيات الجُوح الى الحقائق ان الانكليزي صريح في اقواله واعماله لا بقول غير ما يعتقده ولو ساءك قوله . فيظهر ذلك منه مظاهر الجفاء . ولكنه بعدُ الحاملة ضرباً من العبت فلا يزال يجنبك حتى يتعرفك ويثق بك فيمد لك يده ويصافحك ويكون عند ذلك من اخلص الاصدقاء واطرف الجلساء .

٣ - التربية الادبية والعقلية

ومن مقتضيات ذلك الخلق ايضاً ما تراه من ثبات الانكليز في افضل وسائل التربية البدنية والعقلية ولا سيما الرياضة وهم قدوة الامم فيها . وقد الف ديمولان الكاتب الفرنسي كتابه عن سر تقدم الانكليز ليحرض قومه على الاقتداء بهم في التربية والاخلاق والتعاليم وغير ذلك . واختص غوستاف لوبون اخلاق الانكليز بالاطراء في كتابه « العوامل الاخلاقية في تكون الامم » فالانكليزي رأى عين الحقيقة ان هذا الضرب من التربية مفيد له فاتبعه ووضع له قواعد اساسها الفائدة الحقيقية بلا زخرف ولا نخب . وزادهم ثباتاً فيها انهم فطروا على احترام آراء رجال التاريخ واصحاب المواهب منهم والعمل بها بلا جدال او نقد - لعله من بقايا خضوعهم للشرفاء في عصر الاقطاع . ولهذا المنقبة فضل كبير في جمع كلهم وتأييد مساعيهم لان الامة اذا عملت برأي عقلائها كانت كلها عقلاء . بخلاف الامم التي يزعم كل من افرادها انه صاحب الرأي الاصول والتفوذ الاعلى ويرى الانصياع لرأي سواء صفاراً ومذلة كما هو شأن الامم الضعيفة التي صارت الى الشيخوخة واذن الزمان بفساد امورها وانقضائها .

٤ - الصدق والوفاء

المشهور ان الانكليزي على الاجمال بطيء الخاطر غير مفرط الذكاء . لكنه ناجح على الغالب في اعماله ومشاريعه فانه علة نجاحه ؟ العلة الحقيقية انهم يعملون بالقواعد التي قرر عقلاؤهم انها وسيلة النجاح وقد رسخت في اذهانهم بالتربية للاسباب التي قدمناها . وهي تعلمهم ان التاجر او الصانع يجب أن يعمل في اعماله على الحقائق مع المنفعة المتبادلة . فعملوا معولهم على الصدق والامانة والثبات وهي أهم اسباب نجاحهم في اعمالهم الكبرى والصغرى . وقد اشتهر ذلك عنهم حتى جرى مجرى الامثال . والمشهور بين تجار الارض ان الانكليزي اذا سأله عن سعر بضاعته ايطالياً آخر سعر يوافقه ولا يفتح باباً للاخذ والرد أو المساومة كما تفعل سائر الامم

٥ - المحافظة على التقاليد

قد رأيت الامة الانكليزية لا تزال حتى الآن محافظة على الارستوقراطية رغم اعراقها في الدستورية .. حتى الدستور عندها لا يزال محفوظاً بالتقليد أي أنهم لم يدونوا قواعده وشروطه بما يسميه الثمانيون القانون الاساسي أو نحوه . وإنما يجرون فيه على التقاليد الماضية فيحكمون في شؤونهم بالقياس على احكام سابقة اصدرها اسلافهم مع مراعاة مقتضيات الاحوال واذا عرضت مسألة لم يسبق الحكم فيها حكموا فيها وعدوا حكمهم سابقة لمن يأتي بعدهم

فالانكليز من اكثر الامم محافظة على التقاليد المتوارثة . وذلك من قبيل الثبات في اخلاقهم . ولهذا السبب كانوا من اشد الناس احتراماً لرجال التاريخ منهم ينصبون لهم التماثيل ويعملون باقوالهم . ولفس هذا السبب جروا في استعمارهم على احترام تقاليد الامم التي تدخل في سلطانهم او حمايتهم . فلا يتعرضون لهم في شيء من اديانهم أو عاداتهم . بل يساعدونهم على القيام بشعائرهم الدينية او الوطنية . ولذلك كانت الشرقيون اكثر ارتياحاً الى سيادتهم مما الى سواها لولا ترفعهم وبدعم عن الجمالة

٦ - الدين والنظام

ومن قبيل الثبات والمحافظة على التقاليد أنهم متمسكون بمقائدهم الدينية . ورغم تطرف اكثر الامم من جيرانهم وزملائهم في الحرية الدينية حتى جاهرُوا بمناوأة رجال الكهنوت ومطاردة الجمعيات الدينية فالانكليز ما زالوا متمسكين باهداب الدين يحافظون على طقوسه وتعاليمه ولا سيما الراحة يوم الاحد فقد ذكروا في الهلال الماضي كيف يقلون الحوايت والحازن وغيرها في ايام الآحاد والاعيان

ومن هذا القبيل ايضاً خضوعهم للنظام وتقديسه والرضوخ له باحترام وافتخار لا يستنكف من ذلك كبيرهم ولا صغيرهم . ولا يرى الملك بأساً ان يعترف بالخطأ بين يدي اصغر رعاياه ولا يعد ذلك حطة . وإنما هو من نتاج جنوحهم الى الحقيقة واحترامهم اياها . ونجد كتبهم المدرسية مشحونة بالحكايات التي تعلم هذه المنقبة وامثالها من الصراحة بالقول والاعتراف بالخطأ . غير القدوة الحسنة التي يستفيدوا التلاميذ من اساتذتهم او والديهم او كبارهم في هذا السبيل

٧ - الشعور بالواجب

ان الشعور بالواجب عام في الممالك الراقية لكنه ظاهر كل الظهور في اخلاق

الانكليز . فالانكليزي يعرف ما عليه من حق ادبي او مادي فيؤديه في حينه بلا مطالبة او استحثاث . يفعل ذلك بهدوء وسكينة . لانه من اكثر الناس عملاً واقلهم كلاماً . فاذا وعدك بزيارة كن على ثقة انه منجز وعده . واذا كلفته بخدمة فمن التأدب عندهم ان لا يؤكد لك نجاحه فيها وانما يقول « اني سأجرب » فاذا قال هذا قائل منهم عدوا قوله وعداً اكيأ . وهكذا اذا عزم أحدهم على تكليف آخر بخدمة او مطالبته بحق له أو وعد يتوقفه فانه يجعل طلبه بصورة الاستفهام أو الشك فيقول مثلاً « ماذا تظن لو فعلت كذا » فيجيبه « اظني فعلاً كذا » فيعد ذلك وعداً لا بد من قضاائه . وهذه التعابير تكون غالباً في الطبقة الراقية من القوم

٨ — المرأة الانكليزية

المرأة في انكلترا تشبه سائر نساء اوربا في أكثر الاحوال الاجتماعية والادبية لكنهما تفرق عنهن بما يقتضيه الخلق الانكليزي أو التربية الانكليزية من بعض الوجوه . فهي أميل الى الحقائق في آدابها وعاداتها وازيائها . ويمتاز الزي الانكليزي غالباً بالبساطة لانهم يلاحظون فيه المنفعة الحقيقية — شأنهم في كل شيء . واذا رأيت انكليزية بثوب مزخرف فانها تقلد به غير الانكليز

ومن هذا القبيل انصرافها الى الرياضة البدنية بالاغاب المشهورة عندهم حتى لعب السيف وركوب الخيل . ولذلك كانت الانكليزية صحيحة البنية نشيطة الحركة ممشوقة القوام مشرقة الوجه قوية الارادة . وقد أخذت تتشبه بالرجال وتجاربهم في أعمالهم . وتطرفت طائفة من المهوسات حتى طلبن حق التصويت في مجلس النواب وبالغن في ذلك وخرجن به عن طورهن الذي خلقن له واستخدمن العنف في مطالبتهن . ولا نظنهن الا راجعات الى الصواب . وحكمتنا على المرأة الانكليزية من هذا الوجه مثل حكمتنا على المرأة الفرنسية عند كلامنا عن أخلاق الفرنسيين :

« ان المرأة خلقت لتهم بشؤون بيتها وعائلتها فاذا تحولت عن ذلك الى أعمال الرجال خرجت عن طبيعتها »

على ان المرأة الانكليزية في أصل فطرتها كثيرة الخضوع لرجلها تستهلك في سبيل راحتها وراحة سائر العائلة مهما كلفها ذلك . لكنها وهي عذراء تتمتع بما يتمتع به الشاب من الحرية الشخصية في ذهابها وايابها وقيامها وقعودها . فاذا تزوجت انقطعت الى بيتها ولم يعد يهمها سواه مع احترام زوجها ومعرفة حقه

٨ - طريقهم في الاستعمار

وترى الحلق الانكليزي الاساسي - نفي التعويل على الحقيقة مع الثبات -
ظاهراً في طريقهم السياسية كالاستعمار مثلاً فان لهم فيه طريقة تخالف طرق سائر
المستعمرين . فهم ينظرون من وراء الاستعمار الى الفائدة الحقيقية لاهلهم زخرف
السيادة وأبهة الدولة والتفاخر بسعة السلطة بقدر ما تهتمهم المصلحة الحقيقية في
الاستعمار . وقد وجدوا بعين العقل ان المصلحة الحقيقية من الفتح او الاحتلال إنما
هي المرافق الاقتصادية او المالية فيوجهون سعيهم اليها . ولا يهمهم بعدها أن تكون
لهم سيادة ان لم يكن الغرض منها المنفعة الاقتصادية . ومن ثباتهم وطول اناتهم صبرهم
على استثمار مطامعهم الاستعمارية اعواماً متطاولة ترسخ في أثنائها أقدامهم أو تسنح
لهم فرص يفتنونها ويؤيدون بها حقوقهم

ولهذا السبب رأيتهم لا يتعجلون وضع الحماية او اعلان السيادة بل بعكس ذلك
يتساهلون مع مستعمراتهم في الاستقلال الاداري حتى لا يبقى فرق يذكر بينه وبين
الاستقلال الحقيقي . ويهمهم من البلد الداخل في حيازتهم او تحت نفوذهم أن
تكون مصالحهم المادية رائجة فيه - ولا يبالون ان يجيئهم ذلك بطريق الاحتلال
أو الحماية او الاستعمار . وعلى هذا المبدأ حلوا قيود أستراليا وكندا والترانسفال
وغيرها . ولا ترى مانعاً من أن يفعلوا ذلك في الهند وغيرها اذا تحققتوا ضمان مصالحهم
الاقتصادية وبقاء علائقهم الودية وأن تكون لهم الافضلية من الحثيات الاخرى
فالسطوة التي بلغت اليها الامة الانكليزية في هذا العصر تتوقف على أخلاقهم
أكثر مما على ذكائهم . ان الاخلاق التي ذكرنا أمثلة منها جعلت أربعين مليون
انكليزي يحكمون نحو ٣٥٠ مليون نفس من امم شتى في القارات الخمس . وفيهم
الفوقاسي والمغولي والهندي والزنجي وغيرهم من طبقات الناس يتكلمون عشرات من
اللغات المختلفة . ان الانكليز استطاعوا ذلك باخلاقهم المتينة واساسها الثبات والتعويل
على الحقيقة . والا فان بين الامم الداخلة في سلطانهم شعباً لا يقولون عنهم ذكاء
وفوقوتهم في كثير من المواهب العقلية . وانما تنقصهم الاخلاق اللازمة للتغلب
او الاستقلال

١٠ - المدنية الحديثة ومدنية العرب

فالانكليز من أوضح الامثلة للاخلاق الملائمة لروح هذه المدنية - وان كانت

لا تلائم المدنيات الاخرى . اذ لكل مدينة قواعد تبني عليها دعائمها ولا تصلح الا بها . فمدينة العرب أساسها مناقب العرب في صدر الاسلام أهمها الأريحية والنجدة والجوار والوفاء والحلم وسعة الصدر وكرم الخلق ونحوها مما لا يلائم المدينة الحديثة . كان الخليفة او الامير يعفو أحياناً عن القاتل لاعتبار قام بنفسه من قول سمعه أو فكر خطر له ويعدُّ ذلك أريحية . وكان القوم يتواصون بالعفو عند المقدرة والاخذ بأسباب الكرم يقيمون بيوت الضيافة ينزل فيها الاضياف أشهراً لا يسألهم أحد من هم . وكان لهم ضرب من الارزاق بالسخاء من الخليفة فمن حوله واتباعهم وحواشيهم وأعوانهم يقيم في بيت الامير او العامل عشرات او مئات من الناس يأكلون ويشربون ويلبسون ولا عمل لهم وقس على ذلك مما فصلناه في تاريخ التمدن الاسلامي . فهذه المناقب بعيدة عن مقتضيات المدينة الحديثة التي أساسها مبادلة الحقوق والواجبات لا حلم ولا عفو ولا أريحية ولا نجدة . وانما ينال المرء من الرزق أو المنصب على قدر سعيه ومواهبه بمقتضى القواعد الاقتصادية والاعتبارات السياسية . فلا يرتقي في هذا السلك غير العارف باحكام السياسة الذي ينظر الى حقائق الاشياء بالنظر الى مصلحة الامة ويحافظ على العدالة وشروطها لا ينفق قرشاً الا في طريقه . وغير ذلك من المناقب الشائعة في أوروبا لهذا العهد - ولكل أيام دولة ورجال

الشجاعة في الحرب^(١)

الشجاعة شدة القلب وقوة النفس عند اليأس وهي ضرب من الصبر . وقالوا هي هيئة للقوة الغضبية متوسطة بين التهور الذي هو الافراط واللين الذي هو التفريط . واساسها الضمير وقوة الارادة . فالرجل القوي الارادة اذا اقتنع بامر تمسك به واذا رأى الصواب في قتال ثبت فيه او في قول جاهر به . ومن دله ضميره على عمل واجب ولم يعمل به فهو جبان . ولذلك عرّف الشجاعة بعضهم بقوله « تظهر الشجاعة بان لا نعمل في الحفاء الا ما يمكننا عمله أمام كل الناس » لان الضمير عندهم خير

(١) عن الهلال سنة ٢٠ صحيفة ٢٠٩

الشاهدين . وقال كوفوشيبوس « من رأى الحق ولم يأخذ جانبه فهو جبان » وقالت العرب « الشجاعة عماد الفضائل ومن فقدوها لم تكمل فيه فضيلة » وقال شيشرون « من بعدد الألم أعظم مصائب الحياة لا يقدر ان يكون شجاعاً . ومن بعدد الملذات أعلى مطالب الدنيا لا يقدر ان يكون معتدلاً »

وبشروط في الشجاعة ان تستعمل معها الروبة وصدق النظر وقياس الاسباب والنتائج لئلا يقدم صاحبها على عمل ثم يرى خطأه فيفشل . وانما يجب عليه أن يتدبر الامر فاذا تحقق وجه الصواب أقدم عليه وصبر الى النهاية . ومن اكبر اسباب الشجاعة « الحب » فان الشجاع يكون أثبت في حربه وجهاده اذا كان جهاده من أجل شيء . يحبه ويفار عليه . وقد يكون ذلك الشيء شخصاً أو وطناً أو رأياً أو مبدأً أو غير ذلك . فالشجاعة بهذا الاعتبار ضروب كثيرة ترجع الى ضربين : الشجاعة في ساحة الوغى دفاعاً عن دين أو وطن أو غرض وهي الشجاعة البدنية . والجرأة في الرأي أو الشجاعة في الدفاع عن رأي أو مبدأ أو علم وهي الجرأة الادبية أو الشجاعة الادبية

الشجاعة في الحرب

هي الصبر في حومة الوغى بثبات جأش وصدق عزيمة . وهي عند رجال الحرب ثلاث مراتب : الاولى اذا التقى الجمعان وتراحف العسكران وتكالحث الاحداق برز من الصف الى وسط المعترك من ينادي هل من مبارز . والثانية اذا نشب القوم واختلطوا ولم يدر أحدهم من أين يأتيه الموت فيكون رابط الجأش ساكن القلب حاضر الالب لا يخالطه الدهش ولا تأخذه الحيرة فيقلب قلب المالك لاموره القائم على نفسه . والثالثة اذا انهزم أصحابه فيلزم الساقة ويضرب في وجوه القوم ويحول بينهم وبين عدوهم ويقوي قلوب أصحابه

ولسكننا نرى فوق هذه المراتب مرتبة رابعة هي تضحية النفس عن اختيار في سبيل ما يدافع عنه . فان أصحاب المراتب الثلاث المتقدم ذكرها لا يخلو أحدهم من أمل في البقاء ولو كان في أشد الضيق أو الخطر . وأما المرتبة الرابعة فهي ان يقال لصاحبها « الق نفسك في هذه النار لانقاذ وطنك او في الثبات على رأيك » فاذا صدق والى نفسه فقد بلغ ارق مراتب الشجاعة . وسنقتصر بحثنا هنا على أصحاب هذه

المرتبة من الشجعان . وهؤلاء اما ان يفعلوا ذلك في سبيل الدين او الوطن أو الشرف الشخصي

١ - الاستهلاك في الدفاع عن الدين

الفترة الدينية من أشد الثورات تأثيراً في نفوس الناس فهم يفضون لدينهم أكثر مما يفضون لأي شيء آخر من المصالح المشتركة . والذين استهلكوا في سبيل نشر الدين أو الدفاع عنه كثيرون لما يتوقعونه من الاجر على صبرهم وعذابهم . والحروب الدينية كثيرة واخبارها طويلة لا حاجة بنا الى ذكرها . وأكثر الشهداء في سبيل الدين يدخلون في باب الجرأة الادبية لثباتهم في رأيهم وسعود اليهم . وانما نكتفي هنا بالإشارة الى جان دارك لأنها ضحت بنفسها في سبيل الوطن بدعوة دينية وتاريخها مشهور . وقد فعلت ما لم يفعله الرجال في حرب فرنسا وانكلترا بأوائل القرن الخامس عشر . فدافعت عن فرنسا دفاعاً لم يسمع بمثله وعرضت نفسها للقتل مراراً بارشاد هاتف كان يدعوها الى ذلك . ولما قبض الانكليز عليها وحاكموها كانت تحيب بشجاعة وثبات عزيزة . وقد قتلوها حرقاً وهي رابطة الجأش لا تبالي ولا تخاف . وآخر كلمة سمعوها منها « يسوع »

ويشبه ذلك او هو أدل منه على الشجاعة الحقيقية ما فعلته الحنساء مع اولادها في حرب القادسية وهي يومئذ عجوزٌ ولها اربعة اولاد حرضتهم على الثبات في القتال . فلما حمى الوطيس تقدموا واحداً واحداً ينشدون الرجز يذكرون فيه وصية والدهم حتى قتلوا عن آخرهم . فلما بلغها الخبر قالت « احمد الله الذي شرفني بقتلهم »

٢ - الاستهلاك في الدفاع عن الوطن

ثبات الامم^(١)

في الدفاع عن اوطانها

ان ما ابداه أهل طرابلس الغرب من انتفاني في الدفاع عن وطنهم على اثر حمل الايطاليان عليهم بجيوشهم وأساطيلهم - دفاعاً لم يكن يرجى ممن في مثل حالهم - بعثنا على كتابة مقالة في أشهر ما جرى من هذا القبيل في التاريخ على سبيل العبرة والموعظة: تفاوت الامم في الدفاع عن الوطن بنسبة ما فطروا عليه من التمسك بالاستقلال أو ما نشأوا عليه من العادات او ما يحيط بهم من الاحوال والمؤثرات . وفي التاريخ حوادث كثيرة تدل على أن الوطن عزيز على أهله وان الاستقلال اشهى ما تتطلبه النفوس الالية . فلا غرو اذا رأينا ائمة انتفاني في الاحتفاظ به وتفضل الفناء في سبيله على الحياة بدونه . والشواهد على ذلك تتصل باقدم أزمنة التاريخ

ان أطول حصار ذكره التاريخ القديم حصار ازوت أمام جند بسامتيك العظيم فانه دام نحو ٢٩ سنة . يليه في الطول حصار طراوده سنة ١١٨٤ ق م . واستمر ١٠ سنين . وقد وصفه هوميروس صاحب الالياذة . وقس على ذلك حصار كثير من مدن التاريخ القديم كحصار مدينة صور سنة ٥٧٢ و ٣٣٢ ق م . وحصار سراقوسة سنة ٤١٤ ق م و ٢١٢ ب م . وحصار ساجنتم سنة ٩١٢ ق م . وحصار اورشليم سنة ٥٩٠ ق م و ٧٠ ب م . وقد ثبت الاورشليميون في هذا الحصار الاخير ثباتاً

يذكره لهم التاريخ مع الإعجاب والثناء . وقد فصله يوسفوس تفصيلاً حسناً وذكره سواه

حصار اورشليم

وخلاصة ذلك ان طيطس امبراطور الرومانيين حمل على اورشليم سنة ٧٠ يريد فتحها . فامتنع أهلها فحاصرها بجند يزيد عدده على ٣٠٠٠٠ مقاتل . وكانت اورشليم يومئذ في ابان مناعتها يحيط بها ثلاثة أسوار الواحد داخل الآخر . وكان جند طيطس أربع فرق أقام ثلاثاً منها في شمالي المدينة على مسافة ميل من السور الخارجي وفرقة أقامها في شرقها عند جبل الزيتون . ومع جند الرومان العدة والسلاح وآلات الهدم وهي يومئذ الكباش والمجانيق والدبابات . وكان بين معسكر طيطس في الشمال وسور المدينة الخارجي أرض عامرة فاخربوا ابنتها واقتلعوا اشجارها ليسهل على الجند الزاحف المرور فيها بعدته ومهاته - قضاوا في ذلك ٤ ايام ثم زحفوا من الشمال وعسكروا في مكان يشرف على زاوية السور الخارجي وبنوا لانفسهم أبراجاً نصبوا فيها مجانيقهم وألحوا على الاسوار بالقنابل (الحجرية)

وكان الاورشليميون يرون في الدفاع عن مدينتهم دفاعاً عن وطنهم ودينهم وكتائبهم فقتلوا جهد طاقتهم . ولكن اسلحة الرومانيين كانت اقوى من اسلحتهم وفيها الكباش وهي كالركبة الكبيرة تجري نحو الاسوار على عجالاتها وفيها الرجلة يحميمهم اخوانهم بالدفاع عنهم من فوق . حتى يصل الكباش الى قرب السور فيأخذون في ثقبه برأس الكباش لا يبالون بما يرمى عليهم من النبال أو غيرها

فتمكن الرومانيون بذلك من فتح ثغرة في السور الخارجي . وكانت الفرقة الشرقية على جبل الزيتون ترمي اليهود بالمجانيق تصوبها نحو الهيكل وترسل عليه النفط المشتعل . تخاف اليهود على هيكلهم واجابوهم باطلاق القنابل من مجانيق كانوا قد غنموها من حروب ماضية . ثم علموا بانسلام السور الشمالي فينسوا من الدفاع عنه فتهقروا . فلحق الرومانيون بهم وبنوا الابراج لحصار السور الثاني . وهم في اثناء ذلك يطلبون اليهم التسليم وحجب الدماء والاورشليميون يرفضون

لكنهم عمدوا الى حيلة عسكرية اتعبوا بها الرومانيين - وذلك انهم اسقطوا تلك الابراج باحتفار سرداب دهليز تحت الارض من داخل السور الى اسفل معسكر الرومانيين . فسقطت الابراج وخسر الرومانيون بذلك خسارة عظيمة ولم يستطيعوا

ترميم تلك الابراج الا في بضعة ايام . ثم ألحسوا في الحصار وأكثروا من رمي القنابل على اورشليم وأهلها حتى اضطر قائدهم سمرعان للانسحاب الى داخل السور الثالث . وهو آخر ملجأ لهم لانه يحيط بالمدينة والهيكل وفيه كل الذخائر المقدسة عندهم

وجمع الرومانيون هناك كل قواتهم وعادوا الى مخبأرة اليهود بالصلح فابوا وعمدوا الى حفر سرايب أخرى هدموا بها كثيراً من حصون أعدائهم . فعاد الرومانيون الى تشييدها وازدادوا نفمة وغيظاً وشددوا الحصار . وما زالوا يلحون بالجناح والسكراباش حتى اخترقوا السور الثالث . وقد لعبت النار في الهيكل فاحترق معظمه . ولم يسلم منه الا قدس الاقداس لمائة حجارته فلم تؤثر النار فيه الا قليلاً . والاورشليميون لا يزالون يجاهدون في الدفاع . فاغتنم طيطس ضعفهم وتضعفهم وطلب اليهم التسليم بشروط وضعها لهم فلم يقبلوها . فعاد وألح في الهدم والاحراق مما يطول تفصيله . وأخيراً دخل المدينة غنوة وأمن في أهلها قتلاً وسيياً . قالوا انه قتل المعجائز والاعلاء وباع الاطفال بيع الارقاء واستعبد الباقين . غير الذين هجروا تلك المدينة وتفرقوا في اطراف العالم

وقس على ذلك ما أناء البوير في الترا نسفال منذ بضع عشرة سنة في محاربتهم انكلترا فانهم وهم شه ذمة قليلة شاغلوا سيدة البحار أكثر من سنتين فانفقت في سبيل اذلالهم نيفاً ومئتي مليون جنيه وألوفاً من الجنود . نعم ان البويريين خرجوا من تلك الحرب مغلوبين اسكن الناس لا يزالون يتحدثون بشجاعتهم وثباتهم ويعجبون بصدق وطنيتهم وقد سجل التاريخ ذلك لهم

واعتبر ايضاً نبات غوردون باشا ورجاله في الخرطوم لما حاصرها محمد احمد المهدي السوداني فانهم ذاقوا الجوع والمرض حتى اكلوا جذور الذرة والعظام والجلود وظلوا ثابتين حتى قتلوا بالسيف بعد دخول المهدي غنوة سنة ١٨٨٥

بطل سنكات

ومن امثلة الثبات في الدفاع عن الاستقلال والحفاظة على الواجبات العسكرية دفاع توفيق بك محافظ سواكن في اثناء الحوادث السودانية . وذلك انه كان مكلفاً بخفارة الطريق بين سواكن وكسلا في السودان الشرقي فاستخدم لذلك شيخاً من

الاعراب اسمه محمد الامين ليتفق مع العربان في حماية الطريق". فساء محمد الامين التصرف مع العربان فغضبوا وكرهوه فطلبوا الى المحافظ توفيق بك أن يبدله بسواه فأبى فغضبوا ونفروا من الحكومة وهم كثار. واتفق في اثناء ذلك مجيء عثمان دققة أحد امراء المهدي بمنشور منه يدعو الناس الى بيعته . فبايعوه فاشتد ازره فسار بهم لماواة الحكومة في سواكن وضواحيها فضايقوها والحكومة ترسل الجند لمقاومتهم عبثاً . وقد حاصروا سنكات وطوكر فضايق اهلها ذرعاً وجاعوا . فبعثوا الى الحكومة يطلبون المدد . فاعدت الحكومة سنة ١٨٨٤ حملة بقيادة بابا كر باشا سارت الى سواكن لفتح الطريق بينها وبين بربر فلقبها الدراويش وغلبوها فعادت بخفي حنين . وكان توفيق بك محافظ سواكن قد سار الى سنكات عرضاً ودخل في جملة المحاصرين . وكان شهماً باسلاً فظهر في حصاره ثباتاً لم يعهد الا في القليلين من الناس

وسنكات قرية لا تزيد حاميتها على ستين رجلاً وقد ضيق عثمان دقته السبل عليها وقطع المؤن عنها حتى كاد اهلها يموتوا جوعاً . فكتب عثمان الى توفيق ان يسلم فلا يقتله فأبى الا البقاء على ولاء الحكومة . فلما جاء بابا كر باشا وعاد خائباً بعث عثمان اليه ثانياً ان يسلم فيسلم وان الامر بانقاده قد انقطع فلم يجبه الا بالثبات . ولما رأى توفيق بك أخيراً ان المؤن نفذت والجند جاءت وأهل البلد ملت جمع اليه رجاله وأهل سنكات وشاورهم في الامر وحثهم على الثبات في ولاء الحكومة . فقالوا نحن على ما تربد فقال « قد نفذ زادنا والطريق مقطوع بيننا وبين المدد فلنخرج مستقلين فاما أن نسير الى سواكن واما ان يلاقينا العصاة فنُدافع عن أنفسنا حتى الموت »

فخرجوا في أوائل فبراير سنة ١٨٨٤ بعد ان هدموا الطوابي وأخربوا المنازل وما ساروا مليون حتى لاقاهم عثمان دققة برجاله وهاجموهم فقاتل توفيق بك حتى قتل شهيد الامانة والبرالة ولم ينج من رجاله وأهل القرية الا نفر قليلون

تفاني القرطاجيين في الدفاع عن وطنهم

على ان ما تقدم ذكره لا يعد كثيراً بالنظر الى ثبات القرطاجيين أهل قرطاجة بجوار طرابلس الغرب منذ الف سنة في حروبهم مع الرومانيين المعروفة بالحرب البونية أو الفونية وبطلها هنيبال القائد القرطاجي أشهر من أن يذكر . وقد فصلنا تاريخها

في الهلال السادس من السنة التاسعة . وانما أردنا هنا الإشارة الى ما أدهش العالم من ثبات القرطاجيين في الدفاع عن وطنهم مما لم يسبق له مثيل . وهم اسلاف الطرابلسيين الذين يحاربون الايطاليين مع الجند العثماني اليوم دفاعاً عن حقوق الدولة العثمانية . أما حديث القرطاجيين فإليك خلاصته :

فاز القرطاجيون أولاً في حربهم مع الرومانيين حتى اخترقوا اوربا وقطعوا جبال الالب وحاصروا رومية وأوشكوا أن يفتحوها ثم عادت العائدة عليهم . وبعد حوادث كثيرة حمل عليهم الرومانيون في بلادهم وحاصروهم في مدينتهم « قرطاجة » (بقرب تونس) وقد اهكت الحروب قواهم وهاك قوادهم واكثر رجالهم . وكان الرومانيون يتوقعون منهم التسليم حالاً بلا مراجعة - كما كان الايطاليان يتوقعون من الطرابلسيين العثمانيين بالامس . فلما وصل الرومانيون الى قرطاجة أمروا اهلها أن يسلموا اسلحتهم وهم يعرفون عجزهم عن الرفض . فسلموا السلاح وهم يحسبون هذا كل ما يطلب منهم . ثم ابلغهم قائد تلك الحملة ان مجلس الشيوخ الروماني يأمرهم أن يهجروا مدينتهم ويبنوا مدينة اخرى بلا حصون ولا اسوار وان تدك قرطاجة الى اساسها . فعظم ذلك على القرطاجيين ولطموا وجوههم وشقوا جيوبهم وترغوا بالتراب وتضرعوا الى آلهتهم ولعنوا الرومان على قساوتهم . فلما فرغوا من التحيب عادت اليهم شجاعتهم وعزموا على الدفاع الى آخر نسمة من حياتهم حتى يموتوا تحت اسوار مدينتهم افرغ القرطاجيون ما في وسعهم لتحصين مدينتهم فجعلوا الهياكل حصوناً وهدموا الابنية العمومية واستخرجوا أخشابها ومعادنها وقضوا الليل والنهار نساء ورجالاً في اصطناع الاسلحة منها . وقطع النساء شعورهن وجدلنه اوتاراً للاقواس وأمراساً للمجانيق . ولم يمض قليل حتى تساح القرطاجيون باحسن الاسلحة وكان الرومانيون في اتيكا فرحفوا الى قرطاجة وهاجموها وهم يحسبونهم لا يستطيع دفاعاً . فاذا هي محصنة بالابراج والمجانيق والرجال مما لا يسهل التغلب عليه فحاصروها سنتين والقرطاجيون ثابتون ثبوت الجبال

وفي السنة الثالثة تولى قيادة الجند الروماني هناك قائد اسمه شيبو اميليانوس فادنى معسكره من المدينة حتى اصبح على مرمى قوس من اسوارها وقطع ما بينها وبين البر ولم يبق للقرطاجيين سبيل الى الاقوات الا بالبحر . فعمد شيبو الى قطعه

بسد البوغاز يمرقاً من الحجارة الضخمة . وحاول القرطاجيون في أثناء بناء المرفأ أن يمنعوا الرومانيين من بنائه بسفن أرسلوها لمحاربتهم فلم تصل في الوقت المناسب ولم تأت بفائدة . فازداد الحصار ضيقاً وهجم الرومانيون من جهة المرفأ فظنهم القرطاجيون هاجمين على المدينة من تلك الجهة فاحرقوا أخشاباً كانت هناك . ولكن الرومانيين تحولوا الى الجهة المقابلة وهاجموا المدينة والقرطاجيون مشغولون في الجهة الأخرى . فدخل الرومانيون المدينة واحتلوا اسواقها فالتجأ أهلها الى القلعة فنبعهم الرومانيون والنبال تساقط عليهم من سطوح المنازل . واشتبك القتال في وسط المدينة بالسهم والحرب . فامتألت الطرق بالقتلى ودوى الجوابين الجرحى وبكاء الاطفال وعويل النساء وصياح الرومانيين . حتى اذا وصلوا الى القلعة أمر شيبو باحراق المدينة ففعلوا فتصاعد الاله وخارج جماهير الشيوخ والاطفان والنساء والعجزة من منازلهم فراراً من الحريق ولكن كيف يفرون وهم بين النار والسيف

وظلت النيران متقدمة ستة ايام متوالية وفي اليوم السابع بعث القرطاجيون المحاصرون في القلعة الى جند الرومان يعرضون التسليم على شرط استبقائهم في قيد الحياة . فاجابهم شيبو انه يستبقي الجميع الا الهاربين وكان عددهم تسعمائة التجأوا الى هيكل اسكولايوس بقيادة حسدروبال . وكان الهيكل على أكمة منيعة فما زالوا محاصرين فيه حتى غلب عليهم التعب والجوع . فخرج حسدروبال خلسة وغدراً وسلم نفسه الى شيبو فاجلسه هذا عند قدميه والقرطاجيون ينظرون اليه من أعلى الهيكل ويلعنونه ويعبرونه بالجين والحيانة . ولما يتسوا من النجاة احرقوا الهيكل والقوا انفسهم في نيرانه ولسان حالهم يقول النار ولا العار

ويقال ان امرأة حسدروبال جاءت به بعد تسليمه ومعها طفلاه وهو جالس عند قدمي شيبو وخاطبت شيبو قائلة « ويل لكم ايها الرومانيون اهلكتمونا وانتم لا تخافون الآلهة ولكن آلهة قرطاجية ستجازي حسدروبال هذا لانه خاني وخان أولاده وآلهته » ثم تحولت الى حسدروبال وقالت له « ويل لك ايها الخائن الشقي انك اجبن الناس . وهى رأيت هذه النيران تحرقني وتحرق ولديك هذين ما يكون عذرك يا قائد القرطاجيين وما الذي ينجيك من نقمة هذا . . الذي انت جالس عند قدميه ؟ » قالت ذلك وهمت بالطفلين فقضمت حلقة وميها ورمت بهما الى النار والقت نفسها فوقهما

فحسب أن يكون في نفوس الطرابلسيين من صدق العزيمة والثبات في الدفاع عن الوطن ما كان في نفوس أسلافهم . وإن تكون نتيجة ذلك فوزهم في نصرة الدولة العثمانية وإخراج الأعداء من بلادهم إن شاء الله فيخلد لهم التاريخ ذكرًا لا تمحوه الأيام

هل السوريون عرب

أو ما هم ^(١)

فاضت صحف الأخبار بعد الدستور في السوريين هل هم عرب واختلفت الآراء في ذلك فكتب النا غير واحد يسألونا رأينا فيهم فقول :

السوريون قبل الإسلام

إن السوريين ويراد بهم غالباً أهل الشام والعراق وما بين النهرين وفلسطين يصعب تعيين أصولهم لكثرة ما توالى عليهم من الدول قديماً وحديثاً . فقد كانت هذه البلاد في أقدم أزمنة التاريخ مأهولة بشعوب سامية تتقارب نسباً ولغة . أما قبل نزول الساميين فكانت مقاماً لأم لا يعرف أصلها وكان الساميون أقوى منهم فغلبوهم واستقروا فيها وأخذوا لك بالانقراض قبل الميلاد بعدة قرون . وهالك ترتيب مساكن الساميين هناك من الشمال إلى الجنوب - الآراميون (السريان والكلدان) فالفينيقيون فالعبرانيون فالأنباط . وخالطتهم أم شتى غير سامية أقامت بين أظهرهم في بقاع مختلفة من بلادهم غير بقايا الشعوب الأصلية مما يطول بيانه ولكن الساميين تغلبوا عليهم جميعاً وعاشت أديانهم وأدابهم وعاداتهم

على أن مركز هذه البلاد الجغرافي جعلها عرضة لمطامع الفاتحين من الأمم القديمة كالحثيين والمصريين والاشوريين والفرس فكانوا يتناوبون فتحها أو اكتساحها وتنقاطر شعوبهم إليها . ولكن الأمر لم يستقم لدولة من الدول في سوريا كما استقام لليونانيين خلفاء الإسكندر . فإن هذا القائد العظيم فتح هذه البلاد في القرن الرابع

قبل الميلاد واوغل فيها ثم صيرها خلفاؤه يونانية وتوافد اليها اليونان واقاموا فيها واختلطوا باهلها ولا سيما بعد ظهور النصرانية . وقد دخلت في سلطنة الرومان ولكن العنصر اليوناني ما زال متغلباً عليها واكثر تغلبه على سواحل بحر الروم ويضعف شأنه في الداخلية تدريجاً

ومع ذلك الاختلاط ظلت الشعوب السامية محافظة على آدابها وعاداتها ولغاتها ولا سيما اليهود فانهم مع ما أصابهم من الاضطهاد والسبي ظلوا من حيث الآداب والدين نحو ما كانوا عليه في أيام داود وسليمان الا ما أصاب لغتهم من التغيير في اثناء السبي ببابل فانها اختلطت بالسريانية والسكندانية وعرفت باللغة الآرامية او السكندانية وبها كتبوا التلمود وانقسموا الى اليهود والسامريين . أما من بقي من الشعوب السامية ولا سيما الآراميون فتنصروا وانفردوا بآدابهم وعاداتهم واكثرهم كانوا يقيمون في العراق وما بين النهرين وأعلى سوريا الى فلسطين

فكانت حدود الشام الغربية على سواحل بحر الروم يغلب فيها العنصر اليوناني . وحدودها الشرقية مما يلي البادية يغلب فيها العنصر العربي . وكان هناك من اوائل القرن الرابع قبل الميلاد امة عربية عرفت بالانباط أو النبط كان مقامهم وراء فلسطين شرقاً جنوبياً على انقاض الادوميين وهي دولة بطرا التي فصلنا اخبارها في كتابنا « العرب قبل الاسلام » فانهم اختلطوا باهل الشام وفلسطين اجيالاً متوالية . ولما ضعف شأنهم ظهر مكانهم على حدود الشام والعراق أجيال جديدة من العرب اتخذهم الفرس حلفاء يردون غارات اخوانهم أهل البادية او ينصرونهم في الحروب التي كانت تنشب بين الدولتين قبيل الاسلام . فاقام حلفاء الروم في جهات حوران وهم الفساسنة وأقام حلفاء الفرس على شاطئ الفرات في الحيرة وهم المناذرة . فاذا اشتببت الحرب بين الروم والفرس تجند الفساسنة للروم والمناذرة للفرس ودافع كل منهما عن أحبابه . ولنجو هذا السبب أقام العرب على الحدود بين الفرس والروم في ما بين النهرين والعراق وفيهم بطون من اياد وريعة

فسكان الشام والعراق عند ظهور الاسلام كان معظمهم من بقايا الآراميين الاصليين في الشمال والشرق . واليهود والسامريين في الجنوب وبقايا الانباط في الجنوب الشرقي يليهم العرب الفساسنة والمناذرة ثم قبائل اياد وريعة بين النهرين . ويتخلل هذا المجموع شتات من امم اخرى كالحراجة في جبل الاسكمان والجرامقة في الموصل واخلاط

من مولدي اليونان والرومان على الشواطئ ومولدي الفرس والاكراد في الشمال
السوربون بعد الاسلام

ولما رسخت قدم العرب في الشام والعراق اختلطوا باهلها وأقاموا في مدائنهم ثم
نزع اليها غيرهم طلباً للرزق ونزلوا الارياض . ولما قامت الدولة العباسية وعظم شأن
الفرس ونولوا الاعمال في المملكة نزع جماعة منهم الى الشام والعراق . ثم تكاثرت
الجند التركي في الدولة فكثرت تقاطر الاتراك وأقاموا فيهما وكانت الدولة تستعين في
حربها برجال من الاكراد والديلم والارمن . وتزايد الاكراد على الخصوص في
عهد الدولة الابوية ثم تكاثرت الاتراك والجرس في عهد الدولة السلجوقية والنورية
والسلطين المماليك . فلما تسلطت الدولة العثمانية اضيف اليهم جماعة من الانكشارية
وهم اخلاط من امم شتى وجماعة الارناؤط وغيرهم - ناهيك بتقاطر الافرنج الى سوريا
في أثناء الحروب الصليبية وما بعدها وفيهم الفرنسيون والانكليزي والالمانى والاطالي
وقد اجتاحتها الثغور والاراضي المقدسة وأقاموا رداً من الزمن في مملكة معززة
الاركان بمن كان ياتيها من نصارى الافرنج وقد بقي منهم جماعة توطنوا وتناسلوا

وكانت المهاجرة متواصلة الى سوريا من جيرانها سكان شواطئ البحر المتوسط
من الغرب وسكان البادية من الشرق ولا سيما اليونان وعرب حوران فان مهاجرتهم
اليها لم تقطع حتى الآن . وفي سوريا كثير من العائلات المسيحية ترجع بالنسابة الى
احدى هاتين الامتين

فالسوربون الان يقسمون من حيث اصولهم الى قسمين كبيرين المسلمين
والمسيحيين . فلتنظر في اسباب كل منهما على حدة . أما اليهود فأنسابهم محفوظة
قلما طرأ عليها تغيير

انساب المسلمين في سوريا : ان انساب مسلمي سوريا ترجع بالاكثري الى العرب
لانهم أول من نزلها من أهل الاسلام بعد الفتح كما تقدم . وخالطهم بعد ذلك من
جاءها من الامم الاسلامية كالترك والجرس والاكراد والفرس والديلم ونحوهم ومن
اعتنق الاسلام من مسيحييها او يهودها او اليونان او غيرهم فمن حفظوا انسابهم العربية
بيوت الخالدي والحسيني والحزومي وغيرهم وفيهم بيوت بخالطها شيء من الدم
الارامي او اليوناني او الاسرائيلي

انساب نصارى الشام

أما نصارى سوريا وهم المراد من البحث الذي فاضت به الصحف فقد كان معظمهم عند ظهور الاسلام من الاراميين والعرب واليونان كما رأيت . والاراميون هم سكان البلاد الاصليون وجاءهم اليونان بحراً من الغرب فزولوا سواحل بحر الروم ودخل عليهم العرب برّاً من الشرق والجنوب واكثرهم من غسان في حوران وتغلب وايد والنمر في ما بين النهرين . وكانت هذه القبائل عند ظهور الاسلام تدين بالنصرانية لكن قبائل ما بين النهرين نصرت العرب بمجاعة الجنس أو اللغة لأنها كانت ناقة على الفرس فعرف العرب المسلمون لها فضلها في ذلك . فلما هموا بوضع الجزية على أهل الذمة بعد الفتح أبت قبائل تغلب وايد والنمر اداءها وبلغ عمر بن الخطاب ذلك فاستشار أصحابه فقال له بعضهم « أنهم عرب يأقون من الجزية وهم قوم لهم نكاية فلا تمن عدوك عليك » فوافق ذلك ما في نفسه ففرض عليهم الصدقة كما تفرض على المسلمين ولكنه اشترط عليهم ان لا ينصروا أولادهم قال ذلك طبعاً الى دخولهم في الاسلام . وكان عمر شديد المحافظة على الجامعة العربية لا يأذن للعرب النصارى في التوغل بلاد الروم واذا فعلوا استرجعهم وخاطب ملك الروم بشأنهم لانه يرى ذلك حقاً له . ذكروا ان الوليد بن عقبة لما سار لفتح العراق والجزيرة انضم اليه عربها النصارى الا قبيلة ايد فانهم تحملوا الى بلاد الروم فكتب الوليد الى عمر بذلك فكتب عمر الى ملك الروم « بلغني ان حياً من احياء العرب ترك دارنا وأتى دارك فوالله لنخرجنه او لنخرجن النصارى اليك » فاخرجهم ملك الروم

فلم يبق على النصرانية من عرب الشام بعد الاسلام الا بقايا الغساسنة في حوران ومنتف من اتباع المناذرة عرب العراق او من جاءهم من كندة ونحوها . فإكان في نصارى الشام من دم العرب والنسب العربي مرجعه بالاكثر الى الغساسنة . اما العرب الفاتحون الذين نزلوا الشام والعراق فكلهم مسلمون ونذر فيهم من تنصر فلم تدخل انساب السوريين المسيحيين شيئاً من أنسابهم ولا دخلها شيئاً من انساب الامم الاسلامية التي نزلت الشام بعد العرب كالأتراك والاكرد او الفرس او الجرركس او غيرهم . ولكن خالطها كثير من انساب الامم النصرانية التي نزلت هناك كالارمن والروم والافرنج من زمن الصليبيين وما بعده لان هؤلاء كانوا اذا جاؤا

سوريا استقروا فيها وتنازلوا ونسبت أنسابهم وتكلموا العربية وتخلقوا باخلاق السوريين وعاداتهم وصاروا منهم

فانساب نصارى الشام الآن ترجع الى أنساب أصلية وهي الآرامية (السريان والكلدان) وأنساب دخيلة أقدمها وأكثرها شيوعاً على سواحل البحر المتوسط اليونانية لان اليونان جاءوا سوريا واختلطوا باهلها من أقدم أزمنة التاريخ وكانوا ينزلون شواطئها وزاد نزوحهم بعد زمن الاسكندر حتى صارت سوريا بلداً ثانياً لهم كما تقدم . وظلوا يتوابعون اليها بعد الفتح الاسلامي وما زالوا على ذلك الى الآن . وفي سوريا بيوت كثيرة تنسب الى اليونان وامماؤها تدل على أصولها كبيت بني وبولي وكثسفليس وبامادوبلس وفيلبيدس وغيرهم . ومنها بيوت تبدلت اسماءها باسماء عربية وحفظت انسابها عند اهلها كبيت مشاق في دمشق الشام فهم يرجعون بنسبهم الى يوسف بريكي من كورفو ببلاد اليونان نزل طرابلس الشام وكان تاجراً بالمشاقفة فعرف اسمه بها . وبيت مسرة فرع من اسرة يونانية نشأت في طرابلس وجاء جدها الى ديار بكر فحلب وتفرعت في دمشق ومصر

اما النسب العربي في السوريين فانه قديم وعريق فيهم ايضاً لكن أكثره في شرقي الشام وجنوبها مما يلي جزيرة العرب لان أهل هذه الجزيرة كثيراً ما كانوا ينزلون ما جاورهم من القرى ويخضرون . ولكن تلك الاصول القديمة قد ضاعت الآن وأكثر ما يعرف من النسب العربي في السوريين يرجع الى الغساسنة وهو متأصل فيها قبل الاسلام ثم توالى دخول الغساسنة الشام واندماجهم باهلها جيلاً بعد جيل التماساً للرزق بالزرع أو غيره او فراراً من العرب المسلمين في مشارف الشام . وأحدث ما يذكرونه من توافدهم الى سوريا مهاجرينهم في أواسط القرن الخامس عشر على أثر خصام وقع في حوران حملهم على الانسحاب الى المدن فتفرقوا في سوريا ونزل منهم جماعة كبيرة في جنوبي لبنان . وكثيرون من نصارى هذا القسم الروم الارثوذكس وغيرهم ينتسبون الى الغساسنة وقد نزل بعضهم المدن وتنازلوا فيها . وهناك عشائر نصرانية كبيرة ترجع باصولها الى حوران فشاخ بيت الحازن في لبنان ينتسبون الى أصل حوراني ويقولون ان جددهم جاء من اذرع في حوران في أواسط القرن الخامس عشر . وكذلك اسرة المطران في بعلبك وزحلة فانهم في الاصل من

جالية حوران . وهكذا يقال في بيوت جبارة وغنام وحراني وعطية وشقير وطراد وحداد وصفير وغصن وغيرهم

وأما سائر الانساب النصرانية فمنها الاصول الارمنية وهي كثيرة وكلها تعد من جملة السوريين كبيوت هندية وخياط باشا وابكاربوس وورثبات وقرانيت وغيرهم . ومنها الاصول الافرنجية وقد ضاعت اسماؤها الا قليلاً منها كبيت ابيلاً من الاسبان وبيت طاسو من الايطاليين وبيت شرشل من الانكليز . وينتسب بيت كرم في اهدن الى كولونل فرنساوي . وبيت طريه في طرابلس ينتسبون الى الفرنسيين من زمن الصليبيين . وقس على ذلك سائر الامم المسيحية التي نزلت الشام واختلطت باهلها مما يطول شرحه

فالسوريون المسيحيون ليسوا عرباً من حيث النسب وان كان فيهم شيء من دم العرب بل هم اخلاط من امم شتى ولكنهم يعدون عرباً لانهم يتكلمون العربية وقد توالدوا في بلاد عربية وتحلقوا باخلاق العرب . فسوريا أصبحت بعد الفتح الاسلامي عربية لنزول العرب المسلمين فيها واتخاذها وطناً لهم وقد نشروا فيها لسانهم وعاداتهم وآدابهم فسكانها يعدون عرباً وان لم يرجعوا بانسابهم الى قبائل العرب

والعرب بهذا الاعتبار ثلاث طبقات (١) أهل البادية الذين ينتسبون الى القبائل العربية ولا يزالون محافظين على انسابهم (٢) العرب المسلمون الذين نزلوا الارياض واختلطوا بغير العرب بالتزاوج واندج فيهم سواهم من الامم الاسلامية غير العرب وهم سكان المدن في الشام والعراق ومصر والمغرب تجمعهم اللغة العربية والدين الاسلامي (٣) العرب المولدون المنتسبون الى العرب وهم المسيحيون من سكان هذه البلاد فانهم يعدون عرباً باعتبار لغتهم وعاداتهم وآدابهم لا من حيث انسابهم . ومنهم نصارى الشام والعراق وأقباط مصر . وعلى هذا القياس يعد نصارى البر الاناضول الذين يتكلمون التركية اتراكاً وأكثرهم من اليونان وقس

السوريون وتجنسهم بالجنسية الاميركية

بحث اجتماعي^(١)

جاءنا من رصيفنا صاحب جريدة المناظر التي تصدر في ساناوولو البرازيل كتاب يقترح علينا فيه باسم السوريين في اميركا ان نبدي رأينا في مناظرة دارت بينه وبين صاحب جريدة المهاجر التي تصدر في نيويورك بشأن مستقبل السوريين في اميركا من حيث تجنسهم بالجنسية الاميركية والاختلاط التام بالاميركان او البقاء على العثمانية والحفاظة على الوطنية السورية للرجوع الى سوريا فاجبتنا اقتراحه وبعثنا بالجواب اليه ونظراً لما في هذا الموضوع من البحث الاجتماعي رأينا ان نشره في الهلال وهالك نص الجواب :

حضرة الرصيف الفاضل

وصلني كتابك الذي تقترح عليّ فيه باسم السوريين باميركا ان ابدي رأيني في ما دار بينك وبين الرصيف الفاضل صاحب المهاجر بشأن مستقبل السوريين في اميركا من حيث « التجنس بالجنسية الاميركية والاختلاط التام بالاميركان » وهي دعوة المهاجر . أو « البقاء على العثمانية والحفاظة على الوطنية السورية للرجوع الى سوريا » وهي دعوة المناظر . فاشكر لكما حسن ظنكما بهذا العاجز للحكم في مسألة هي من أهم المسائل السورية لان الحكم فيها يتناول الحكم على حال السوريين في سائر ديار هجرتهم في اميركا واوروبا وآسيا واستراليا وافريقيا فاذا كان الصواب في استبقاء جنسيتهم والرجوع الى بلادهم وجب اطلاق ذلك على السوريين كافة حيثما نزلوا

على انني رأيتكما جعلتما السوري مخيراً في اتباع أحد الرأيين وهو في الحقيقة مسوق الى أحدهما بطبيعة العمران شأن الانسان في سائر أحوال اجتماعه . فلو جعلتما موضوع البحث هل يرجع السوريون من ديار هجرتهم أم يبقون فيها لكان ذلك أقرب الى مجازاة ناموس التاريخ - وقد قيل اذا شئت ان تقطع فسل ما يستطيع

قرأت كتاب الرصيف الكريم واطلعت في اعداد المناظر على ما دار بينكما في هذا الشأن وانا في رمل الاسكندرية وقد فررت من الحابر وهجرت الاقلام والدفاتر وأقمت في هذا المصيف التماساً للراحة في اثناء احتجاب الهلال . ففكرت في هذه المسألة الخطيرة وانا مطل من نافذة فندق نحن مقيمون فيه يشرف على قطر الترام وواي وهي ذاهبة جاثية تقل الناس بين الاسكندرية ومصايف الرمل فرأيتها تحمل العشرات والمئات وليس بينهم من الوطنيين الا جزء صغير والباقيون من الاجانب وفيهم جانب عظيم من السوريين اكثرهم من أهل الوجاهة وأرباب الثروة والنفوذ وأهل العلم والادب . وتذكرت كثرة السوريين في القاهرة وفيهم جماعة كبيرة من كبار الموظفين وأصحاب المناصب الادارية والعسكرية وأرباب الصحافة والتجار والحامين والاطباء وغيرهم . ومثل هؤلاء كثيرون أيضاً في انحاء القطر المصري - فقلت في نفسي لو صحت دعوة المناظر لوجب أن يعود هؤلاء جميعهم الى سوريا ويعود أمثالهم من أربعة أقطار المسكونة وهم يعدون بمئات الالوف وفيهم أهل الثروة والجاه وقد زادهم الاعتبار علماً واختباراً واقتبسوا من امم الارض أحسن ما عندهن من آداب الاجتماع وأساليب الارتزاق . وليست ثروتهم بالشئ القليل نعرف ذلك بالقياس على ثروة السوريين في القطر المصري فانها تقدر الآن بنحو ثلاثين مليون جنيه وهم لا يزيدون على بضعة عشر الف نفس فكيف بثروة من بقي منهم في سائر ديار هجرتهم وعددهم نحو ٣٠٠ الف نفس مع اعتبار ثروتهم في غير مصر أقل منها فيها فلو قدرناها بنصف ذلك او ربعه لزادت ثروة مهاجري سوريا على ٢٠٠ مليون وهي تتضاعف بتوالي الاعوام فان ثروة السوريين في مصر كانت منذ عشر سنين ربع ما هي الآن - فاذا عاد السوريون الى سوريا بهذه الثروة سعدت تلك البقعة المباركة واجتمع فيها الاقرباء والاصدقاء يتمتعون بالنسيم العليل والاقليم النشيط - وذلك غاية ما يرجوه الانسان من أسباب السعادة في دنياه ولكن :

نسج الريح على الماء زرد ياله درعاً منيعاً لو جمد

انها أمنية لا يرجي تحقيقها . فالسوريون باقون في ديار غربتهم وسيندمجون في أهاليها ويكونون بعضاً منهم يتفاهمون بالسنتهم ويتأدبون بأدابهم - ذلك هو رأبي نشرته في الهلال منذ بضعة أعوام ونشره صاحب المهاجر في رده . وقد كان في الاشارة اليه كفاية لولا ما تخلل بحسبكما من ذكر الوطن وخيائته والوطنية وجامعتها

ما ينقر على أوتار القلوب فيثير العواطف حتى تشوش على العقل سبيله في احكامه .
والبحث الذي نحن فيه يستلزم النظر في الحقيقة المجردة والمصلحة الشاملة فاستأذن
الرصيفين السكريمين في تفصيل ما أجملته هناك

(المهاجرة) قديمة كالانسان وأقدم أسبابها الارتزاق . وهي من أقدم دعائم
العمران وأقواها لان البشر تسلسلوا من أب واحد وكانوا في بقعة واحدة فلما تكاثروا
ضاقت تلك البقعة عن معاشهم فهاجروا الى ما حولها الناساً للفرس والمرعى ثم تفرعت
هجرتهم للسبب عينه بتوالي الاجيال . وأقدم ما بلغنا من اخبار المهاجرة تفرق ابناء
نوح أو قبائلهم من أواسط آسيا الى اطراف المعمور وهم أرقى السلالات البشرية ومنهم
تسلسلت الامم المرتقية المعبر عنها بالشعوب القوقاسية . وكان القوقاسيون حينما نزلوا
في أثناء هجرتهم لقوا شعوباً من سلالات سافلة كالزنوج أو الهنود فكانوا يغلبونهم على
ما في أيديهم ويتولون امورهم . ثم انشأوا عمداً لا يزال يرتقي الى اليوم - فكانت
الارض عمرت بالمهاجرة من سلالات بعضها ارقى من بعض تعاقبت وهي ترتقي
بتعاقب الدهور

واذا نظرنا الى كل بقعة من بقاع الارض على حدة رأينا آثار ذلك التعاقب
ظاهرة فيها . فوادي النيل مثلاً أقدم سكانه الزنوج ثم جاء النوبة وهم ارقى منهم
فطاردوهم نحو الجنوب وأقاموا مكانهم ثم جاء القوقاسيون فزاحمو النوبة وغلبوهم
ومنهم الفراعنة الذين انشأوا التمدن المصري القديم . ويقال نحو ذلك في شواطئ
افريقيا الشمالية فان الشعوب القوقاسية جاءت من الشرق والشمال وطردت برابرتها
نحو الجنوب . ولما نزح الآريون الى الهند وجدوا فيها الهنود الاصليين وهم كالنوبة
في افريقيا فغلبوا عليهم ومنهم الكهنة (البراهمة) والحكام وقس على ذلك نزوح
القبائل الآرية الى اوربا والسامية الى سوريا وفلسطين وبلاد العرب وغيرها

ناهيك بما كان من المهاجرات المتوالية في عهد التاريخ وخصوصاً بعد اكتشاف
اميركا واستراليا وغيرها من بلاد العالم الجديد . فقد نزح اليها أهل اوربا (وهم
القوقاسيون) فطردوا من كان فيها من سلالات الهنود ونقلوا اليها تمدنهم وفر الهنود
من وجه الافرنج في اميركا واستراليا كما فر النوبة من وجه القوقاسيين (الساميين)
في افريقيا قبل ذلك الزمن بقرون . ولا يزال القوقاسيون ينزحون الى العالم الجديد
من سائر اقطار المعمور ومهما اختلفت لغاتهم وعاداتهم وآدابهم فانهم سلاله رجل

واحد يجمعهم شكل الجمجمة وسمو المدارك وهم الذين أنشأوا هذا التمدن ونشروه في العالم القديم والحديث ولو أتيج لهم اكتشاف عوالم أخرى لزحوا إليها وعمروها ثم إن الأمم تختلف ميلاً إلى المهاجرة واقتداراً عليها باختلاف الاقليم وطبائع أهله . ومن أقدر الأمم على المهاجرة وأكثرهم سعيّاً فيها السوربون فقد كانوا من عهد الفينيقيين أهل رحلة ومهاجرة وقد استعمروا كثيراً من شواطئ البحر المتوسط قبل الميلاد بعدة قرون وأشهر مستعمراتهم قرطاجنة في شمالي أفريقيا ورحلوا إلى بلاد التمدن القديم في آشور وبابل ومصر وكانوا خير واسطة لنقل ذلك التمدن بين تلك الأمم (راجع الجزء الثالث من كتابنا تاريخ التمدن الاسلامي) . وكان ذلك شأنهم في عهد التمدن اليوناني ثم الروماني فكانوا ينزحون إلى بلاد الروم والفرس والاسكندرية لهذه الغاية . وهذا هو شأنهم أيضاً في عهد هذا التمدن فانهم يطلبون الرزق ويسهل عليهم الانتقال في طلبه حتى اجتمع منهم نحو ٢٠٠.٠٠٠ في اميركا وجماعات كبيرة في اوستراليا وتسمانيا وزيلاندا وفي زنجبار والترانسفال والسنغال وفي جزائر المحيط . غير مصر وأفريقيا وأواسطها وفي الهند وفارس والصين واليابان وفي جزائر المحيط . غير مصر والسودان وتونس ومراكش وغير المقيمين في عواصم أوروبا . وبالجملة فلا تكاد تخلو منهم بلد من بلاد العامرة في أربعة أقطار المسكونة وهم بحول الله حينما نزلوا أفلحوا

وللسوري طبيعة يمتاز بها عن سائر الأمم وقد تمكنت فيه بتوالي الاغتراب فهو مع نشاطه وذكائه ذو اقتدار غريب على تكييف نفسه وتطبيق أخلاقه وأطواره على البيئة التي يعيش فيها وأتقان اللغة التي يتفاهم بها أهلها . فإذا أقام في فرنسا مثلاً لا يمتضي كبير زمن وهو يقدد الفرنسيين حتى لا تشك أنه منهم وكذلك إذا أقام في اميركا او انكلترا فانك تحسبه اميركياً او انكليزياً . وراه من اشد الناس غيرة على البلد الذي يستوطنه وأكثرهم دفاعاً عنه وسعيّاً في خدمته

(الوطن والجامعة الوطنية) رأيت صاحب المناظر الفاضل مغالياً في اعتماده على الجامعة الوطنية في تأييد رأيه وقد عد تجنس السوري بالجنسية الاميركية خيانة للوطن . فاستأذنه في بيان الوطن والجامعة الوطنية بالنظر الى السوري . اما الوطن فهو البلد يقيم فيه اناس مصالحهم مشتركة وحقوقهم متبادلة . والحنين الى الوطن من قبيل الحنين الى الوالدین وكلاهما من نتائج العادة والالفة . فكيف لانحن الى بلد

عرفنا الشمس في سماءه وتنشقنا الحياة من هوائه واغذيها من حيوانه ونباته فاطلنا أطفالا وربانا احداثاً وشباناً . وقد تألفت ابداننا من عناصره وتكيفت أطوارنا تبعاً لاقليمه . وهو مجتمع الاهل والاقرباء ومقر الخلان والاصدقاء - فالحنين الى الوطن طبيعي حتى في الحيوان الاعجم فلا حاجة الى اثباته . اما البقاء فيه او الرجوع اليه فليس من الواجبات المفروضة كما ان البقاء في حجر الوالدين ليس من بواعث العمران ولا من قواعد الارتقاء الا اذا قضت المصلحة بذلك . فالشاب اذا بلغ أشده طلب أسباب الرزق حينما توفرت له ولو قضى عليه ذلك بفراق والديه واهله فكيف بوطنه . وكما يطلب منه أن يذكر اهله ويحن اليهم ويسعى في راحتهم ولو بعد عنهم فكذلك وطنه اذا أصيب بنكبة فانه مطالب بنصرته واعانته بما تبلغ اليه قدرته

هذا هو الوطن بالنظر الى كل فرد من افراده وأما بالنظر الى مجموع الامة أو الى الدولة فهو الجامعة الوطنية وهي في أبسط أحوالها عبارة عن اجتماع أهل البلد الواحد لدفع عدو يريد اغتياله . وقد يكونون في نزاع وخصام حتى يهددهم الخطر فيجتمعون وذلك طبيعي حتى في العجاوات . فان الاديك قد تتنازع وتتخاصم فاذا جمعتها في قفص وعذبتها بالجوع أو نحوه تحابت وتآلفت . فاهل البلد الواحد يشتركون في الدفاع عن بلدهم أو السعي في مصلحته بما يسمونه الجامعة الوطنية وهي من التعميمات التي اقتبسناها من أهل التمدن الحديث في أوروبا ويراد بها عندهم تكاتف أهل المملكة الواحدة في الذب عن حياضها والسعي في مصلحتها وهي تقوم مقام جامعة الدين أو اللغة في الأمم الأخرى . وتقوى الجامعة الوطنية وتتوثق عراها بين أطراف المملكة كلما اشتد أمر الدولة وتوطد سلطانها وتبوءت أسباب الانتفاع بين العاصمة والبلاد التابعة لها . فقد كانت الدولة في أقدم أزمنة التاريخ تتركز في مدينة واحدة تنسب اليها كدولة اثينا وسبارطة ورومية فاذا قوي سلطانها واتسعت فتوحها حتى صارت مملكة كبيرة نسبت المملكة الى تلك المدينة كالمملكة الرومانية مثلاً فانها عبارة عن مدينة رومية والبلاد التابعة لها . وكانت الجامعة الوطنية الرومانية تقوى وتضعف مع سلطان رومية

أما العرب فقد كانوا قبل الاسلام قبائل تجتمعهم الانساب والاعصاب فلما أسلموا أصبح الاسلام جامعهم وأصبحت دولتهم اسلامية لا تنسب الى بلد معلوم . وانما كانت تسمى باسماء مؤسسيها أو أقرب اسلافهم قرابة من النبي كالعباسية والعلوية والمروانية

ونحوها . فلما تشعبت مملكتهم وحكمها غير العرب فرقوا بين فروعها بمواطن ملوكها أو لغاتهم كالترك والفرس والاكراد وغيرهم . وقد يسمونها باسماء مؤسسيها كالدولة النورية والصلاحية والعثمانية . وكانت الدولة الرومانية قد أخذت في الانحلال وضعفت جامعتها الوطنية فاصبح أهل اوربا دولاً صغيرة يتنازعون ويتخاصمون حتى اذا استفحل أمر المسلمين في الشرق وأراد الافرنج استخراج بيت المقدس من أيديهم لم يروا ما يجمع شتاتهم غير الدين . فاجتمعوا تحت لواء الصليب وحاربوا المسلمين . فلما انقضت الحروب الصليبية وأخذ الافرنج في نهضتهم الاخيرة واشتدت سواعدهم قام التنازع بين دولهم على الاستئثار بالنفوذ الاعظم في تلك القارة . فأصبح هم كل دولة منهم جمع كلمة اهلها لتقوى على الغلبة وكان الدين جامعتهم الكبرى كما تقدم فلم يكن لتلك الدول ما يجمع افراد كل منها على حدة غير الوطن او الجنس . فالفرنساويون جعلوا جامعتهم فرنسا او الشعب الفرنسي وكذلك الالمان والانكليز . فنشعبت الجامعة النصرانية في اوربا الى الفرنسيين والالمان والانكليز وغيرهم كما تشعبت الجامعة الاسلامية قبلها الى الفرس والترك والاكراد وغيرهم . واذا أمعنت النظر في تلك الجامعات رأيت أساسها في الحقيقة اللغة والدين . فان أهل كل مملكة من ممالك أوربا يتكلمون لغة واحدة هي لغة أهل الدولة ويغلب أن يضمهم مذهب واحد هو مذهب الحكومة

فالجامعة الوطنية لا معنى لها ان لم يكن لها دولة تؤيدها أو تدعو اليها للانتظام في خدمتها أو حمل السلاح في الدفاع عن استقلالها وان يكون لأهل الوطن حقوق على الدولة في مقابلة ذلك على أن تكون لغتهم لغتها . والسوريون - وبرايدهم هنا نصارى الشام - لا شأن لهم في ذلك لانهم من أهل المملكة العثمانية ولكنهم لا ينتظمون في جيشها ولا يحاربون عنها ولا يتكلمون لغتها فلا شأن لهم في الجامعة العثمانية والوطن السوري في غنى عنهم من هذا القبيل فما في بعدهم عنه خيانة أو تقصير . وخصوصاً لانهم هجروه مضطرين الناساً للرزق بعد أن نفدت حيلتهم في استداره هناك وسعياً في الراحة . فكان الوطن تخلى عنهم واخرجهم منه رغم ارادتهم على حد قول الشاعر :

واذا رأيت العبد يهرب ثم لم يطلب فقولى العبد منه هارب
وقول الآخر

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ان لا تفارقهم فالراحلون هم والسوريون لا ينقصهم شيء من أسباب الارتقاء ولا يقولون في قواهم ومواهبهم عن أرقى الأمم المتمدنة وقد رأيناهم يجارون الأفرنج حتى في بلادهم . فمنهم التجار في أكبر مدائن أوروبا وأميركا فضلاً عن كبار التجار في مصر فإن أكبر محل تجاري فيها للسوريين ومنهم كبار المحامين والأطباء والكتاب وأرباب المناصب وغيرها . وهم في كل ذلك مثال الاجتهاد وعنوان الاستقامة والاخلاص . وأما يمايون بضعف جامعته الوطنية ولاذنب لهم في ذلك للأسباب التي قدمناها . ناهيك بتعداد المذاهب والمشارب في بلادهم وقد زادهم الاغتراب تباعداً بما فطروا عليه من تكييف أدواقهم على أدواق الأمم التي يعيشون بينها وهي متباينة

فعلاقة السوريين بوطنهم علاقة حنين واثتلاف لا علاقة هجوم او دفاع ولا علاقة ملك وافتقار . وهم من أكثر الأمم حناناً إلى اوطانهم ولا يزالون يذكرون الوطن ويحنون اليه ولو طال زمن اغترابهم ويعلمون النفس في الرجوع اليه ويذلون جهدهم في ذلك . وقد تتسع تجارة أحدهم ويقتني العقار ويبني المنازل في دار غربته وهو مع ذلك يعد نفسه مقيماً إلى أجل اذا انقضى رحل إلى وطنه . فهو انما يرجو ذلك من حنينه ولكنه في الواقع لا يرجع - اخبرني صديق من وجهاء حاصبيا الذين نزلوا بيروت بعد نكبتهم الشهيرة سنة ١٨٦٠ ان والدته ما زالت إلى عهد غير بعيد اذا احتاجت إلى بعض آنية المطبخ اوصت النحاس أن يصنع اللواعين حلقاً ليعلقوها بها على البغال في اثناء رجوعهم إلى حاصبيا ووالده من الجهة الاخرى يوسع تجارته ويبني المنازل في بيروت ويثبت قدمه فيها . ونعرف جماعة من وجهاء السوريين في هذا القطر اذا توفي لهم عزيز دفعوه في حفرة موقفة على ان يتقلوا رفاته معهم إلى سوريا عند رجوعهم اليها . ونعرف آخرين بمصر وغيرها يرسلون ما يجتمع عندهم من الاموال إلى سوريا يتعاون العقار وينون المنازل هناك استعداداً للرجوع اليها متى فرغت حاجتهم من الاغتراب . ولكنهم قلما يرجعون واذا رجعوا يندران يبقى احد منهم هناك . واما اعقابهم في مهاجرهم فهم متجنسون بجنسية البلد الذي يولدون فيه ويشبون بين أهله اراد أهلهم او لم يريدوا

ولا حرج عليهم وهم انما يساقون إلى ذلك بطبيعة العمران كما يساق غيرهم من الشعوب الذين هاجروا إلى تلك البلاد . فالولايات المتحدة انما عمرت بشعوب هاجروا

اليها من انكلترا واسبانيا وفرنسا والمانيا وغيرها وقد تمازجوا واستبدلوا جنسياتهم الاصلية بالجنسية الاميركية وكل من نزع اليهم واقام بين ظهرانيهم وانخرط في جنسيتهم أصبح له ما لهم وعليه ما عليهم. فلا جناح على السوريين اذا آثروا البقاء في تلك البلاد العامرة واختلطوا بسكانها ومجنسوا بجنسيتها ووطنهم في غنى عنهم وهم في حاجة الى الوطن الجديد لما يجدونه فيه من ابواب الرزق واسباب الراحة فيستخدمون مواهبهم في العمل بنشاط واجتهاد ولكل مجتهد نصيب

على اني اودُّ من صميم القلب ان يخطيء حكمي وألتي باخواني وخلاني في الوطن بسعةٍ ورغدٍ وسكينةٍ فانها امنية كل محب لوطنه . والا فاني احنُّ الى ذلك الوطن حنين الولد الى والديه ولا احسب بعدي عنه خيانة او عقوقاً

بلادي وان جارت عليَّ عزيزةٌ واهلي وان جاروا عليَّ كرام
اما بقاء السوريين في دور هجرتهم مع المحافظة على لغتهم وآدابهم وعاداتهم كما هو حال الالمان في اميركا مثلاً فلا بأس به اذا استطاعوا اليه سبيلاً . ولكنهم اذا استطاعوا ذلك فالى اجل قصير وخصوصاً في اميركا لضعف الجامعة السورية بالنظر الى جامعة الاميركان والقوي يأكل الضعيف - سنة الله في خلقه

(١) السوريون في مصر

يربو السوري في بلاد ما برحت منذ القدم مهذاً للتجارة وبين قوم تتصل أرومتهم بالفينيقيين الذين هم اول من اخترق البحار ومال الى الاسفار بقصد الاتجار . ويعيش أبناء السواحل منهم بين ارباب التجارة والقائمين باعبائها ويخالطون فئات من الغريباء من جالية الافرنج وغيرهم ممن يأتونهم لترويج بضائهم . فيتدربون على ملكة البيع والشراء والاخذ والعطاء ويرون من طبيعة الاقليم عندهم ما يحسن لهم الاسفار وجوب الاقطار ثم لا يمر بهم يوم لا يسمعون فيه بمهاجرة عشرات منهم الى انحاء شتى من العالم طلباً للكسب وسعيّاً وراء الأثراء فيشبون على حب الاغتراب وطلب المعالي متمثلين بقول الشاعر

ترحل عن مكان فيه ضيم وخلّ الدار تنبي من بناها .

فانك واجدٌ أرضاً بارض ونفسك لا تجد نفساً سواها
ومن كانت منيته بارض فليس يموت في ارض سواها

وهم عاكفون من جهة اخرى على تعلم اللغات واتقانها فاذا اتم السوري دروسه أو ائقن تجارته ولم يتعاط عملاً يقعه عن السفر جعل دينه الاقلاع عما هو فيه من السعي وراء ما يكفيه مؤونة الحمول ورفع منزلته بين الاقران فيقدح زناد الفكرة في الجهة التي يختارها لمسيره فيفضل في الغالب الديار المصرية لانها ما برحت منذ تولاها المغفور له محمد علي باشا باباً واسعاً للتأجير فكان يتقاطر اليها السوريون يتعاطون التجارة التي كانت اذ ذاك واسعة لاتصالها بالسودان وبلاد العرب وفارس والهند من الشرق واوروبا واميركا من الغرب

ومما كان يرغب اليهم اثار هذا القطر السعيد على سواء ما كانوا يرتاحون اليه من رابطة اللغة وسيادة الامن وما كانوا يؤانسونه في اخوانهم المصريين من حسن الوفادة ورقة الجانب فان المصري عنوان اللطف ومعدن الرقة ولكنه يؤثر الإقامة على الاغتراب ومعاناة الاسفار لما خص الله به تربة بلاده من الحصب وبما اولاه من حسن الرعاية وتأيد الامن وتكاثر أسباب السكب السهل بعد ان دانت الديار المصرية للعائلة الحمديّة العلوية بما توخاه ولاتها من الرفق بالرعية وتسهيل أسباب معيشتهم فهم من أجل ذلك في أمن وسكينة لا تشوقهم الاسفار وهم لا يميلون الى استطلاع أحوال الامم لاستغنائهم عن ذلك بما يرد على بلادهم من اجناس الناس على اختلاف المذاهب والنزعات واللغات والازياء فيمر في أسواقهم كل يوم مئات بل الوف من الجالية القادمين من انحاء العالم وفيهم الاوربي والاميركي والشامي والتركي والفارسي والهندي والسوداني والحجازي والبنيني وغيرهم مما لا يحصى عد وكل منهم آمن مطمئن أقام أو رحل استوطن أو نزح

فاليف السوريون الإقامة بينهم يتعاطون اعمالهم التجارية حتى نبغ منهم جماعة اكتسبوا مالاً طائلاً بمجدهم واجتهادهم وهؤلاء هم في الغالب اغنياء السوريين في الديار المصرية . وهذا كان دأبهم الى الثلث الاخير من هذا القرن

أما في الازمنة الاخيرة فقلما يأتون هذه الديار للتأجير لتضيق هذا الباب بفتح ترعة السويس واتصال البحرين الابيض بالاحمر فتحولت مجاري التجارة الى اوربا

وتزاحم الافرنج على أبوابها واتفق تولي الخديوي الاسبق اسماعيل باشا خبب اليهم الاستخدام في مصالح الحكومة برواتب باهظة فمالوا بكليتهم الى هذه الوجهة وآثروا نيل الراتب وجعل ذلك يتمكن فيهم حتى كادوا يفقدون ملكة التجارة الافنة منهم فالسوري يأتي الديار المصرية الآن يلتمس خدمة في دوائر حكومتها غالباً وشتان بين مجيئه هذا ومجيء اسلافه من قبل وقد اصبح منذ رضي بالاستخدام خاملاً مغلول اليدين وقد قصرت باعه عن مباراة اسلافه ومعاصريه في اكتساب الاموال لانه قنع براتب يتناوله آخر الشهر ثم لا يكاد يدخل الشهر التالي الا وقد انفقته وربما استدان ما يعينه على نفقات باقي الشهر ولا فرق في ذلك بهظ الراتب او قل فانه منفقته لا محالة سواء كان مئة قرش او مئة جنيه او اكثر او اقل فان القاعدة العمومية انفاق الراتب قبل انقضاء الشهر

ونحن نعرف بين هؤلاء الموظفين كثيرين من اصحاب الرواتب الباهظة ولا يخطر لنا مما نعلمه من ابواب النفقة عندهم انهم يحتاجون الى اكثر من نصفها ولكننا لانراهم الا وقد انفقوها واستدانوا فوقها . وهذه حالة توجب قلقهم وتستدعي تيقظهم لانهم يقضون ائمن سني حياتهم لا يجمعون شيئاً يرتكنون اليه وقت الحاجة . ناهيك عما يتهددهم من استغناء الحكومة عنهم في زمن لا يعرفونه . فويل لمن يأتيه الامر بالرفق وهذه حالته فانه يصبح (الا فيما ندر) صفر اليدين مغلول التبعضتين كثير النفقات لما اعتاده من البذخ والاسراف والتأنق بالمأكل والمشرب والملبس وهو مع ذلك لا يستطيع عملاً تجارياً كان او صناعياً لتعوده معيشة الترف وقضاء معظم اوقاته اما في اماكن اللهو واما بمطالعة الروايات او باشياء اخرى تختلف عن ذلك كثيراً فيقع في حيرة وربما قاده اليأس الى المهاجرة الى حيث لا يعرفه احد هذا اذا لم يكن مقيداً بعائلة او شيء آخر يحمله على البقاء تحت هذه الاثقال ولا ادري ما تكون عاقبة امره اذا لم يتوفق الى خدمة في احدى مصالح الحكومة ولكن بعد ان يذوق مرارة العذاب ويعرض على نواجذ الندم وينسب الزمن الذي قضاه في ما لم يغن عنه شيئاً ويقسم ان يشير على كل من عرفه ويوصي اولاده واولاد اولاده ان يبتعدوا عن هذه الخدمة

على ان للاستخدام حسنات ولا سيما في مصالح الحكومة المصرية ولكنها لا توازي نذراً يسيراً من سيئاتها لان السورى انما يغادر وطنه طملاً للكسب الحسن

حتى يستوفي ما ينسبه مشاق الاسفار والابتعاد عن الاهل والخلان . والسوريون اهل مهارة في اساليب التجارة يشهد لهم بها العارفون ويؤيد صحتها تاريخ اسلافهم الاقدمين وموقع بلادهم ولنا من شواهد الاحوال اقوى دليل قالك العيان ودع عنك الخبر ها ان في القطر المصري من التجار عدداً عديداً وهم اخلاط من سائر الطوائف والممل ولا ترى السوري فيهم الا من امهرهم في ابواب التجارة واقدرهم على اكتساب الاموال

واذا نظرت الى السوريين المقيمين في هذا القطر وتأملت طرق معائشهم تتضح لك عاقبة كل من التجارة والاستخدام لانك ترى الذين جمعوا مالا منهم انما جمعوه بطريق التجارة ليس الا ولا يغرنك من حسنات الاستخدام نيل المناصب والرتب والالفاظ وانما العمدة فيما تذخره لعائلتك واولادك ولا ترى واحداً في كل مئة من المستخدمين من اذخر شيئاً يستحق الاعتبار وربما لو بحثت رآه انما اذخره من غير باب الاستخدام

اما اذا احسن المستخدم التصرف في نفقاته واقتصد في طرق معاشه حتى يذخر شيئاً من راتبه مع ما يستحقه من المكافأة او المعاش في آخر ايامه فيكون قد اصاب الغايتين وتمتع بالحسنتين لان في خدمة الحكومة شرفاً واهية تتناول اليهما الاعناق وتشد اليهما الرحال ويكون من الجهة الثانية قد قام بخدمة هي من اجل الخدمات العمومية لمصلحة بني الانسان . ولكننا نبغض هذه الخدمة الى من لا يعرفون كيف يقومون بها حتى تقوم بهم واذا داموا لها فانها لا تدوم لهم

وما يصح على السوريين من هذه الخيثة يصح على المصريين وان يكن هؤلاء احق بتولي تلك الخدمات وأجدر بالتمتع بمصالح البلاد الا اننا نرى من تكاتفهم على الخدمة وتعلق آمالهم بها وانقطاعهم اليها ما لا تحسن عاقبته فنصح لهم أن يوجهوا انتباههم الى باب من ابواب الثروة قد اختصت به الديار المصرية وقل أن يضارعها فيه غيرها من البلاد ألا وهو باب الزراعة فان وادي النيل واد خصب كثير التناج بما يحمله اليه النيل المبارك من السماد بفيضانه كل سنة فاذا اعتمنى الآباء في توجيه افكار اولادهم وترغيبهم في الزراعة وأدخلوهم في المدرسة الزراعية فان لهم مستقبلاً حسناً يعود على سائر القطر بالنفع الجزيل

العرب والترك^(١)

كيف التقت الامتان

لم يكن بين العرب والترك علاقة قبل الاسلام وكان كلاهما أهل بادية وسطو وغزو . ولم يلتقيا قط لما بينهما من الابعاد الشاسعة . فالعرب كانوا في جزيرتهم والترك في جبال الالطاي أو جبال الذهب في اواسط آسيا بين الهند والصين وسيبيريا وبينهم وبين جزيرة العرب مفاوز واودية وجبال . وهم يختلفون عن العرب في تكلوبهم واخلاقهم وآدابهم ولغتهم اختلافاً كبيراً . ويستحيل التفاهم بينهم لتباعد اللغة التركية الاصلية في تركيبها والفاظها عن اللسان العربي يوم لم يكن فيها كلمة عربية ولا في اللغة العربية كلمة تركية فضلاً عن اختلاف اسلوب التعبير

فلما قام العرب بالاسلام وأخذوا ينتشرون بالفتح أو غيره وطشت حوافر خيولهم بلاد الترك وهم يعبرون عنها بما وراء النهر ففتحوا بخارا وسمرقند وفرغانة واشروسنة وغيرها من تركستان في أيام بني أمية . وكان أهل تلك البلاد قبائل يتولاهم امرأاء أو ملوك يعرفون باسم خاقان أو اخشيد أو غيرها . وكانوا لا يزالون على عبادة الاوثان فدخلوهم في حوزة المسلمين بعث على احتكاكهم بالعالم المتمدن في ذلك العهد فاعتنقوا الاسلام وظهرت مواهبهم ونبغ منهم القواد المعظام وانشأوا دولاً حكمت العالم الاسلامي قروناً متواليه . وتقسم علاقة الاتراك بالعرب في الاسلام الى دورين الاول دور الخدمة والثاني دور السيادة . ونعني بدور الخدمة دخول الترك في خدمة العرب في صدر الاسلام . وبدور السيادة سيادة الترك على العرب بعد ذلك

سيادة العرب في صدر الاسلام

فطر العرب على الانفة والاستقلال فلما قاموا بالاسلام وفتحوا العالم زادوا عظمة واعتقدوا الفضل في انفسهم على سائر الناس وانهم من غير طينتهم . واصبح العربي يعد نفسه سيداً على غير العربي ويرى انه خلق للسيادة وسواه لخدمة . ولذلك لم يكن العرب يشتغلون في صدر الاسلام بغير السياسة والحكومة وتركوا سائر الاعمال لسواهم . ولم يكن ينازعهم في تلك السيادة أحد فكانوا يزددون افتخاراً وخصوصاً على المسلمين غير العرب ويسمونهم الموالي يريدون انهم كانوا عبيداً لهم واعتقوهم -

وهم غير أهل الذمة . ويدخل في جملة الموالي الفرس والترك وغيرهم من المسلمين غير العرب . وبلغ من ترفعهم عنهم أنهم كانوا يكرهون أن يصلوا خلف المولى وإذا صلوا قالوا اتنا تفعل ذلك تواضعاً لله . وكانوا لا يكتنونهم بالكفى ولا يدعونهم الا بالاسماء والالقب ولا يمشون في الصف معهم ولا يتقدمونهم في المواكب الى غير ذلك مما تراه مفصلاً في تاريخ القمن الاسلامي

وكان العرب سيكروا بخمر السيادة والنصر لارتقائهم من رعاية الابل الى سياسة الممالك في بضعة عشر عاماً فتوهوا في فطرتهم ما ليس في سواهم من المناقب والسجاي كما توههم الرومان قباهم وكما يتوهم أهل هذا العصر في بعض الامم السائدة فيعتقدون امتيازها باصل فطرتها عن سائر الامم - وكان فضل العرب على سواهم يعد قضية مسالة لا تحتاج الى دليل . فلما بالغ بنو امية في الاستخفاف بغير العرب بعد ان ذهبت دهشة النبوة أخذ هولاء في التذمر ونصروا آل علي وغيرهم من أعداء الامويين ونشأت طائفة لا تعترف بفضل العرب تعرف بالشعوبية لم تظهر الا في الدولة العباسية بعد ان انحط شأن العرب

وبدأ انحطاط شأن العرب على الخصوص بعد الاختلاف الذي وقع بين الامين والمأمون اذ استنصر المأمون الفرس على العرب رجال اخيه وكانت الغلبة للمأمون . فانحط شأن العرب وصار الخلفاء يعولون بعده على الاستعانة بالاعاجم وخصوصاً الأتراك واخذوا يجندونهم

خدمة الأتراك في الجند الاسلامي

يبدأ دور الخدمة منذ فتحت تركستان على عهد الامويين فكان القواد اذا فتحوا بلداً حملوا اسراهم وسبائهم الى اهلهم أو باعوه لمن يحلمهم الى الاطراف فيباعون بيع الرقيق . ولما افضت الدولة الى العباسيين كانت تركستان تؤدي الجزية والحراج فكان العمال يحملون في جملة الجزية اولاداً من أهل بادية تلك البلاد يبيعونهم للرق وهم في الغالب من السبي أو الاسرى على جاري العادة في تلك الاعصر . وقد يختص الامراء باحسنهم فيخدمون في دورهم مع غيرهم من ارقاء الامم الاخرى ويعرفون بالممالك وكان الأتراك يمتازون عن سائر الامم التي دانت للمسلمين بقوة البدن والشجاعة والمهارة في رمي النشاب والصبر على الاسفار الشاقة فوق ظهور الخيل والثبات في ساحة الحرب فاتخذ منهم الخلفاء بالتدريج جنداً واول من استخدمهم في الجندية من

الخلفاء المنصور العباسي ولكنهم كانوا شرذمة صغيرة لا شأن لها في الدولة وإنما كان الشأن الأكبر يومئذ للخراسانيين (الفرس) والعرب . ولما اشتد التنافس بين العرب والفرس في أيام الرشيد وذهبت سطوة العرب بذهاب دولة الامين وتسلبت الفرس انصار المأمون واخوانه واستبدوا في الدولة كانت الحضارة قد اضررت بالمسلمين واذهبت منهم قوة التغلب والفتح . ففكر المعتصم اخو المأمون في ذلك قبل ان تفضي الخلافة اليه وكانت امه تركية وفيه كثير من طبائع الاتراك التي ذكرناها مع الميل اليهم لانهم اخواله كما كان يميل المأمون الى الفرس

وشاهد المعتصم جرأة الفرس وتطاولهم بعد قتل اخيه الامين فاصبح يخافهم على نفسه ولم يكن له ثقة بالعرب وقد ذهبت عصبيتهم واخذوا الى الحضارة والترف وانكسرت شوكتهم فرأى ان يتقوى بالأتراك وهم لا يزالون الى ذلك العهد اهل بداءة وبطش مع الجرأة على الحرب والصبر على شظف العيش . فجعل يتخير منهم الاشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم في العراق او يبعث في طلبهم من تركستان وغيرها فاجتمع عنده عدة آلاف وفيهم جمال وصحة فالبسهم اثواب الدياج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وميزهم بالزي عن سائر الجنود وبذل العناية في تدريب جنده هذا وبني لهم مدينة سامراء واطلق لهم الاعطية فاعتنوا الاسلام وتحضروا ولم يقتصر على اقتناء الممالك لكنهم رغب كثيرين من الامراء واولاد الملوك في القدوم اليه فاشتد ساعد الاتراك وقويت شوكتهم وغلبوا على امور الدولة خصوصاً بعد ان انقذوا المملكة من بابك الخرمي وفتحوا عمورية في عهد المعتصم . فبعد ان كان النفوذ للوزراء الفرس صار الى الاتراك واصبحت ازمة الدولة العباسية بعد المعتصم في ايديهم ولا سيما بعد ان قام المتوكل لمقاومة الشيعة فزاد في تقديم الاتراك لانهم كانوا عوناً على ذلك . ثم اغراهم ابنه المنتصر (او هم أغروه) على قتله فقتلوه وكان ذلك أول جرأتهم على الخلفاء . وولوا المنتصر بعده ولم تطل مدة حكمه اكثر من بضعة اشهر فمات وضميره يخزه . وتولى بعده المستعين بالله سنة ٢٤٨ هـ ثم المعتز بالله سنة ٢٥١ هـ وقد استفحل امر الاتراك استفحالاً عظيماً - وما يحكي عن استبدادهم في الخلفاء انه لما تولى المعتز قعد خواصه وأحضروا المنجمين وقالوا لهم « انظروا كم يعيش الخليفة وكـم يبقى في الخلافة » وكان في المجلس بعض الظرفاء فقال « انا اعرف من هؤلاء بمقدار عمره

وخلافته « فقالوا له « فكيف تقول انه يعيش وكيف يملك » قال « مهما أراد الأتراك » فلم يبق في المجلس الا من ضحك .

وقد قتلوا المعتز هذا شر قتلة فانهم جرّوه برجله الى باب الحجره وضربوه بالدابيس وخرقوا قبعه في الشمس بالدار فكان يرفع رجلاً ويضع اخرى لشدة الحر وبعضهم ياطمه يده . والمستكفي سملوا عينيه ثم حبسوه حتى مات في الحبس وبلغ من فقر القاهر بالله انهم حبسوه وهو ملتف بقطن جبة وفي رجله قبقاب خشب - فلا غرو ان اصبحت الخلفاء آلة في ايدي الأتراك اذا تنازعوا على السلطة كان الخليفة مع الحزب الغالب وبعد ان كان القواد يحلفون للخليفة بالطاعة صار الخليفة يحلف لهم

فهذا وامثاله انحط شأن العرب وقيل عنهم « لا يفلح العربي الا اذا كان معه نبي ينصره » واشتد اذى الأتراك فندرجوا من الاستبداد في دور الخلفاء الى انشاء الدول فاقبلوا من الخدمة في دول العرب الى السيادة على العرب وغير العرب

سيادة الأتراك في القرون الوسطى

بدأت سيادة الأتراك بأثناء الامارات في ظل العباسيين واقدم اماراتهم الطولونية فالإيلكية فالأشيدية فالغزنوية ثم انشأوا الدول الكبرى واولها الدولة السلجوقية وفروعها في فارس وتركستان واسيا الصغرى والشام والعراق وغيرها ثم دول السلاطين المماليك في مصر والشام واخيراً الدولة العثمانية وبها يدخل تاريخ الاسلام في دور جديد . لانها انت والعالم الاسلامي قد تمزق وتضعف بما اتتبه من صدمات المغول وغيرهم فجاءت هذه الدولة في ابان الحاجة اليها فافتتحت القسطنطينية وقديس المسلمون من فتحها بعد أن حاولوه مراراً . وحارب العثمانيون أعظم ملوك أوروبا وطاردهم الى بلاد المجر وحاصروا فينا عاصمة النمسا وأخذوا الجزية من الارشيدوق فرديناند واكتسحوا البحر الابيض الى شواطئ اسبانيا فارتعدت أوروبا خوفاً منهم . وفتحوا ناشرق الى العراق ثم ساروا جنوباً غرباً حتى فتحوا الشام وصر فيها بقية الدولة العباسية فتنازل العباسيون لهم عن الخلافة فامتدت مملكتهم في أيام السلطان سليمان (سنة ٩٢٦ - ٩٧٤ هـ) من بودابست على ضفاف الطونة الى اصوان على ضفاف النيل ومن الفرات بالعراق الى بوغاز جبل طارق . فاجتمع العالم الاسلامي الغربي تحت جناح الدولة العثمانية ولا يزال . وكان اجتماع الخلافة

والسلطة فيها سبباً لطول بقائها أكثر مما تقدمها من الدول الإسلامية حتى العباسيين مع طول مدة ملكهم لأن سلطتهم أصبحت بعد القرن الثالث من إنشاء دولتهم اسماً بلا رسم. والدولة العثمانية أول دولة إسلامية غير عربية جمعت بين الخلافة والسلطة ووافقها المسلمون عليه

أما العنصر العربي في أثناء ذلك فقد كان ضعيفاً إلا في الاندلس الى زمن محدود. وحاول النهوض في أثناء الدولة الفاطمية بمصر فلم يكده نهض حتى غلب عليه الاكراد فالأتراك فسقط ولم يبق للعرب قائمة في الدولة الإسلامية من ذلك الحين - إلا ما أبدته بعض القبائل من النهوض في بلاد العرب أو غيرها بدعوة سياسية أو دينية كقيام الوهابية في نجد والدرأويش في السودان . ولما عزم محمد علي باشا مؤسس المائلة الحديثة على إنشاء دولة إسلامية كبرى في أوائل القرن التاسع عشر أراد أن يستعين على أنشائها بعصبة إسلامية وأقوى العصبيات بمصر يومئذ الترك والعرب وكانت العصبة التركية للدولة العثمانية فاختار عصبة العرب فخامت الآمال حوله وخصوصاً بعد حربه الوهابية واجتماعه بشريف مكة وغيره من رؤساء القبائل . فاحيا العنصر العربي ونشط العصبة العربية بما أنشأه من المدارس والمطابع أو نشره من الكتب . فكان للعرب نهضة قلما أفادت في غرضه السياسي لما حال دون مطامعه من أغراض دول الافرنج في المملكة الإسلامية . ولكنها أفادت أهل الشرق من العرب فائدة أدبية علمية بتمهيد السبيل للنهضة التي نحن فيها

القسم الخامس

في اللغة والادب والصحافة

الاكاديمية العربية^(١)

اللغة كائن حي خاضع لناموس النشوء والارتقاء تنمو بالدثور والتجدد والتحول والتولد على ما تقتضيه الاحوال الاجتماعية والعلمية والسياسية . ولغة العربية تاريخ يؤيد هذه الحقيقة . ولو توفرت لنا اسباب البحث لرأينا لكل لفظ تاريخاً مرّ به في ادوار يسر وعسر ونقلب بين السعادة والشقاء . وان الوفاً من الالفاظ ماتت واندثرت وقامت الوف اخرى مقامها . ويغلب ان يصيبها ذلك على اثر الانقلابات الاجتماعية أو العلمية أو غيرها فيصيب اللغة تغير يلائم احوال المتكلمين بها . واهم التغيرات التي اصاب لغتنا في عصر التاريخ وقع في صدر الاسلام على اثر الانقلاب الديني بمحدث المعاني الدينية والاجتماعية . يليه تغير رافق الانقلاب السياسي باقضاء الدولة الاسلامية والحضارة الاسلامية في انحاء العالم العربي . وتغير اقتضاه نقل العلوم من اللغات الاعجمية بما فيها من المصطلحات العلمية . غير ما استلزمه اختلاط العرب بالأمم الاخرى من اقتباس الالفاظ والمعاني مما يطول شرحه

وانما نريد الآن التعبير الاخير الذي اقتضاه دخولنا في المدنية الحديثة اقتداء بالافرنج . فنقلنا علومهم وفنونهم وقدناهم في كثير من آدابهم الاجتماعية وأحوالهم السياسية والادارية فاقبسنا معاني كثيرة لا نعرف لها الفاظاً عربية تؤيدها . فنهج كل كاتب منهجاً في النقل أو التعريب فاختر بعضنا للمعنى الحديث لفظاً يرى انه يؤدي الغرض المطلوب واختار غيره غيره . فاختلقت مختاراتنا وتضاربت حتى أصبح للمعنى الواحد عدة الفاظ على ما تراءى للناقلين . فبعضهم وضع لفظاً من عند نفسه والبعض الآخر استخرجه من كتب العرب القدماء ومنهم من استبقى اللفظ الاعجمي على

(١) عن الهلال سنة ٢١ صحيفة ١٠١

حاله . فادى ذلك الى فوضى الانشاء وتضليل القراء واصبحت اللغة في حاجة الى من ينظر في أمرها ويتلافى الخطر الذي يهددها . واليك أمثلة من بواعث تلك الحاجة

الالفاظ العلمية : يدخل فيها مصطلحات العلوم الطبيعية وما تفرع منها على اختلاف مواضعها مما حدث أو اتسع في هذا العصر كالطبيعات والكيمياء والتاريخ الطبي والحيولوجيا والفيسيولوجيا . وعلوم النفس والاجتماع والاقتصاد السياسي والفلسفة الادبية والعقلية وغيرها . فان لكل من هذه العلوم مصطلحات لفظية لمعان حدث في هذا العصر لم يكن العرب يعرفونها فلم يكن لها الفاظ في لسانهم . أو ربما كان لها الفاظ أهممت بتوالي الاجيال فلا فصل بينها الا بالبحث والتنقيب . وقد اشتغل المترجمون في النهضة الاولى على أيام محمد علي في التنقيب عنها فاستخرجوا كثيراً منها أدخلوه في مترجماتهم . وفعل مثل ذلك أيضاً المشتغلون بنقل هذه العلوم في المدرسة السككية الاميركية في بيروت . ولكنهم اختلفوا في كثير من المصطلحات التي وضعوها للمعاني المتشابهة فاختار هؤلاء لفظاً لهذا المعنى واختار اولئك غيره وكلاهما اتصل اليه بالاجتهاد فن مصطلحات علم النبات مثلاً :

الاصطلاح المصري	الاصطلاح السوري	الاصطلاح المصري	الاصطلاح السوري
الفصيلة الحليمية	الصيوانية	الرقص السنجي	الخوريا
الغاب	القصب	حنف القدم	قدم فداء
توت	كبش	مغض معوي	قولنج
زر	برعم	الجسم المندمل	الجسم الصلب
عضو التذكير	السداة	عين السمكة	مسار
الريشة	سويق الجنين	داء الحرقفة	مرض الورك
الشيكوريا	الهندباء	لحمين	كرياتين
جذر كروي	قرم	حمى الدنج	ابو الركب
لفافة ظرفية	كوبس	غروبين	املسين
ذئب	رجيلة أو زند	سيانوز	الزوارق
خيط عضو التأنيت	قلم	بشرة مخاطية	ابثيلوم
الشوكران	الكونيوم	طفح جلدي	نفاط
خوخ	دراقن	هريس	قوبا

الاصطلاح المصري	الاصطلاح السوري	الاصطلاح المصري	الاصطلاح السوري
عضو التأنيت	مدقة	مدة التفريخ	مدة الحضانة
برقوق	خوخ	الم عصبي	نقر الحيا
طلع	بلن	تتانة الفم	بخر
توت أرضي	كبش القش	فقاعة	مجل
عرق الذهب	ايبكك	التهاب رئوي	ذات الرئة
القرنفل العطري	كبش قرنفل	ضربة الشمس	رعن
ليفين نباتي	كلون	ومن مصطلحات الطبيعيات وغيرها	
ومن المصطلحات الطبية		الجير	السكس
التسمم الكحولي	هذيان السكرى	القوة المركزية	قوة التباعد عن المركز
الذباب الهندي	الذراح	حلزوني	لوبي
المنستر	الكستور يوم	عتلة	محل
من القيطس	من الغاطوس	زيفان النور	استقطاب النور

وقس على ذلك سائر المصطلحات التي نقلوها يومئذ . ولا يخفى ما يترتب على هذا الاختلاف من الالتباس . واعتبر ذلك أيضاً في الالفاظ الادارية وفي جملتها مصطلحات الحكومة فان بين مصطلحات الحكومة المصرية والسورية بوناً عظيماً . وأمرها مشهور لا يحتاج الى بيان . وهكذا يقال في العلوم الحادثة لهذا العهد وقد أخذ الكتاب في نقلها الى العربية كعلم الاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع وعلم النفس (البسيكولوجيا) ونحوها . فهذه لا بد من اختلاف الناقلين في انتقاء الالفاظ المؤدية لتلك المعاني . وبعضها يحتاج الى اعمال الفكرة قبل تعريبه مثل قولهم من مصطلحات علم النفس Subconscious و Subjective و Objective و Association وقولهم

من اصطلاح علم الاجتماع Genetic و Telic و Institution و Régime

المصطلحات السياسية : وناهيك بالمصطلحات السياسية والصحافية التي كثيراً ما يلتبس فيها النقل لعدم الاتفاق على لفظ معين لها . فلم تتفق حتى الآن على لفظ يميز بين Congress و Conference و بين Entente و Alliance و بين Convention و Treaty و بين Souverain و Suzerain و بين Colonie و Dependance

وبين Marine و Sailor وقس على ذلك مصطلحات الجندية البرية والبحرية كقولهم Yeomanry و Militia واسماء السفن الحربية كالطرادة والنسافة والمدمرة ونحوها فان كثيراً منها لا يزال ملتبساً . ومن هذا القليل المصطلحات المالية والادارية كقولهم Deposit وCrédit وExchange ونحوها مما لم تتفق على الفاظ عربية تؤديه إلا التباس . وهكذا في سائر المصطلحات العصرية

الالفاظ المولدة : وهناك طائفة من الالفاظ العربية المولدة اقتضاها سير التمدن الحديث ولأنجد بدلا عنها في اللغة الفصحى مما استعمله العرب قديماً ولأنجدها في كتب اللغة . مثال ذلك لفظ « معجم » بمعنى قاموس فان أصل معناها « النقط بالسواد » ومنه حروف المعجم وهي الحروف المقطعة التي تختص أكثرها بالنقط من بين حروف سائر الالم . فصار معناها بالاستعمال الكتاب المرتبة مواد على أحرف الهجاء مثل لفظة « قاموس » وهذه أيضاً ليست أصلية لهذا المعنى فلها وضعت في الاصل اسماً لمعجم الفيروزابادي . وأصل معناها البحر أو أبعد موضع فيه سمي الفيروزابادي كتابه به لحيط اتساعة ثم أطلق على كل معجم . وكان العرب يسمون القواميس « كتب اللغة » . وقولهم « الوظيفة » بمعنى المنصب فان هذا اللفظ ليس له هذا المعنى في القاموس . ولكن جماعة من خيرة الكتاب استخدموه له وفي جملتهم ابن خلدون والمقرئزي . وقس على ذلك طائفة كبيرة من الالفاظ العربية يستعملها الكتاب في اثناء التمدن الاسلامي لمعان جديدة لم يذكرها القاموس فهذه ينبغي ضبطها واعتبارها مولدة كما فعل علماء اللغة بغيرها من نوعها

فاللغة بهذا الاعتبار في حال من الاضطراب والتشويش لا تخرج منها الا اذا بادرنا الى اصلاحها . وهذا العمل لا يستطيعه فردٌ واذا استطاعه فلا يرجي أن يتبعه الكتاب في ما يراه او يذهب اليه . لان كل كاتب مقتون بينات افكاره فلا بد من جمعية تتولى هذا العمل . وقد شعر أدباء اللغة بهذه الحاجة فالفوا الجمعيات لهذا الغرض منها المجمع العلمي الشرقي في بيروت والمجمع اللغوي العربي بمصر منذ بضع وعشرين سنة . واهتم نادي دار العلوم بهذا الموضوع أيضاً منذ بضع سنوات فقرر الفاظاً ومصطلحات كثيرة لكنها لم تشع على افلام الكتاب اذ لم يكن لها صفة رسمية . فلا بد من تأليف جمعية تكون لها صفة رسمية وهذا ما أردنا اقتراحه على نظارة المعارف المصرية

نظارة المعارف

أما اختصاصنا بنظارة المعارف المصرية بهذا الاقتراح فسيببه أن مصر كما قلنا مراراً هي مركز العالم العربي وما برحت ملجأ اللغة العربية من قرون متباعدة وهي التي حافظت على الآداب العربية في أثناء عصر الانحطاط . وهي التي بدأت بالنهضة العربية في أثناء هذا التمدن . واقتدت بها البلاد الأخرى في الشام وغيرها . وهي اليوم أرقى البلاد العربية مدنية وصحافة وأدباً . فبعد أن ضربت الذلة على هذه اللغة أصبحت مصر ملجأها الوحيد للخروج من هذا المأزق ولا سيما بعد أن أخذ سعادة ناظر المعارف في إحياء الآداب العربية . وهو أول من تصدى لذلك من وزراء هذه النظارة كما يتضح لك مما يلي :-

توالى على نظارة المعارف بضعة عشر ناظراً أولهم مختار بك أحد المتخرجين في أوروبا من زمن محمد علي تولاها سنة ١٨٣٦ وآخرهم لهذا العهد حشمت باشا . فالنظارة تأسست منذ ٧٦ سنة تقلبت في إثنائها على أربعة ادوار :

الدور الاول : يبدأ من ولاية محمد علي برئاسة مختار بك المذكور وينتهي في زمن الخديوي اسماعيل . وكانت تلك النظارة تعرف في أثناء ذلك الدور باسم « ديوان المدارس » وكان أعضاؤه من أبناء المصريين والارمن الذين تخرجوا في مدرسة باريس بأمر الحكومة المصرية وبعضهم من الفرنسيين . وكان الغرض الاول من انشاء هذا الديوان التدريس الحربي لآخراج ضباط مصريين . ثم اتسعت دائرة التعليم فانشأوا المدارس المختلفة من ابتدائية وعالية للضباط والموسيقى والمشاة والفرسان والطبجية والبحرية والطب والهندسة والكيمياء والزراعة والالسن وغيرها . وكانت قاعدة التدريس فيها اللغة العربية فنبغ العلماء والاطباء والفوا في كل علم وفن باللغة العربية ولا تزال أمثلة من مؤلفاتهم في المكتبة الخديوية حتى الآن

الدور الثاني : يبدأ بنهضة التعليم الثانية في زمن اسماعيل وينتهي بالاحتلال . وفيه تشكل مجلس النظار سنة ١٨٧٧ على الشكل المعروف الآن . وتحددت النظارات وفي جملتها « نظارة المعارف » بدلاً من « ديوان المدارس » . وكان اسماعيل رغاباً في انشاء المدارس فأكثر منها على يد وزيره علي باشا مبارك واتسعت دائرة العلوم والفنون . ثم افضت الولاية الى المغفور له توفيق باشا وفي أيامه حدثت الثورة العراقية

التي أفضت الى الاحتلال الانكليزي

الدور الثالث : يبدأ بالاحتلال وينتهي بوزارة حشمت باشا الوزير الحالي . وحدث في اثناء هذا الدور تغيرات هامة في التدريس وطرق التعليم أهمها ان التعليم تحول فيها من اللغة العربية الى اللغات الافرنجية الانكليزية والفرنساوية . وانصرفت العناية من التعليم العالي الى الابتدائي بانشاء الكتاتيب ونحوها . واقفلت الارشاليات الى اوربا وابطل التعليم المجاني وقتل العناية بتعليم آداب اللغة العربية . فكان لذلك وقع سيء لدى الامة وارتفعت أصوات الجرائد والمجلات تطلب ملافاة ذلك . فاقترحت الجمعية العمومية على الحكومة سنة ١٩٠٧ أن تجعل تعليم العلوم في مدارسها باللغة العربية فاجابها ناظر المعارف يومئذ سعد باشا زغلول يعتذر بمذد ذلك ويبين أفضلية التعليم باللغات الاجنبية بالنظر الى حالة مصر . لكنه وعد أن يبذل جهده في اجابة طلبهم . وقد فعل لكنه لم يستطع شيئاً كثيراً

الدور الرابع : وهو الذي نحن فيه يبدأ باسناد هذه النظارة الى حشمت باشا . ويمتاز هذا الدور عما تقدمه بامور أهمها :

- ١ أنه جعل التعليم في المدارس المصرية بالعربية في مدرسة الزراعة بالحيزة وفي مدرسة مشتهر المتوسطة التي انشأها . ومدرستي التجارة والحاسبة . فضلاً عن المدارس الابتدائية والثانوية . فان التعليم فيها أصبح كله باللغة العربية
- ٢ أنه أعاد قلم الترجمة لتعريب الكتب كما كان في زمن المغفور له محمد علي باشا وقد ترجم في السنتين الماضيتين ١٢ كتاباً في فنون مختلفة
- ٣ أدخل علوماً جديدة فنية تلائم حال الجمهور من حيث اعمالهم اليومية وارتزاقهم ومن حيث ترقية أخلاقهم وآدابهم
- ٤ اخذ في احياء آداب اللغة العربية . وهذا لم يتصد له وزير قبله فقرّر طبع بعض الكتب العربية النادرة وأخذ في اصلاح المكتبة الخديوية . وكثيراً ما سمعناه يشكو من حال اللغة العربية واحتياجها الى الاصلاح أو الضبط ولذلك تجاسرنا على عرض هذا الاقتراح عليه

الاقتراح

نقترح على سعادته انشاء مجمع علمي او اكاذمية تتولى هذا الاصلاح وغيره مما

يسهل عليه الطريق الذي يسعى فيه لحياء الآداب العربية . كما فعلت الدول المتمدنة في أوروبا منذ أجيال . فما من دولة متمدنة الا ولها أكاديمية لهذا الغرض أشهرها الأكاديمية الفرنسية التي أنشأها وزير لويس الرابع عشر في القرن السابع عشر . والأكاديمية الانكليزية نعتي جمعية الاداب الملوكية أنشأها الملك جورج الرابع سنة ١٨٢٥ وقد الفوا منها سنة ١٩١٠ لجنة سموها اللجنة الأكاديمية على نسق الأكاديمية الفرنسية . الغرض منها النظر في ما تحتاج اليه اللغة الانكليزية وآدابها من الاصلاح في الانشاء والالفاظ والاخذ بناصر الادباء وتنشيطهم وتقدير الجوائز لمستحقي المكافأة منهم وغير ذلك . وهكذا يقال في سائر العالم المتمدن

فنتفكر انشاء مجمع أو جمعية أو أكاديمية الغرض منها اصلاح اللغة العربية وضبط ما دخلها أو بدخلها وما تولد أو يتولد فيها من الالفاظ الحديثة على شكل يع استعماله في العالم العربي . لانا نعلم بالاختبار الطويل ان كتاب اللغة العربية في أنحاء العالم كله حتى في فارس والهند وغيرها يشعرون بهذه الحاجة . ولذلك فالذي نراه ان تتألف هذه الأكاديمية من أهل الادب على اختلاف طبقاتهم . بحيث يكون فيها العالم اللغوي والكتاب الصحفي والباحث الطبيعى والطبيب والمؤرخ والشاعر وعارفو اللغات الشرقية وامهات اللغات الافرنجية ولا سيما اليونانية واللاتينية . وان يكون لهذه الجمعية أعضاء مراسلون في أطراف العالم العربي يشتركون في هذا العمل . فيعرضون ما يرون الحاجة ماسة الى اصلاحه او ادخاله او تعريبه من الالفاظ أو المعاني أو نحت الالفاظ الجديدة التي يصعب تصريفها مثل تلفراف وتلفون فنشتق لها أفعالاً من لفظها يسهل استعمالها ونحو ذلك

والأكاديمية تنظر في ما يعرض عليها من الالفاظ او الاوضاع وتعين اللجان اللازمة لدرسها وتقريرها . ثم تعرض ذلك على الجمعية فما أقرت على استعماله بالاكثرية يعلن في الصحف ويدون في الكتب المدرسية بمصر . وينشر في سائر العالم العربي بواسطة الاعضاء المراسلين . ثم تشتغل بوضع معجم على النسق الحديث بحذف الالفاظ المهملة الضخمة التي حكم عليها ناموس الارتقاء بالدثور وازافة الالفاظ الجديدة من العرب او المنقول او المولدة مما تكون الجمعية قد قررتة . ورجع في مواد القاموس الى اصولها التحليلية فتبين أصل كل مادة من أي لغة هو . وتتسع أعمال هذه الأكاديمية مع الزمان بحيث يكون لها ما للاكاديميات الافرنجية من تقرير الجوائز

المالية او الفخرية او الاخذ بناصر الادباء في نشر آثارهم او غير ذلك مما لا يمكن تعيينه الآن . اذ من العبث أن نطيل الكلام في موضوع لا يزال في حيز الفكر . فاذا حاز هذا الاقتراح قبولاً عدنا اليه وتوسمنا في درسه . ويحسن بالادباء الخوض فيه لاستجلائه بالبحث والمناقشة والله ولي الامر

حرية الصحافة^(١)

في انكلترا و، مصر

١ — الحرية على الاجمال

تقسم الحرية في نظر علماء الاخلاق الى حرية الفكر وحرية القول وحرية العمل . وقد يستغرب بعض أهل هذا الجيل قولنا « حرية الفكر » وكيف لا يكون الانسان حراً في فكر أي ان يفكر كما يشاء اذا كان لا يقدر أن يقول او يفعل كما يشاء . ولكن أهل الاحيال الوسطى ومن كان على شاكلةهم من المفيعدين بالعادات او الاعتقادات اوئسك وأمثالهم لا يفكرون كما يريدون لانهم تعودوا الطاعة المطلقة والتسليم الاعمى لرؤسائهم أو أساتذتهم أو كهنتهم فلا يصدقون غير ما غرسوه في أذهانهم ولو كان مخالفاً لاحكام عقولهم وهو ما يعبر عنه بالنعصب الاعمى . ولولا ذلك لرأيت هداية الناس الى الصواب هينة وليكنها صعبة وأصعبها ما كان من قبيل الاعتقاد الديني فان الانسان حريص على معتقده . مثل حرصه على كرامة نفسه وقد يرى الخطأ في جانبه فيغالط نفسه ويقيد فكره دفاعاً عن معتقده الذي اصبح جزءاً من حياته ولا يزال مكابراً حتى تجرد السيوف وتسيل الدماء — وكما سفكت في هذا السبيل دماء أهل الاحيال المظلمة . واذا نظرنا في سبب الخصام بفكر حر رأيناهم كانوا يختصمون على الاوهام

وقد يصل تقييد الفكر الى المكابرة بالحق الواضح مما يقع تحت الحواس الظاهرة كالقول مثلاً بدوران الارض فقد اضطهد صاحب هذا الرأي حتى اتهم بالكفر قبل شيوع مذهبه — ذلك كان شأن الامم من قديم الزمان وكانت افكارهم صدى افكار

قادتهم أو زعمائهم أو أساتذتهم فيدفعون كل فكر يخطر لهم اذا لم يوافق ما غرس في أذهانهم

ويمتاز عصر التمدن الحديث عن سائر الاعصر الماضية بشيوع الحرية فكراً وقولاً وفعلاً . فأخذ الناس منذ بضعة قرون يطلقون العنان لافكارهم ولو خالفت ما قبلها وهم لا يخشون بأساً ولا رقيباً . اما القول والفعل فلا يتيسر اطلاق الحرية فيها لئلا يؤدي الى الاذى بالآخرين . ولتقييد تلك الحرية اقيمت الحكومات وسنت القوانين وفرضت الشرائع وكان أهل الاعصر الماضية اكثر تقيداً منا فكراً وقولاً وفعلاً لان التقاليد حبست افكارهم والقوانين قيدت اقوالهم وافعالهم والحكومات الاستبدادية ضيقت عليهم طرقهم . فاما اطلقت قيود الافكار بعد عصر الاصلاح تبعثها قيود الاقوال والافعال وقد جاهدت الامم المتعدنة في سبيل كسر تلك القيود جهاد الابطال . ويدخل في حرية العمل ان تنجو الامة من سلطة الاجانب وتقبض على حكومتها بيدها فتخدم بلادها بحريتها كما فعلت اميركا بالنتيجة من سلطة انكلترا ويترب على حرية القول ان يقول الرجل ما يخطر له او يراه . ويدخل تحتها حرية التأليف - وكان التأليف قبل عصر الطباعة مقيداً بارادة الرؤساء يراعي المؤلف فيه ما يرضي الملك او الامير او الرئيس او يميل فيه الى ما يوافق غرضه او غرض بعض محبيه . وقل من الف كتاباً بحرية تامة الا في العلوم التي لا سبيل لمراعاة الحاطر فيها . اما كتب التاريخ والادب فاكثرها كتب ارضاء لرئيس او حزب او جماعة التماساً للجائزة او فراراً من العقاب - حتى في عصر التمدن الاسلامي فقد كان لارادة الملوك او الخلفاء او الامراء دخل في المؤلفين والمؤلفات ولذلك رأيت الكتاب في عصر الدولة العباسية سكتوا عن حسنات بني امية ولم يذكروا اسيئاتهم ارضاء للخلفاء العباسيين وقس على ذلك

ويدخل في حرية القول أيضاً حرية المطبوعات على العموم والصحافة على الخصوص لانها عبارة عن اطلاق الحرية للكتاب أن ينشروا ما يقولونه - وهو موضوع بحثنا

٢ - حرية المطبوعات

لم تقل امم اوربا حرية المطبوعات الا بعد جهاد عظيم مثل جهادهم لنيل الاستقلال

ونحن لانستطيع تصور ذلك الجهاد لانا لم نجرب هذا ولا ذاك ولان حرية الصحافة أتنا غنيمة باردة مثل سائر أسباب المدنية الحاضرة . فقد وصلتنا العلوم والمصنوعات والاختراعات ناضجة نامة فاقطعنا ثمارها ونحن نيام . اما اصحاب هذا التمدن فقد بذلوا النفس والنفيس وضحوا بالمال والرجال قبل الحصول عليها . كانت الاقوال مقيدة قبل عصر الطباعة بقوانين كئناسية تمنع الناس التكلم او الكتابة الا ضمن حدود معينة ومن اسلحة هذه القوانين ديوان التفتيش . وكانت الحكومة تعضد الكنيسة في تقييد الاقوال وكان مجاس الاعيان في بلاد الانكليز يساعد الكنيسة في هذا التقييد فلا يؤذن لواعظ ان يخطب الا برخصة خصوصية . فلما اخترعت الطباعة انحصرت مراقبة حرية القول بالحكومة فاصبحت لا تسمح بطبع كتاب او صحيفة الا باذن منها يتاوله المؤلف ويكون بيده شبه حق يحصر منفعة الكتاب به

ولنتبع تاريخ حرية المطبوعات في انكلترا - فقد كانت مراقبتها تأول اما الى منع الكاتب من نشر كتابه بالكلية او تأذن بنشره بعد تنقيحه او تعاقب ناشره اذا نشره بدون اذنها . وكانت تشدد على الخصوص في منع نشر ما يدور في مجلس البرلمان من المباحثات او ما هو من قبيل اجراءات الحكومة ويعاقب الناشر بالقتل . وفي عهد الملكة ماري سنة ١٥٥٦ حصرت الحكومة الانكليزية حق الطبع والنشر بشركة تشكلت يومئذ لهذه الغاية . وأصدرت الحكومة سنة ١٥٨٥ امراً بحصر الطباعة في لندن واكسفورد وكمبريدج على أن لا يتجاوز عدد الطابعين ٢٠ طابعاً ومعههم أربعة من ساجي الحروف ولا تطبع شيئاً الا برخصة خصوصية . واذا اتم احد انه طبع شيئاً بلا رخصة عمدت الى بيته وقتشته بالقوة على يد موظف يسمونه « رسول المطابع » . وشددت في منع ادخال الكتب المطبوعة في الخارج اذا كانت من قبيل الجدل الديني او الانتقاد على الحكومة او الكنيسة . وعينت لمراجعة الكتب قبل طباعها مراجع معينة حسب المواضيع : فالكتب القضائية تؤخذ الرخصة بطبعها من رئيس القضاة وكتب التاريخ بأذن بطبعها أحد نواب نظارة الداخلية والكتب العسكرية بأذن بطبعها قائد الجند العام . وأما كتب الدين والفلسفة والشعر ونحوها من الادبيات فيرجع بها الى رئيس اساقفة كنتربري

وفي أواسط القرن السابع عشر عهد النظر في مراقبة المطبوعات الى البرلمان فعين أناساً يراقبونها تحت منازرة الشركة التي تقدم ذكرها . وتجددت قوانين المراقبة

سنة ١٦٨٠ بعد أن نظر فيها ١٢ قاضياً فقررُوا « أن كل من يكتب أو يطبع أو يبيع مطبوعات فيها طعن على الناس أو على أحدهم تجوز ويعاقب صاحبها حسب القانون وكذلك ما يمس الحكومة وان يعاقب كسبة الاخبار على التحريف في نقلها وان لم يكن فيها طعن أو قذف »

وكانت رخصة الطبع تعطى لمدة سنتين فجعلوها لسبع سنين. وللطباعة علاقة كبرى بالصحافة فلتنظر في نيل هذه الحرية عن طريق الصحافة :

٣ - حرية الصحافة في إنجلترا

كانت الصحافة الانكليزية في اول امرها تابعة باحكامها لساير المطبوعات حتى اذا تولى جورج الثالث ملك انكلترا مع ضعف رأيه وشدة عناده ورغبته في تولى امور الدولة بنفسه دون البرلمان اضطرت انكلترا ونفشت الرشوة فيها وأصبحت المناصب تباع بأسعار محددة حتى عضوية البرلمان . فاصبح الشعب لا يأمن على مصالحه لانه ضاع بين عناد الملك وكبرياء مجلس الاعيان وارتشاء مجلس العموم فاصبح لا يثق باحدى هذه القوات الثلاث فلجأ الى قوة رابعة اسعفته ونصرتة واثالته مراده وهي « الصحافة » وكانت الى ذلك العهد تحت المراقبة مثل ساير المطبوعات . ولكن الشعب كان قد ارتقى وتشرب روح الحرية الشخصية وأن له أن يفكر بحرية ويقول بحرية وكسأب الصحافة من ابناء العامة يشعرون بما يقاسيه اخوانهم من الضغط فاخذت الصحافة على عاتقها المداواة بشكوى العموم من اعمال الملك ووزرائه ومجلس البرلمان

واتفق في أثناء ذلك ان الحكومة الانكليزية عقدت مع فرنسا معاهدة باريس سنة ١٧٦٣ وفيها ما فيها من الاجحاف بمصالح الانكليز فالشعب لم يكن راضياً عنها . وكان بين الصحف يومئذٍ صحيفة اسمها « نورث بريتون » محررها عضو في مجلس العموم اسمه جون ويلكس فانتقد تلك المعاهدة وطعن على ارل بوت رئيس الوزارة لانه رضي بها وهي اول مرة تجرأ صحافي أن ينتقد وزيراً انتقاداً صريحاً ويسميه باسمه فتحدث الناس بذلك وتناقضت الصحف وهاج الرعاع حتى اضطر الارل المذكور أن يستقيل من منصبه

نخاف الملك جورج أن يصيبه ما أصاب وزيره ورأى ان وزرائه لا تقوى على نصرته بين يدي هذا التيار العظيم فلجأ الى مجلس العموم وتقدم الى وليم بت زعيم

ذلك المجلس أن يشكل وزارة جديدة . فرأى بت أنه عاجز عن مناهضة الشعب فاشترط على الملك إذا شكل هو الوزارة أن يجعل أعضائها ممن يرضاهم الشعب . فابى الملك وعهد بتشكيلها الى جورج غرانفيل فشكّلها وأعضاءها من الحزب الضعيف رأياً وفعلاً وأرسل عمل عزمته عليه تكيم الصحافة وتأييد سلطة البرلمان في وضع الضرائب على المستعمرة الاميركية كما ذكرناه في مقالة « استقلال اميركا » - وبهم الشعب الانكليزي الغاء هذا القرار لانه يمس حرية الجمهور في انكثارتها نفسها . وكان الشعب الانكليزي يكره غرانفل كما كان يكره ارل بوت فانقضت عليه الصحف بالظن والقذف من كل ناحية وكتب فيه المقالات السياسية الحادة وعرضت فيها بذكر الملك والفت عليه بعض التبعة وأعم ما كتب بهذا الشأن مقالة نشرت سنة ١٧٦٤ في نورث برتون جريدة جون ويلكس المتقدم ذكره جاء في جملتها « ان خطاب الملك للبرلمان يشتمل على كذب صريح »

فاصدرت الحكومة أمراً مستعجلاً بالقبض على محرري الجريدة وصاحبها وطابعها . فقبض على جون ويلكس وسبق الى سجن برج لندن بدعوى كونه مجرماً سياسياً وحمل الآخرون الى السجون الاخرى تحت الحفظ . ثم انتهت الوزارة الى تسرعها في مقاضة هذا المذنب وانها فتحت عليها مسألة سياسية دستورية - ولم يكن ويلكس بحد ذاته من الاهمية في شيء ولو لم تضطهده الوزارة وتعلن بمطاردة مات خامل الذكر ولكن اضطرها اياه جعل له شأنًا كبيراً حتى أصبح نائباً عن مبدأ عظيم الاهمية يتعلق بالحرية والدستور أعني حرية الصحافة وساعده على ذلك ان قلوب الشعب كانت معه لانه كان يعبر عن احساسها . فكان من غريب امره انه وفق الى ثلاثة امور نالها الشعب الانكليزي على يده هي من أعظم أسباب تقدمه أهمها حرية الصحافة وقد ترتب عليها منافع دستورية هامة تتعلق بمجلس الاعيان وعلاقته بمجلس العموم

أما طابعو نورث برتون فلم يطل حبسهم ونالوا عند خروجهم تعويضاً كبيراً لان القبض عليهم لم يكن قانونياً . وكذلك ويلكس فانه خرج ونال تعويضاً لنفسه هذا السبب فاستأنف البرلمان محاكمته وأني بالدالة على ادانته بجرمة القذف فقر الى فرنسا . وفي اثناء غيابه أصدر البرلمان قراراً باخراجه من عضويته واسقاط كل حقوقه المدنية . وعمد البرلمان والوزارة معاً الى الاستبداد في مقاومة الصحافة فصدر

غرانفل رئيس الوزارة ماثي حكم ضد الصحف بانذار عمومي هاجت منه البلاد وماجت ونار الشعب الانكليزي بجملته لاعتباره تلك المقارمة ضده لان الصحف انما حكم عليها لانها نصرت مصالحه . فانحاز الشعب الى جانب ويلكس وأصبح شعارهم الذين ينادون به « ويلكس والحرية » فلم يستطع غرانفل الوقوف امام هذا التيار واضطر البرلمان ان يعترف رسمياً بان الانذار العمومي للجرائد غير قانوني ولم تصدر الحكومة الانكليزية انذاراً مثله من ذلك الحين

على أن الحكومة أخذت تعترض سير الصحافة وتسمى في قتلها من جهة أخرى فقررت سنة ١٧٧٦ ضريبة على كل نسخة من الجريدة بنسباً ونصف بنس أي نحو سبعة مليات وزادتها سنة ١٧٨٨ الى بنسين ثم زادتها سنة ١٧٩٤ الى بنسين ونصف وما زالت تزيدها حتى بلغت ضريبة الحكومة سنة ١٨١٥ أربعة بنسات على كل نسخة أي نحو قرشين مصريين فكانت النسخة تباع بسبعة بنسات او ثمانية والناس يطلبون الصحف مهما يكن ثمنها لانهم في شوق الى استطلاع الاخبار وفي حاجة الى تأييد غرضهم . ثم انتهت الحكومة الى خطأها فانزلت الضريبة الى بنس واحد على النسخة ونصف بنس على الملحق . وكانت قد وضعت على الصحافة ضرائب أخرى على طبعها وعلى اعلاناتها فتأخذ على الاعلان مهما يكن حجمه ثلاثة شلينات ونصف واداً تجزأ صاحب الجريدة على اصدارها بدون الطوايع الناطقة بدفع الغرامة وقع تحت طائلة القصاص فكان صاحب الجريدة في لندن يرسل الورق قبل طبعه الى مصلحة الطوايع ثم يحمله الى المطبعة - فاعتبر نفقات الصحف بما يلحقها من ضريبة الطوايع وضريبة الاعلانات فلا عجب اذا بيعت النسخة يومئذ بثمانية بنسات وهي تباع الآن بنس واحد . فلم يكن للفقراء سبيل الى ابتداء الصحف مع تشوقهم الى استطلاع الاخبار فكان يشترك جماعة منهم على ابتداء الصحيفة ويتناقلونها ويتدارسونها بالعناية لئلا تترك . فاحتال بعض الكتاب على اصدار نشرات في كراريس لم يسمها صحفاً ولا يدفع عليها ضريبة وكان يبيع النسخة بينسين واحتمل آخرون حيلاً أخرى لنشر الاخبار بالثنى المعتدل والحكومة تقف في طريقهم وتحاكمهم او تغرمهم مما يطول شرحه

ثم تغيرت السياسة وتولى الحكومة العقلاء فاخذوا في تخفيف الضرائب تدريجاً وتحويلها وتعديلها وتخفيف اجرة البريد حتى صارت الصحافة الانكليزية الي ما هي

عليه الان فضلاً عن حرية الطبع والنشر . وقس على ذلك سائر دول اوربا فان الصحافة حرة في معظمها وقلّ بينها من نال هذه النعمة الا بعد التعب والعذاب

٤ - حرية الصحافة بمصر

تاريخ الصحافة في الشرق يختلف عن تاريخها في الغرب اختلافاً عظيماً فالصحافة الغربية اقتضتها طبيعة العمران بعد ان تمدن الناس وتعلموا وتعددت أحزابهم السياسية واحتاجوا الى ما يذيعون به آراءهم او يطلعون به على آراء الآخرين . فانشأوا الصحف لهذه الغاية والحكومات يومئذ لا تريد نشر الآراء على هذه الصورة خوفاً على اسرارها او ظهور ما تريد اخفائه من أعمالها ولا هي تريد أن يرفع صوت الشعب وتحدّ كلمته لان ذلك يقلل من نفوذها ويعرقل مساعيها فكانت تبذل جهدها في معارضة الصحف والتضييق عليها بالقوانين الصارمة والضرائب الفادحة حتى اصبح العدد الواحد من الجريدة يكلف صاحبها نحو قرشين ونصف كما رأيت ولكنه لم يكن يخاف تعطيل جريدته لانه كان يبيع العدد الواحد منها بثمانية بنسات او اكثر والناس في اضطراب للمطالعة للاسباب التي قدمناها والشعب بعدها سلاحه ونصيره . فاتحدوا بدأ واحدة على الحكومة حتى فازا أخيراً بحرية المطبوعات

أما الصحافة الشرقية فقد وضعت في الاصل لخدمة أغراض الحكومة أو موظفيها والاهالي في غفلة عن معنى الصحافة أو الغرض منها الا طائفة من الخاصة . وأما جمهور الشعب وخصوصاً في مصر فكان مستغرقاً في زراعته لا تهمة الصحف ولا أبحاثها . فكان أبواب الصحف يستعينون على نشر جرائدهم بنفوذ الحكومة فضلاً عما كانت تبذله لهم في سبيل اصدارها ولا سبها في عصر اسماعيل فانه لم يذخر وسعاً في تنشيط الصحف ومساعدة اصحابها بالمال وكانت حكومته تشترك بمئات النسخ من الجرائد ولا تمنع مستخدميها من مساعدتها في تحصيل بدلات الاشتراك وكان بعض الوزراء يصحب وكلاء الجرائد بكتب التوصية للمديرين يأمرهم بمساعدة تلك الجرائد في النشر وتحصيل أموالها . فكان الرجل من العمد أو الفلاحين يشترك بالجريدة وهو لا يعرف القراءة وقد تأتبه أعدادها فلا يفتحها ويدفع بدل الاشتراك كأنه ضريبة من جملة الضرائب التي لا مفر منها . وكان بعض مأموري الحكومة يستعملون في تحصيل بدل الاشتراك العنف كالجلد أو الحبس مع علمهم أن الرجل لم يطلب الاشتراك ولا هو يحسن القراءة . وقد آلت هذه الطريقة طبعاً الى تعود الناس قراءة الصحف وان لم

يكن هذا هو الغرض المقصود منها - ظل ذلك شأن الصحافة بمصر الى اوائل الاحتلال ثم أخذت طريقاً آخر فصدرت الاوامر المشددة بمنع مستخدمي الحكومة من التوسط بامرها من حيث بدل الاشتراك او المكاتبات ونحوها

وقد مرّ على الصحافة الشرقية الى الان ثلاثة ادوار الاول « دور الحضنة » كانت فيه الجرائد آلة في أيدي الحكام تسبج باسمهم وتترنم باعمالهم واذا بحثت في السياسة فاكثر ابجائها عن الدل البعيدة كما تفعل أكثر صحف سوريا اليوم . والدور الثاني « دور التمهض » يبدأ بهضة الشعب المصري منذ ولاية المرحوم توفيق باشا وكان الناس في عهد أبيه اسماعيل تحت الضغط لان سياسته كانت تقضي بابعاد الوطنيين وتقريب الاجانب ولم تكن الجرائد تصرح بهذا الغرض اما ترلفاً الى اسماعيل أو خوفاً على حياتها من عصاه . ولا يزال القوم يذكرون ما أصاب صاحب الاهرام رحمه الله لما نشر خبر مبلغ أفق ولم يعرف سبب انفاقه فطلب اسماعيل احضاره باسرع من البرق ولو لم تنصره دولة اجنبية لقضي عليه

على ان الصحف كانت في اواخر أيام اسماعيل قد اخذت تستنشق روح الحرية مما كان ينشر في بعض الجرائد الافرنجية التي تصدر بمصر وكانت تقلدها في حرية القلم الا ما لمس اسماعيل أو سلطته . فكان الكتاب الوطنيون يرون أقلامهم مقيدة بهيئة ذلك الرجل الغضوب الفتاك فيكظمون

وكان ابنه توفيق رحمه الله محباً لمصر وفيه سهولة ودماثة وكان يشكو من شدة والده واسرافه والوطنيون يتوسمون نفعاً كبيراً بانتقال الخديوية اليه . فلما قبض على ازمته سنة ١٨٧٩ لم يذخر وسماً في مراعاة جانب الوطنيين وتقديمهم - ولعله بالغ باطلاق الحرية لهم وهم لم يتعودوها فانقلب الغرض المقصود منها الى ما لا يخفى على احد

أما الصحافة فظهرت فيها آثار الحرية اكثر مما ظهرت في غيرها فاطلقت لنفسها العنان في الانتقاد وطلب الاصلاح ولم يكن بمصر الى ذلك الحين جرائد تنتمي الى الاحزاب فلما قام المرايون أنشأوا عدة جرائد للدفاع عن سياستهم أشهرها جريدة التنكيك التي سماها عرابي « لسان الامة » وجريدة « الحجاز » و « الزمان » و « الطائف » وغيرها وظلت بعض الجرائد في جانب الحكومة فاضطرت هذه لايقاف ذلك التيار الى تقييد الاقوال فسنت قانوناً للمطبوعات سنة ١٨٨١ يقضي انه

لا يجوز لاحد انشاء مطبعة او جريدة الا باذن الحكومة بعد دفع تأمين مالي معين ولا يجوز للمطابع نشر كتاب ما لم تدل الاذن بطبعة من قلم المطبوعات والاوقع عليها العقاب وقس على ذلك . فلم يكن هذا التقيد الا ليزيد الحرق اتساعاً وانتهى الحال بالثورة العراقية ثم الاحتلال الانكليزي

ودخلت الصحافة المصرية بعد الاحتلال في دور ثالث نسيه « دور الولادة » لان الصحف تدرجت فيه الى ما يشبه الصحافة الافرنجية من حيث اعتمادها على نفسها في جلب الاخبار ونشرها وتدير المشتركين وتحصيل البدل بعد ان كفت الحكومة عن التوسط بذلك وحصرت اشراكها بنسخ قليلة من كل جريدة وأهمل قانون المطبوعات عمداً وأطلقت حرية الاقلام فتعددت الصحف وانقسمت الى احزاب بعضها يمتدح الاحتلال ويطلب بقاءه والبعض الاخر يقبحه ويطلب الجلاء وهؤلاء فئتان فئة تطلب الجلاء بشدة وعنف وفئة تطلبه بالحسنى . وكل فئة من هذه الجرائد لا تنوب عن حزب معين له أعضاء معينون مثل الاحزاب في اوربا اذ ليس في مصر احزاب سياسية معينة ولكنها تعبر عن احساس طائفة من الناس يوافقون صاحب الجريدة على رأيه

فالجرائد عندنا هي التي تضع الآراء وتصورها الاحزاب والعادة في العالم المتمدن ان الاحزاب هي تنشئ الصحف وتحارب بها وتدافع عنها بالاموال والارواح - لا تبالي بتهديد الحكومة الا ضمن حدود القانون ولا نظن جرائدنا مهما يبلغ من شدتها اذا آمنت من الحكومة عيناً حمراء تستطيع الصبر على مقاومتها اذ ليس في قوانين مصر نص عن حرية المطبوعات ولا يقوم الشعب لنصرتها

فالصحافة انت مصر ناهجة نامة النمو وأنتا حرية المطبوعات تفوقاً لم تسفك في سبيلها دماً ولا انفقت عليها درهما . فمسي ان تحسن استخدام هذه الهبة لثلاث تذهب من يدها . ولا يحسن بنا التمثل بدول أوربا في كل شيء لان احوالنا غير احوالهم . وتلك الدول أعطت رعاياها حرية المطبوعات مضطرة بعد حدال وحرب انتهت بتغلب الشعب فاذننت الحكومة وكنت لهم بذلك عهداً دوتها في قوانينها وشرائعها ولا يسهل الغاء شيء منها الا بعد مصادقة مجالس الامة . واما مصر فقد نالت تلك الحرية بارادة شخص اللورد كرومر . وقانون المطبوعات المتقدم ذكره لا يزال قابلاً للتنفيذ

الجرائد وواجباتها وآدابها^(١)

حملتنا حال الجرائد المصرية في هذه الايام من التطرف والتهور على التسكلم في الجرائد وآدابها والشيء بالشيء بذكر . وقد رأينا لزيادة الفائدة أن نقسم كلامنا في ذلك الى أربعة أقسام : (١) تاريخ الجرائد في اوربا منذ نشأتها الى الآن (٢) تاريخ الجرائد العربية (٣) آداب الجرائد وواجباتها (٤) الجرائد المصرية وتهورها

(١) تاريخ الجرائد في اوربا

ذكرنا في الهلال الثاني والعشرين من السنة الثالثة ان الجرائد نشأت اولاً في الصين سنة ٩١١ قبل الميلاد وهو قول يحتاج الى اثبات ولكن المعول عليه ان يوليوس قيصر الروماني في اواسط القرن الاول قبل الميلاد أصدر نشرة يومية سماها (Acta Diurna) (ا كتا ديورنا) ومعناها « الاعمال اليومية » ينشر فيها اعمال المشيخة الرومانية الرسمية وحوادث الشعب الروماني وما زالت تصدر الى زمن الامبراطور بوليان في اواسط القرن الرابع للميلاد فكانت بمنزلة مثال للجرائد التي صدرت بعد ذلك في اوربا

أما الجرائد في العصر الحديثة فنشأت أولاً في جرمانيا في القرن الخامس عشر للميلاد وكانت تصدر في فينا وراتسبون واوسبرج ورنبرج على شكل صحف فيها ملخص الاخبار التجارية في تلك المدن وما والاها . ولكن الجرائد لم تتمثل بالشكل المعروفة به الان الا في البندقية وأول جريدة صدرت فيها أثناء الحرب التي قامت بينها وبين الدولة العلية سنة ١٥٦٣ م دعوها (Gazetta) غازتا وهو اسم لقطعة من نقود البندقية تساوي ما يقرب من المائتين المصري وقد دعوها به نسبة الى ثمنها لانها كانت تباع بهذه القيمة

ثم تشبه الانكليز بهم فاصدروا في لندن سنة ١٦٢٢ جريدة (Weekly News) (أخبار الاسبوع) وكان المظنون ان الانكليز اصدروا جريدة سنة ١٥٨٨ في زمن الملكة اليبابات سموها (The English Mercury) « عطارد الانكليزي » ولكنهم

وجدوا بعد البحث والتنقيب ان تلك الجريدة صدرت بعد ذلك التاريخ بازمان ومنها نسخ محفوظة في المتحف البريطاني

ثم أنشأ الفرنسيون جريدة سموها « غازة فرنسا » صدرت ببـاريس في ابريل سنة ١٦٣١ م وقد نشطتها الحكومة ورفعت منزلتها حتى ان الملك لويس الثالث عشر نشر فيها مقالة بقلمه واقتدى به في ذلك أيضاً الكردينال ريشليو الشهير ولا تزال هذه الجريدة حية الى الان وقد مر عليها ٢٦٤ سنة

فيظهر مما تقدم ان أول من أنشأ الجرائد على النمط الحديث البنديون ثم الانكليز ثم الفرنسيون ولكن « أخبار الاسبوع » المتقدم ذكرها كانت أشبه بالخطابات الخصوصية منها بالجرائد العمومية حتى قد يليق بنا تقرير السبق للفرنساويين وأما أول جريدة انكليزية أنشئت على مثال الجرائد حقيقة فهي جريدة « غازة لندن » صدرت سنة ١٦٤٢ لكنها لم تعيش طويلاً ثم أنشئت « غازة او كسفورد » صدرت في او كسفورد سنة ١٦٦٥ ثم نقلت الى لندن ودعيت غازة لندن London Gazette وهي لا تزال تصدر بهذا الاسم حتى الان . ثم صدرت جرائد اخرى في انكلترا وغيرها من ممالك اوربا واميركا وأقدم جريدة أنشئت في اميركا « بوستون نيوستر » صدرت سنة ١٧٠٤ . فقد مرّ على الجرائد منذ أول ظهورها الى الآن اكثر من ثلاثة قرون قاست في اثنائها مشقات جسيمة حتى بلغت ما هي عليه من الكثرة والانتشار والحرية وكان في جملة العراقيين التي وقفت في سبيل نشر الجرائد عند أول صدورهم الضرائب التي كانت تضرب عليها فقد بلغت النفقة على العدد الواحد منها في بلاد الانكليز في أواخر القرن الماضي أربعة بنسات (نحو قرشين) وجعلوا ضريبة على كل اعلان ثلاثة شلينات ونصف شلن فضلاً عن المراقبة الشديدة التي كانت عليها فضايق أرباب الصحف من ذلك كثيراً حتى صاروا يتحلقون الوسائل الغريبة في نشر جرائدهم وتجنب نفقاتها الباهظة

ومما يحكى من هذا القيل ان رجلاً انكليزياً يقال له كرينتر أصدر في أوائل هذا القرن جريدة على شكل كتاب خصوصي سماه « كتاباً سياسياً » يوجه الخطاب فيه الى احد أعيان الانكليز ثم يطبع منه نسخاً عديدة يبيعها باسم كتاب سياسي وليس جريدة فكان يبيع من كل طبعة آلافاً من النسخ والحكومة لا تستطيع مطالبة

الخروج نشرته هذه عن تعريف الجريدة ولكنها أخيراً توسعت في تحديد الجرائد فأوقعته تحت طائفة القصاص وحكمت عليه بدفع الضرائب التي ظنَّ نفسه تخلص منها فاضطر الى اصدار جريدته كسائر الجرائد الاخرى يدفع عليها النفقات الاعتيادية ومن أساليب الحيل التي اتخذوها هرباً من الضرائب ان أحدهم المستر هرتون أصدر جريدة كان يطبعها على مناديل رخيصة الثمن بسميها « منديلاً سياسياً » فنشرها مدة وكان يبيعها بثمان بخس فانتشرت انتشاراً حسناً حتى ناله أخيراً ما نال كربت المتقدم ذكره . على ان الحكومة نفسها بعد ذلك شعرت بفوائد الجرائد وانتشارها فأخذت تنشطها وتسهل طبعا ونشرها حتى بلغت ما هي عليه في بلاد الانكليز وحدها الآن ٢٣٠٠ جريدة سياسية يصدر منها في اليوم مئات الملايين من النسخ وقس عليه الممالك الاخرى

(٢) تاريخ الجرائد العربية

ذكرنا في اول عدد صدر من الهلال كلاماً مسهباً عن الجرائد العربية وأتينا على اسماء الجرائد العربية التي صدرت في العالم منذ أول عهدها الى تاريخ صدور ذلك الهلال وليس من غرضنا العود الى هذا الموضوع الآن ولكن المراد الاقتصار على تاريخ نشأة الجرائد العربية بالاختصار

علمت مما تقدم ان الجرائد نشأت ونمت في اوربا ونحن اقتبسناها عنها كما اقتبسنا سائر العلوم الحديثة . ومعلوم اننا لم نعكف على أحياء علوم اسلافنا واقتباس العلوم الحديثة الا في اواسط هذا القرن على أثر احياء المعالم العربية في الديار المصرية والسورية بعد تولي العائلة المحمدية العلوية واقتراح المدارس الاهلية والتوسعة للاجانب في الاقامة بيننا والدخول في مدارسهم وتعلم لغاتهم

والفضل الاول في انشاء الجرائد العربية للمغفور له محمد علي باشا مؤسس العائلة المحمدية العلوية فانه هو الذي أسس أول جريدة عربية في العالم منذ خمس وستين سنة وهي جريدة « الوقائع المصرية » ولا تزال جريدة الحكومة المصرية الرسمية ثم أصدرت الحكومة العثمانية جريدة عربية رسمية في بيروت منذ ٣٨ سنة سميتها حديقة الاخبار ثم صدرت الجريدة الرسمية لتونس الغرب وقد مرَّ عليها الى الآن زهاء ٣٥ سنة ولا تزال هذه الجرائد الثلاث حية ولكنها رسمية تصدر على حكومتها وتنشر أوامرها ومنشوراتها وأعمالها

اما الجرائد السياسية غير الرسمية فاقدمها جريدة الجوائب التي انشأها المرحوم الشيخ احمد فارس الشدياق في الاستانة العلية عام ١٨٦١ م وقد تعطلت بعد الحوادث العراقية وتليها جريدة وادي النيل أنشئت بمصر سنة ١٢٨٣ هـ (١٨٦٧ م) وكانت تصدر مرتين في الاسبوع على شكل كراس ومواضيعها سياسية وعلمية وادبية ومحورها ابو السعود افندي وتلي هذه مجلة الجنان التي انشأها المرحوم المعلم بطرس البستاني ببيروت عام ١٨٧٠ وكانت تصدر مرتين في الشهر على شكل كراس بقطع الهلال ومواضيعها علمية وادبية وسياسية توقفت منذ بضع عشرة سنة وجريدة البشير للاباء اليسوعيين وهي صحيفة دينية اخبارية نشأت مع مجلة الجنان في عام واحد ولكنها لا تزال حية

ثم توالى صدور الجرائد في مصر والشام فصدرت بالاسكندرية جرائد روضة الاسكندرية والاهرام والكوكب الاسكندري والمحرسة . وبمصر روضة المدارس والوطن وغيرها . ويبيروت صدرت النشرة الاسبوعية اولها صدرت مع البشير أو قبله كما يؤخذ من عدد أعدادها الصادرة الى الان ولكنها لا تدل على سنة نشأتها صريحاً ثم ثمرات الفنون والمقتطف ولسان الحال والمصباح وغيرها . فيظهر مما تقدم ان اول جريدة عربية رسمية صدرت بمصر ثم ببيروت ثم بتونس وأول جريدة عربية غير رسمية صدرت في الاستانة العلية ثم بمصر ثم ببيروت

وقد بلغ عدد الجرائد التي صدرت بالعربية في سائر اقطار العالم نيفاً ومائتي جريدة بين سياسية وعلمية وادبية وفكاهية وطبية وغيرها صدر نحو خمسين منها في السنوات الثلاث الاخيرة ولا يزال عددها آخذاً في الازدياد وخصوصاً بعد ان اطلق لها العنان في الديار المصرية حتى لم تعد تعرف لها حداً تقف عنده

٣ - آداب الجرائد وواجباتها

لا نعلم ان احداً دوّن للجرائد حدوداً تتعامل بها من حيث الآداب العمومية فيما خلا القوانين التي سنتها لها الحكومة ولكنها اذا عرفنا ما هي الجرائد سهل علينا معرفة آدابها . والجرائد « لسان حال الامة ينطق به فرد او جماعة من عقلائها » فهي كالمرآة تمثل بها احوال الامم وعوايدهم وآدابهم ولما كانت الامم تختلف في كل ذلك كانت الجرائد مختلفة في مبادئها على تلك النسبة فالجريدة الانكليزية تنطق بلسان حال الانكليز وتمثل اخلاقهم وآدابهم والجريدة المصرية تمثل اخلاق المصريين وآدابهم

وهكذا يقال في كل جريدة عند كل امة . فمن انشأ جريدة في الديار المصرية وأراد الاقتداء بجرائد انكلترا أو أنشأ جريدة في انكلترا ومثل بها أخلاق المصريين فإنه يسير على ضلال وشأنه في ذلك شأن من يلبس البدوي لباساً أفرنجياً أو يخلع على الأفرنجي عباءة وعمامة وهذا هو منشأ التضاد بين الجرائد المصرية الحديثة فان محرريها يختلفون مشرباً وأخلاقاً وكل يسير على شاكلته

فاداب الجرائد المصرية تقضي بمسيرها على خطا المشاركة في عوائدهم وأخلاقهم وسائر أحوالهم مع اختيار الحسن منها وانتقاد القبيح التماساً للإصلاح ولا بد في كل ذلك من ظهور أخلاق المشاركة بين سطورها وفي خلال الفاظها وأظهر تلك الأخلاق الجمالة والتأدب وكرم الأخلاق

واهم واجبات الجرائد السعي في كل ما يؤول الى مصلحة الامة واصلاح شؤونها بانتقاد اعمالها واعمال من يتولى أمرها مع مراعاة آدابها وأخلاق أهلها وعوائدهم ومن أهم تلك الواجبات احترام شخص الملك فإنه القائم بأمرها الموكل برعايتها وهو النائب عن الخالق جل وعلا في تدبير شؤون خلقه فإذا رأوا فيه أعوجاجاً فليقوموه بغير مساس شخصه

ومن واجبات الجرائد البحث في كل أمر عمومي وانتقاده انتقاداً عادلاً وتجنب المسائل الشخصية ولا سيما المتعلقة بالدين فإن التعرض للأمور الشخصية أو الدينية أول ما يشين الجرائد ويحط من منزلتها ويذهب بها الى الشطط والتهور وما عاقبة ذلك الا التنافر والبغضاء وسوء المصير

فمن ينشئ جريدة يركب مركباً خشناً ويعرض نفسه لواجبات يجدر به أن يتعلمها قبل اتقان فن الانشاء والتبحر في التحرير والتحجير الا لا يقود قراءه الى مهاوي الضلال ويلوث وطنه بعواقب الغرور اذا لم نقل انه يذهب به الى الضياع والعياذ بالله

٤ - الجرائد المصرية

قد علمت مما تقدم ان الجرائد المصرية وسائر الجرائد العربية حديثة العهد لم تكد تبلغ نصف قرن من العمر في حين ان الجرائد الأفرنجية قد تجاوزت ثلاثة قرون . فها الصحافة العربية بالنسبة الى الأفرنجية الا كطفل رضيع لم يكد يفتح عينيه أمام شيخ هرم حنكته التجارب وهذبه الأيام . أليس من الغريب أن نرى طفلاً رضيعاً يحاول

أعمالاً لم يبلغها شيخه إلا بمصر القرون . هذا هو شأن الجرائد المصرية الآن فانها على حداتها ونومها انظارها تسابق الجرائد الافرنجية وتحاول ان تعمل عملها وتسير على خطواتها ولكن ذلك مخالف لشرائط النمو الطبيعي فان عودها رطب وعظمها لا يزال غضروفاً فلا تأمن الانكسار والفشل الا ان يقام عليها وصي يتولى امرها ويراقب اعمالها ويقوم معوجها ربها بناه أشدها وتذكر كنه الحرية

نراها معجبة بما نالته من تلك الحرية اقتداءً بجرائد الافرنج وتمتعاً بما أوتيته من اطلاق العنان لها ولكنها بالغت في ذلك الى حد حبس البنا الاستعباد وقد فاتها ان الحرية بين أسنة أقلامها كالسيف بيد الطفل يسطوبه على رقاب الناس ويخبط خبط عشواء ولا تحتاج في تأييد ذلك الى كبير مشقة وهذه الجرائد المصرية قد اتخذت تلك الحرية ذريعة للسباب والشتم ونهش الاعراض والطعن في الامم والممالك والتعريض بالمذاهب والاديان مما لا يترك محلاً للريب في ان الحرية جاءتها هبة في غير محلها ونمرة في غير أوانها . فاذكرتنا أياماً نقشت بها الحرية بوادي النيل منذ بضعة عشر عاماً فجزت عليه ما هو منشأ اختلاف الصحف الآن

أبلى بها وقد أقامت نفسها رقية على أعمال الحكام ناصحة للملوك والسياسيين مهذبة لاخلاق الناس مطالبة بحقوق الامم ان تكون مثلاً للشطط والنهور ومعرضاً للطعن والنبذ . ويعلم الله اننا نخط هذه الاسطر والعلم يرتعش بين اناملنا ولم نقدم عليه الا بعد أن فرغت جعبة اصطبارنا ونحن نقسي النفس في كنف جرائدنا عن تلك الحيلة ويسؤنا أن نجرد قلمنا لنأيب زملائنا الافاضل أرباب الصحف المصرية وهم من نخبة ادبائنا وعمدة فضلائها ولا ندرى ما جرهم الى النزال فيما يؤخذون عليه الا أن يكون ذلك من قبل ما قلناه من حداثة فن الصحافة بيننا راساءتنا استخدام الحرية

نقول ما نقوله اجمالاً بغير تسمية ولا تخصيص لئلا تقع فيما آخذناهم عليه ولا نظن قارئاً يطلع على هذه الحروف في مصر والشام ويخطيء قصدنا ولم يحملنا على الخوض في هذا الباب الا الغيرة على آداب الصحف والتنبية الى واجباتها لا لان زملاءنا الافاضل يجهلونهم ولكن ما يلاحظه المراقب خارج المعمة من حركات المتحاربين قد يفوت المتحاربين ملاحظته ولا نريد الا تذكيرهم بشيء هم أعلم منا بها فأولى بالاعاها علينا

فبعض تلك الصحف تبالغ في انتقاد أعمال الحكومة حتى يشتم من خلال سطورها رائحة التعريض بالملك بما قد يس كرامته وهم يعلمون ان انتقاد أعمال العمال شيء ومس كرامة الملوك شيء آخر وبين ان الاول فضيلة يمدحون عليها فان الثاني حطة يؤاخذون عليها لان في انتقاد أعمال الحكومة نفماً واصلاحاً وأما مس كرامة الملوك فيجلبه للبغضاء والتنافر

ونرى صحفاً أخرى تملأ أعمدها تعريضاً ببعض الامم ظلاماً وعدواناً وتجاهر بسبها واهانتها وتحقيرها ولا تعرف شرطاً من شروط الادب ولا قانوناً من قوانين الشرع والعرف يبيح الطعن في امة برمتها والامم على اختلاف اصقاعها ولغاتهم ومذاهبها لا تخلو من الحسن والقيبح وغاية ما يقال فيها انها تحتل المدح والذم ولا يعقل ان امة باجمعها تستوجب الاهانة والتحقير الا ان يكون المراد التشنفي منها لحزازات في الصدور وهذا امرٌ نجلى الصحف عنه ومن كان هذا غرضه فليتخذ سلاحاً غير الصحف وليركب جواداً غير القلم

ونرى صحفاً أخرى قد سودت صفحاتها بمقالات ضافية في المسائل الشخصية فتظمن في اشخاص تسميهم باسمائهم وتتهال عليهم بالسب والاهانة حتى قد تتطرق الى انتقاد ما يأكلون او يلبسون او يطبخون وأي علاقة بين ذلك والمصلحة العامة التي انشأوا جرائدهم لاجلها وما يهيم القراء ما يقولونه عن فلان وما يأتيه في منزله أو كيف شب في صغره وما لنا وللبحث عن أصله وفصله وقرينه وجيرانه فان آداب الصحف تبيح هذه الابحاث وتفر من راحتها وقد يتبادر لمحوري تلك الصحف ان ذلك من قبل تشديد اللهجة التي تساعد أحياناً في تقوية الحجة واقناع الخصم والقراء بصحة دعواهم ولكنهم اخطأوا المرعى ووقعوا في عكس ما يؤملون فان القراء اذا رأوا في ما يقرأونه تعريضاً أو طعناً أمسكوا عن قراءته لانهم انما يهتمهم من الجرائد أخبارها وأبحاثها السياسية على انهم لو صبروا النفس على مطالعتها فانما يطالعونها وهم يعتقدون تحامل السكاتب على مناظره ومبالغته في تحقير رأيه فلا يثقون بمقدماته ونتائجها ومهما اشتهرت الجريدة بصدق أخبارها وصحة آرائها فلا تلبث اذا اكثر من الطعن والشتم ان تخط منزلتها ويرتاب القراء في صدقها

وهناك صحف تطاولت في ابحاثها الى الاعراض وهو من أفسح ما تنفر منه الاذواق الشرقية فاننا معاشر الشرقيين نغار على الاعراض ونصونها ونفديها بأرواحنا

وتجنب كل ما يمسها ونمقت كل من يعرض بها يدك على ذلك ميلنا الى التحجب دون سائر الامم فما بالنا نتولى خرقها ايدينا ان ذلك من جملة غرائب الجرائد المصرية الحرة ونرى في بعض تلك الصحف الفاظاً لا نسمعها الا من ابناء الازقة لبذاءتها والفاظاً ينجل من تلاوتها الاديب فضلاً عن العذراء والجرائد يتداولها الناس على اختلاف درجاتهم وأعمارهم وفيهم التاجر والصانع والقسيس والعالم والشاب والشابة فاستعمال الالفاظ البذيئة اذا لم يفسد الاخلاق فانه يقلل من منزلة الجريدة فيستخف الناس بها وبأقوالها

وأقبح ما رأيناه في بعض الجرائد المصرية التعريض بالاديان والمذاهب وهو أمر يذكرنا بآيام خات نود نسيانها أيام جرت فيها الدماء أنهرأ وكان الجهل ضارباً اطنابه والتعصب سادلاً غشاوته وما صدقنا ان اقلعت تلك الحُجُم وانحسر ظل ذلك الغشاء وعرف كل منا حدوده أفعمود اليها ودون ذلك قراع اللسنة وسفك الدماء وتشويه وجه الانسانية . أما آن لنا ادراك كنه التمدن الحقيقي فكيف نجعل ما نخذه غيرنا حصناً لمدنهم وواسطة لعقد اجتماعهم عاراً على تمدننا وسبباً في تفريق شملنا

وقد نلتبس لتلك الصحف عذراً في احتدام نار الجدل بينها وطول الاخذ والرد في ما يختلفون فيه من الابحاث السياسية أو الادبية ولكننا لا نرى موجباً للخروج من المجادلة الى المشامة والمطاعنة وأتارة الشخاء والبغضاء واذا زعموا أنهم يفعلون ذلك اقتداءً بمن تمتع بحرية الجرائد قبلهم من الافرنج فهولاء قد يتناظر جماعة منهم في مسألة وتستخدم شعلة الجدل بينهم حتى يحتاجوا الى التحكيم وهم مع ذلك لا يتجاوزون حدود المناظرة ولا يخلون بواجبات الجرائد ولا يخرقون حرمة الآداب بل يعودون بعد المناظرة وقد تمكنت بينهم علائق المودة وزاداتتلاف قلوبهم وقد عرف الناس نتيجة أبحاثهم. أما نحن فلا نكاد نبدأ بمناظرة سياسية حتى نخرج منها الى المطاعنات الشخصية فنخوض فيها أشهرأ وننسى الموضوع الذي كان مدار البحث فيه وقد تصل الحدة ببعضنا الى تهديد الآخر بالقتل أو المبارزة او المحاكمة أو ما شاكل ذلك . أهذه حقوق المناظرة أم هي واجبات الصحف وآدابها . ولو فرضنا ان الافرنج يخرجون مثل خروجنا فالآداب الشرقية أساسها المجاملة والتأدب وكرم الاخلاق كما قدمنا فهي تقضي بمراعاة احساسات مناظرينا والاعضاء عن هفواتهم ومعاملتهم باللين والالطف وتجنب الجفاء والقول الهراء

على اننا نستطيع العذر من حضرات الافاضل أصحاب الصحف ومحرريها لقيامنا
لديهم مقام الناصحين ونحن أحوجهم الى النصيح ولكنها خطرات أفكار مرت بذهننا
فحركت هذا القلم على هذا القرطاس فلمعها اذا مثلت بين ايديهم أذكرتهم أموراً هم
أعلم منها بها . وقد توخينا اظهار الحقيقة وابداء رأيينا عملاً بواجباتنا نحو الامة والوطن
غير ان ذلك كله لا يحيط شيئاً من منزلة أشخاصهم لدينا فلنسانج أرباب الافلام
ونقدرهم حق قدرهم فهم قادة الافكار وقادة أهل الادب وزهرة غرس الامة وما
آخذناهم عليه ان هو الا هفوة يكفرون عنها بما يخدمون به البلاد من جهة أخرى
ولكننا اردنا تذكيرهم حتى اذا رأوا رأيينا وارادوا الرجوع الى الصواب كانوا اقرب
الى السكال وذلك اجدر بأهل العلم والادب مما بسواهم من طبقات الناس والسلام

التأليف

في اللغة العربية^(١)

لا يستطيع من راقب سير العلم بمصر في الاعوام الاخيرة غير الاعتراف بوجود
نهضة أدبية كثر فيها المؤلفون وتعددت المؤلفات . وان كنا بالقياس على سائر الامم
لا نزال أطفالاً في هذا الفن . ونبقصدنا على الخصوص التدرب على البحث والتنقيب
والقياس والاستنتاج . فان بعض كتابنا لا يزالون يسيرون في طرز تأليفهم على خطة
أسلافنا القدماء . والتأليف في العربية قديم كما جاء في ما بسطناه في كتابنا تاريخ
آداب اللغة العربية . وكان لعلماء العربية القدماء القدح المعلى في هذا الباب لكن
لكل عصر نسقاً في التأليف يلائم أهله . فنسق هذا العصر يختلف عن نسق
القدماء مثل اختلاف سائر أحوالنا عن أحوالهم . ونحن في هذه النهضة عولنا في
اقتباس العلوم الحديثة على أصحاب هذه المدنية فقلنا لها عنهم ولهم طرق في التأليف
يحسن تحديدها لما فيها من التجميع والترتيب والتبويب مما يسهل على القارئ تفهم
المواضيع وحفظها

ومع ذلك لا ينبغي لنا أن نخس آدابنا العربية حقها ولا سيما في المواضيع التي كتب فيها أسلافنا وإن اختلف ما كتبوه من حيث روحه وأسلوبه عما يقتضيه هذا العصر . لكننا نرى بعض كتابنا ينظرون الى تلك الآداب بعين الاحتقار ولا يتعبون انفسهم في تفهمها . ولو فعلوا ذلك لوجدوا فيها كنوزاً ثمينة في كثير من المواضيع التي يحتاجون الى نقلها من اللغات الافرنجية . ولعل السبب في اهلهم المصادر العربية ما يجدونه لأول وهلة من الغرابة في أسلوبها لانه يخالف ما تعودوا من الاسلوب المصري . ولو زاولوا مطالعة تلك الكتب قليلا لتعودوا ذلك الاسلوب وهان عليهم فهمه . وقد يجدون في تلك الكتب حقائق هامة غير ما يستفيدونه من طرق التعبير والالفاظ الوضعية فيستعينون بذلك على تقويم أسلوبهم عند نقل ذلك العلم عن المصادر الافرنجية

ومن غريب ما رأيناه من هذا القبيل أن بعضهم يعتمدون على هذه المصادر ولو كان ما يكتبونه متملقاً بعلوم العرب انفسهم او تاريخهم . ولعلمهم يفعلون ذلك لثقتهم بتدقيق الافرنج في ما يكتبونه لكن ذلك جرّ بعضهم الى ارتكاب خطأ شوه ما كتبوه . فقد قرأنا كتاباً حديثاً في تاريخ الاسلام فرأينا فيه رسائل كتبها بعض القواد المسلمين الى خلفائهم في صدر الاسلام هي في اصلها العربي مثال البلاغة وحسن البيان فترجمها مؤلف ذلك الكتاب عن الافرنجية فجاءت أعجمية الالهجة عارية من البلاغة العربية مع امكان نقلها بعبارتها الاصلية لفظاً ومعنى

ومعلوم ان العلم الحديث جاءنا أولاً على يد الفرنسيين والايطاليان في زمن محمد علي باشا ثم تناولنا جانباً منه عن الانكليز والاميركان وخصوصاً في سوريا . ثم كان الاحتلال الانكليزي بمصر فسعى أهله في نشر لغتهم بيننا فاصبحت المصادر التي نعول عليها في ما نكتبه اما فرنساوية او ايطالية او انكليزية . ولكن الايطالية لم تثبت لضعف نفوذ ايطاليا بيننا فانحصرت مصادرها في الفرنسية والانكليزية

وبديهي أن من يتناول العلم عن أمة تعلم لغتها وآدابها يشب على حبها فيتوخى تقليدها والافتداء برجالها . فاصبح كتابنا من أجل ذلك فتيين فئة تقلد الفرنسيين وفئة تقلد الانكليز . وقل من يجمع بين الاثنين فاختلفت أذواقنا باختلاف ما لديهم من المبادئ والاخلاق حتى ظهر أثر ذلك في ما نكتبه لفظاً ومعنى . فقل أن تقرأ مؤلفاً ألفه كاتب من أهل هذا العصر في علم حديث الاقرأت في خلال سطره

مبادئ احدى الامتين الفرنسية او الانكليزية . ولعل هذا هو السبب في تشيع عامتنا الى احداها لان الامة من حيث المبادئ والاخلاق تسير على خطوات كتابها فتتبع كل فئة منهم فئة من الكتاب فتقلدهم باقوالهم واعمالهم ولا يقتصر تقليدنا كتاب الافرنج على خوى ما يكتبونه واسكنه قد يتناول طرق التعبير فترى اللهجة الافرنجية ظاهرة على عبارات بعضها كانت الناطقة عريقة في العروبة . لان لكل لغة نسقاً في التعبير خاصاً بها فن كانت مطالعاته ومراجعاته في كتب فرنساوية اكتسب ملكة التعبير فيها وخصوصاً اذا أهمل المطالعة في الكتب العربية وهكذا يقال في مطالعي الكتب الانكليزية

فعلى من يعتمد الى التأليف ان يحافظ على ملكة اللسان العربي ويتجنب التعميرات الافرنجية ولا يتم له ذلك الا بمطالعة الكتب العربية الحالية من شوائب العجمة . بل لا بد له من مطالعة الكتب التي كتبها العرب في الموضوع الذي يريد الكتابة فيه او ما يقرب منه لاقتباس طرق التعبير في ذلك العلم . اذ لكل علم عبارات والفاظ لا يستحسن ايرادها في علم آخر . فلعنة العلوم الطبيعية مثلاً غير لغة المواضيع الادبية ولغة التاريخ غير لغة الطب ولغة الكتابة غير لغة الخطابة . فما يستحسن ايراده من العبارات المبرقة بانواع البديع في موضوع أدبي تهذيبي يستقبح في موضوع طبيعي او رياضي . فعبارة ابي الفضل الهذلي في رسائله لا تستحسن في اثبات قضية هندسية او تقرير حقيقة طبيعية . واذا كتبت المعاني التهذيبية بعبارة هندسية لا تؤثر في النفس تأثيرها لو كتبت بعبارة مزخرفة باساليب الاستعارة وضروب المجاز . فضلاً عما تقتضيه الحقائق العلمية من البساطة وما تستلزمه المواضيع الادبية من المبالغة والاطناب بين تهديد وتنبيد وتهييب وترغيب . فيقسم الانشاء بهذا الاعتبار الى قسمين كبيرين انشاء علمي وانشاء أدبي . ولكل منهما فروع يستخدم كل فرع منها بموضوع دون الآخر

الاسلوب

اذا تصفحت كتاباً ثم نظرت فيه نظراً عاماً رأيته مؤلفاً من شيئين متباينين هما موضوعه ولغته أو أسلوبه أو هما معناه ولفظه . فال موضوع او المعنى هو الغرض الذي يريد المؤلف ايصاله الى ذهن القارىء . وأما الاسلوب فهو الآلة التي يستخدمها في

ايصال ذلك الغرض. فاذا عمد جماعة الى التأليف في الثورة العرابية مثلاً كان غرض كل منهم بيان تلك الثورة بما تقدمها او دعا اليها من الاسباب ثم ما توالى من حوادثها الى انقضاءها وما نجم عنها من العواقب السيئة او الحسنة. فاذا قرأت كتاب كل منهم على حدة رأيتهم يختلفون في كيفية تأدية تلك الحوادث وترتيبها باختلاف ما يعلمه كل منهم أو ما فطر عليه من طرق التعبير. وظهر لك تبان في أساليب التأليف وان يكن الموضوع واحداً. وقد تستحسن أسلوب بعضهم وتستهجن أسلوب البعض الآخر وهو الفرق بين مملكات الانشاء في الكتاب

واذا امعنت الفكرة في كتاب قرأته ونظرت في انشائه نظراً تحليلياً رأيت فيه أشياء تميز كلا منها عن الآخر وهي :

- (١) ترتيب الحوادث اجمالاً بالنسبة بعضها الى بعض. كأن يقدم الكاتب سبباً على آخر أو يبني حادثة على أخرى أو ان يذكر نتيجة كل حادث في أثر ذلك الحادث أو يجمع كل النتائج معاً. الى غير ذلك من أساليب الترتيب
- (٢) سرد كل حادث على حدة وترتيب جزئياته بالنسبة بعضها الى بعض بقطع النظر عن علاقته بالحوادث الاخرى

- (٣) تنسيق العبارات التي يتألف منها كل حادث جزئي باعتبار ربطها بعضها ببعض بين تقديم وتأخير على ما يراه الكاتب مؤدياً لما في ضميره
 - (٤) وضع الالفاظ في مواضعها بالنظر الى قواعد الاعراب والبيان كتقديم الفعل على الفاعل والمبتدا على الخبر مع ما يختاره من أساليب الاستعارة أو نحوها
- فاذا عرفت هذه الاقسام الاربعة وتدبرت كلاً منها على حدة علمت ان الثلاثة الاولى منها مرجعها في الغالب الى ذوق الكاتب الشخصي وهي قلما تكتسب بالدرس او المطالعة الا في احوال مخصوصة. اما القسم الرابع فهو وحده يمكن اكتسابه بالدرس وقد لا يكون الدرس وحده كافياً لاقتنائه

والانشاء بالمعنى الذي نريده انما يقوم بالاقسام الاولى ومدارها تنسيق المعاني وترتيبها على ما يوافق اذواق الناس بقطع النظر عن الاعراب أو البيان. فهو من هذه الحيثية ملكة غريزية لا تكتسب بالدرس كما قد يتبادر الى الذهن. ولكن الدرس وسعة الاطلاع يهذبها ويرقيان ذوق صاحبها فالكتابة في اعتقادنا ملكة غريزية كملكة الشعر. فالشاعر المطبوع تظهر

شاعريته ولو لم يعرف العروض وكذلك الكتاب المطبوع . لان المعنى صورة من صور الذهن والكتابة رسم تلك الصور على الورق والمعاني تخطر لعامة الناس كما تخطر لعلمائهم على تفاوت بينهم وكل منهم يعبر عن معانيه اما تكلماً او كتابة على اسلوب خاص به . فقد تقرأ عبارات أو تسمعها من اناس لا يعرفون علماً من علوم اللغة فتفهمها وتتأثر منها فترسخ في ذهنك وينشرها ذوقك لما تؤانس من تناسب أجزائها وتناسق معانيها وسهولة انشائها ما ربما لا تعثر عليه في عبارات بعض المتضلعين بعلوم اللغة

والمعاني ترجع في وضوحها وإبهامها الى حالة صورتها في ذهن الكاتب . فاذا كانت الصورة واضحة في ذهنه ظهر ظلها واضحاً في كتابته او تكلمه . واذا كانت مشوشة ظهر لك تشوشها في خلال سطره . ويكون ذلك غالباً في من يكتبون في مواضيع لم يحسنوا درسها . وقد يقرأ بعضهم مقالة لا يستطيع فهمها فيحسب ذلك بلاغة في الكتاب او سمواً في انشائه . ويظن اشكال فهمها عليه ناجماً عن جهل منه في أساليب الكلام . وعندنا ان توقف القارئ في فهم كتاب دليل على ضعف الكتاب وقصر باعه في موضوع ذلك الكتاب . حتى قد يستدل على تمكن الكاتب من موضوع كتب فيه من سهولة فهم ما يكتبه . فاذا قرأت مقالة ولم تستوعب معانيها فاعلم ان كاتبها لم يفهمها أيضاً الا في بعض الاحوال . اذ يكون الكاتب متضلعا في موضوع فيتوخى المبالغة في اختصار ما يكتبه حتى يمتنع فهمه على غير المتضلع . كما كان يفعل بعض علماء الكلام أو المنطق أو الفلسفة فقد تقرأ كتبهم ولا تفهمها الا بعد اعمال الفكرة والمراجعة . ولا تستطيع ذلك الا اذا كنت متضلعا في تلك العلوم . فمثل هؤلاء انما يكتبون لبيان تعمقهم في العلم لا لافادة القراء

وقد يخال لاول وهلة ان سبب ذلك التعميد متصل بطبيعة تلك المواضيع فلا يستطيع التعبير عنها باسسط من ذلك وهو الواقع في بعض العلوم ولكنه لا يمنع امكان الكتابة فيها ببساطة بسيطة كما يفعل الافرنج فانهم يتوخون البساطة والسهولة في اصعب المواضيع العقلية لانهم انما يكتبون لافادة القارئ . وكثيراً ما نفضل مراجعة بعض هذه المواضيع في اللغات الافرنجية لقرب تناولها مع ان منها في العربية مطولات شتى

فالعمدة في الانشاء على ترتيب اجزاء الموضوع وتنسيق العبارات بتناسق المعاني

مع السهولة والوضوح . وهي ملكة غريزية لا تكتسب بالمزاولة أو الصناعة للأسباب التي قدمناها . ولكل كاتب أسلوب خاص به يمثل سلسلة افكاره يعبر عنه الافرنج بقولهم (Style) وهو الذوق أو النفس في اصطلاح الكتاب فالكاتب يمتاز بذوقه ويعرف به ومن عانى الكتابة ودرس اذواق الكتاب سهل عليه تمييز الكاتب بمجرد مطالعة ما يكتبه . وقد يشرح المقالة اذا كتبها غير واحد وينسب كل قطعة منها الى كاتبها . ويقول العرب « ما قرأت كتاب رجل الا عرفت مقدار عقله فيه » ويقول الفرنسيون (Le style c'est l'homme) أي ان الاسلوب يمثل كاتبه . وأساليب الكتاب تختلف باختلاف سلاسل افكارهم فنمها السهل والسلس والبلغ والواضح والمعقد والمبلك والمشوش والريك فاذا قرأت عبارة حكمت لاول وهلة انها سهلة او مشوشة او واضحة او معقدة او غير ذلك

ويختلف أسلوب الانشاء باختلاف المواضيع . فالعلم الطبيعي يوافقه أسلوب لايوافق العلوم الادبية او الاجتماعية او التهذيبية وهما غير أسلوب المراسلات فيستبجح أسلوب الخطابة في بيان الحقائق الطبيعية او الرياضية او المنطقية كما يستهجن أسلوب الرياضيات والادب المنطقية في موقف الخطابة او المراسلات كما تقدم فالخطب وما يشبهها في أسلوبها من المراسلات أو كنب التحريض والتهديد لها نسق خاص يراد به إثارة العواطف واستنهاض الهمم كقول الامام علي مخاطب أصحابه يوم واقعة صفين :

« معاشر المسلمين استشعروا الخشية وتجليبوا السكينة . وعضوا على النواجز فانه انبي للسيف عن الهام واكملوا الأمة وقلقوا السيوف في اغماؤها قبل سلمها . والحظوا الخزر واطعنوا الثزر وناخفوا بالظبا . وصلوا السيف بالخطا واعلموا انكم بعين الله ومع ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فعادودا الكر واستجوا من الفرّ فانه عار في الاعقاب . ونار يوم الحساب . وطبوا عن أنفسكم نفساً . وامشوا الى الموت مشياً سجعاً وعليكم بهذا السواد الاعظم والرواق المطنب ... »

فمثل هذا الاسلوب لا يستحسن في بيان حقيقة طبيعية كايضاح أسباب المطر او سرد نواميس الجاذبية . ولا في اثبات قضية هندسية كالبرهان على ان مربع الوتر يعدل مربعي الساقين ولا في شرح فائدة طبية كتشخيص مرض الروماتزم او النقرس او نحوها ولا في بسط حقيقة تاريخية فان لكل مقام مقالاً

فعلى الكتاب الاديب ان يفهم ذلك ويتدبره فلا يضع الاشياء في غير مواضعها فيذهب سعيه في خدمة العلم هباءً منثوراً

اللغة العربية الفصحى

واللغة العامية^(١)

قرأنا لجباب المستر وليم ولكوكس خطبة تلاها في كلوب الازبكية ودرجتها جريدة الازهر الغراء في عددها الاخير الصادر في الشهر الماضي وموضوع تلك الخطبة «لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن» وقد أفاض حضرة الخطيب في ذكر الاسباب المانعة لتلك القوة ثم أتى على ذكر العلاج وعدد الطرق المؤدية الى ايجادها. وليس من غرضنا الخوض في شيء من مآل تلك الخطبة الا فيما يتعلق باللغة العربية

فقد قال حضرته ان من جملة العوامل في فقد قوة الاختراع عند المصريين استبقاؤهم اللغة العربية الفصحى واثار باغفالها واستبدالها باللغة العامية اقتداء بالامم الاخرى وذكر منها نوع خاص الامة الانكليزية وقال انها استفادت افادة كبيرة باغفال اللغة اللاتينية التي كانت لغة الكتابة عندها واستبدالها باللغة الانكليزية الحاضرة وعندنا ان المستر ولكوكس لم يصب المرمى في رأيه من هذا القليل لأن ما صدق على اللغة الانكليزية لا يصدق على لغتنا لاسباب كثيرة نذكر منها

اولاً ان الانكليز باستبدالهم اللغة اللاتينية باللغة الانكليزية قد استبدلوا لغة اجنبية بلغة وطنية وليس كذلك الحال في اللغة العربية فان الفرق بين لغة الكتابة ولغة التكلم عندما ليس بالشيء الكبير وقد لا يكون اكثر من الفرق بين لغة كتاب الانكليز ولغة عامتهم الذين لا يعرفون القراءة

ثانياً ان استبدال اللغة العربية الفصحى باللغة العامية اذا اقتدنا من شر فائد يوقننا في شر اعظم منه لان الناطقين بالعربية تختلف لغتهم العامية باختلاف الاصقاع والفرق بين لغة مصر والشام ليس باقل من الفرق بين اللغة الفصحى واللغة العامية

وكذلك بين لغة احد هذين البرين ولغة بلاد المغرب أو الحجاز أو غيرها من البلاد العربية ولا يخفى ما بين هذه الاقطار العربية من العلائق الادبية والمدنية والسياسية فباستبدالنا اللغة الفصحى باللغة العامية المصرية مثلاً نحرم أبناء بر الشام وبلاد المغرب من فائدة ما نكتبه في تلك اللغة وهكذا لو استبدلناه باللغة العامية الشامية او المغربية او الحجازية واذا لم نخسر بذلك الا الجامعة العربية فكفى بها خسارة

ثالثاً ان اللغة في كل أين وآن تتبع لحالة عقول الناطقين بها ارتقاء وانحطاطاً فلغة العامة منحطة بنسبة انحطاط افكار الناطقين بها وليس لها ان تقوم مقام اللغة الفصحى ولا سيما العربية لأنها ارقى لغات العالم وفيها من اساليب التعبير ما تعجز لغة العامة عن القيام بمثله . فاذا أردنا تدوين العلوم على أنواعها باللغة العامية كما ارتأى حضرة الحنبليل فلا أظنها تقوم بتأدية المعاني الكتابية كما يجب ومن أين نأتي بالالفاظ التي نعبّر بها عن الاصطلاحات العلمية ولا سيما الحديثة منها وقد كادت تعجز اللغة الفصحى عن القيام بها . فاذا قال انتبا ندخل اليها تلك الاصطلاحات نقول ان الاصطلاحات المشار اليها ليست بالشيء القليل وانما هي قسم عظيم من اللغة ولا سيما لغة العلم فان معظمها اصطلاحات علمية . وتعليم العامة الفاظ اللغة الفصحى كما هي أسهل من تعليمهم الاصطلاحات العلمية وادخالها الى لغتهم وهذا شأن اللغة في سائر انحاء العالم . والمستر ولكوكس يعلم ان الكتب العلمية العالية المكتوبة بالانكليزية الآن لا يستطيع عامة الانكليز فهمها مهما بولغ في ايضاحها وبسطها وذلك دليل على أن بين العامة والخاصة حجاباً لو حاولنا حسمه عادت الطبيعة فسدلته

رابعاً ان الجامعة العربية قائمة بالمحافظة على اللغة الفصحى اذ لولا القرآن الشريف والمحافظة عليه منذ صدر الاسلام وعودنا إليه في اصلاح ما تفسده الطبيعة من لغتنا لتشتت شمل الشعب العربي واصبح كل قطر من الاقطار العربية مستقلاً عن الآخر لا يفهم لغته كتابة ولا تكلماً كما حصل بالامم التي كانت تتكلم اللغة اللاتينية فقد أصبح لكل منها لغة مستقلة لا تفهمها الامة الاخرى مثال ذلك فرنسا وايطاليا واسبانيا وغيرها والفضل الاكبر في حفظ الجامعة العربية الى الان القرآن الشريف والمحافظة عليه

خامساً ان اغفال اللغة الفصحى يستوجب اغفال كل ما كتب فيها من العلوم على أنواعها منذ الف وثلاثمائة سنة وهي خسارة لا تموض مهما قيل في فائدة اللغة العامة في الكتابة

فيتضح مما تقدم ان استبدال اللغة العربية الفصحى باللغة العامية رأي اغفاله اولى بنا ليس فقط لكونه عقيباً بل لانه مضر باللغة والناطقين بها علمياً ودينياً وأدياً

على اننا لا يليق بنا ختام الكلام في هذا الباب قبل الاشارة الى ما طالما شكواه من توخي بعض الكتاب اختيار الالفاظ المستهجنة المهجورة اما اظهاراً لبراعتهم في حفظ مفردات اللغة واما احياء لالفاظ طوتها يد الايام لما اقتضته حالة الحضارة وتنوع احتياجات الناس . فاذا قال المستر ولكوكس انه انما أراد اغفال مثل هذه اللغة فاننا نوافقه فيه ونؤيد قوله لان استعمال الالفاظ المستهجنة يحول دون الغاية المقصودة من تلك الكتابة ولا سيما في المواضيع العمومية كالكتب التاريخية والقصص الادبية اما في المواضيع العلمية العالية فان الضرورة تبيح لهم استخدام الالفاظ الوضعية لما وضعت له بغير تساهل وعلى الخصوص لان تلك المواضيع انما يقرأها أفراد من خاصة الناس وهم مكلفون بمعرفة أوضاعها واصطلاحاتها

وأما في القصص والروايات والتواريخ وسائر المواضيع الادبية العمومية فالكتاب مكلف باتباع الالفاظ التي تفهمها العامة مع مراعاة جانب اللغة والاعراب فاذا عرض للكتاب معنى له لفظان الواحد مهجور والآخر مألوف فانه مطالب باغفال المهجور واستعمال المألوف وتلك قاعدة من قواعد الانشاء الصحيح لا نخفي على حضرات الكتاب فبدلاً من أن نقول « وجلس سجاح وجهه » نقول « وجلس تجاه وجهه » لمطابقة سجاح وتجاه المعنى المقصود زنة ومعنى وعندنا ان المجاوزة الى ما وراء ذلك واستخدام كلمتين او ثلاث مألوفة تؤدي معنى مراداً أفضل من استخدام كلمة واحدة مهجورة تؤدي ذلك المعنى وان خالفنا في ذلك على نوع ما قاعدة من قواعد البلاغة لاننا نتمكن من الجهة الثانية من افهام المطالع اذا كان عامياً او غير عامي ما أردنا فهمه بدلاً من أن نحمله على الملل من القراءة والتفاسس عن المطالعة ونحن نود مواظبته عليها لتحصل الفائدة المقصودة من كتابتنا . ويجب علينا فهم المقصود بالذات من كتابة الكتب الادبية للعامة باننا انما نريد بذلك اكتسابهم المبادئ الادبية او التاريخية لا تعليمهم الفاظ اللغة وقواعدها لانهم في غنى عن ذلك لاشتغال كل منهم بعمل يعمل به لأود حياته ولا حاجة به الى دخائل اللغة . اما من أراد منهم درس قواعد اللغة

ومفرداتها فهناك كتب خاصة بذلك فليعتمد عليها
وخلاصة القول ان المواضيع العلمية العالية لا غنى لكتاب فيها عن الاركان الى
ما وضع لكل علم من الاوضاع والاصطلاحات ولا مندوحة له عن استعمالها فهمها
العامي او لم يفهمها على ان العامي في غنى تام عن هذه المواضيع لبعدها عن مداركه
واحتياجاته

أما المواضيع التاريخية والادبية العمومية وما جرى مجراها فالكتاب فيها
مطالب تجنب كل ما يحول دون فهمها لدى الخاص والعام فيجب أن تكون عبارته
فيها بسيطة واضحة سلسلة خالية من كل تعقيد حتى تكون المعاني جلية للمطالع كل
الجلاء لا يحتاج في فهمها الى التوقف لحظة او مراجعة معجمات اللغة والا فان عجز
الكتاب عن ذلك يعد نقصاً في واجبات صناعته

ونحن في موقف نلتبس فيه لحضرة المستر ولكوكس عذراً على ما ارتآه لانه
على ما نظن انما حكم بافضلية استبدال اللغة الفصحى باللغة العامية لما رأى في بعض
الكتب من التعقيد من مثل ما تقدمت الإشارة اليه

على اننا لو سرنا في كتابتنا على الحطة التي اشرنا اليها بحيث نجعلها بسيطة واضحة
مع مراعاة جانب اللغة والاعراب ما تركنا لحضرتة او لسواه باباً للاعتراض او وجهاً
لابداء مثل ذلك الرأي والله سبحانه وتعالى أعلم

اللغة العربية

والتعليم في مصر^(١)

لا غرو اذا أكثرنا من الحث على تأييد اللغة العربية لانها قوام الامة العربية او
العنصر العربي ولا بقاء للامة الا بقاءها . ولا حياة للسان العربي الا بمصر لانها محور
العالم العربي . واذا قدر لهذه اللغة ان تنهض فعلى مصر الواجب الاول في انماضها .
كانت اللغة العربية من أوائل القرن الماضي الى أواخره قاعدة التدريس في المدارس

الكبرى في مصر والشام . كانت المدارس الاميرية وغير الاميرية بمصر والمدرسة الكلية الاميركية واليسوعية وسائر المدارس الكلية في بيروت وغيرها تعلم الطبيعات والتاريخ والرياضيات والطب والصيدلة والهندسة والحقوق وسائر العلوم باللغة العربية . فنبغت طائفة من الكتاب والعلماء في هذا اللسان بمصر والشام وألفوا الكتب العلمية وأنشأوا الجرائد والمجلات العربية . ودبت روح الرقي الحقيقي في عروق هذه الامة وتعلقت الآمال بمستقبل مجيد

لكن هذه الامال أخذت في الزوال منذ بضع وعشرين سنة بعدول هذه المدارس عن هذه اللغة في تدريس العلوم العالية . بدأت بذلك المدرسة الكلية الاميركية في بيروت فجعلت قاعدة التدريس اللغة الانكليزية . وهكذا اليسوعية جعلت التدريس بالفرنساوية . ثم المدارس المصرية فجعلت التعليم في كلتا هاتين اللغتين . ثم أخذت الانكليزية تتغلب فيها رويداً رويداً ولا تزال . وحجة هذه المدارس في هذا التغيير قلة الكتب التعليمية في اللغة العربية وكثرتها وأتقانها في اللغة الاجنبية . وهو عذر وجيه لاننا مهما بلغ من ارتقائنا العلمي لا تزال وراء تلك الامم بمراحل لانهم سبقونا منذ احيال فاصبح اللحاق بهم صعباً . الا اذا أخذنا عنهم - وتمشينا على خطواتهم ويسهل ذلك خصوصاً اذا تلقنا تلك العلوم وتبعناها بألسنتهم رأساً

تلك حجة مقبولة لدى طالب العلم ان لم يكن غرضه غير التفقه واستنارة الاذهان . ولكن التعليم يراد به شيء آخر لا يقل أهمية عن ذاك . نعني ترقية شؤون الامة وجمع كلمتها واحياء آمالها ليكون لها شأن بين سائر الامم . وهذا لا يكون الا بترقية لسانها واحياء آدابها بتأليف الكتب العلمية والادبية وانشاء الصحف والمجلات فيه . ولا يتيسر لها ذلك الا اذا كان هو قاعدة التدريس في المدارس الكبرى فضلاً عن الصغرى فكيف اذا لم تعلم فيه هذه ولا تلك ؟ - تلك كانت حال المدارس بمصر والشام الى عهد غير بعيد

أصبح التعليم بمصر منذ بضعة أعوام كله في اللغة الانكليزية او الفرنسية حتى مبادئ التاريخ والجغرافيا والحساب . وأوشكت العلوم العربية نفسها أن تعلم باللسان الاجنبي . فاحتجت الامة بلسان مجلس الشورى وأخذت الصحف بناصرها وكننا في جملة من خاض عباب هذا الموضوع وبيننا الضرر الناجم من اغفال اللغة العربية . فاهتمت الحكومة بهذا الشأن ووعدت وزارة المعارف اذ ذاك بإعادة التدريس فيها

ويداً رويداً لكنها لم تخط الا خطوات قليلة لا تشفي غليلاً

فلما صارت هذه الوزارة الى صاحب السعادة احمد حشمت باشا جعل همّه ترقية المعارف على العموم واهيا آداب اللغة العربية على الخصوص . فادخل تحسيناً هاماً على المدارس الاميرية . والتفت الى العامة فنظر في ما يحتاجون اليه مما يسهل عليهم أبواب الرزق . وإلى المرأة وما يساعدها على ترتيب منزلها وتربية أولادها فضلاً عن تعميم اللغة العربية في أكثر المدارس

على ان الامم الراقية و الراقبة في الارتقاء لا تاتي كل انكسارها على الحكومة بل تهض هي بنفسها وتنق من أموالها في ترقية ابنائها . ان جانباً كبيراً من جامعات اوربا انشأها رجال من اهلها وقفوا عليها الاموال وتضاعفت الاوقاف بتوالي الايام حتى صارت تعد بملايين الجنيهات . فضلاً عن المدارس الاخرى على اختلاف طبقاتها فان للامة دخلاً عظيماً في انشائها أو الانفاق عليها

هكذا فعل الافاضل الذين بذلوا أموالهم في انشاء الجامعة المصرية بذلوا بسخاء ورغبة لانهم يشعرون بحاجة الامة الى التعليم الراقى . وقد شعرنا بذلك فاقترحنا منذ بضع عشرة سنة انشاء مدرسة كبرى لترقية اخلاق الامة وتهذيب عقولها - أردنا بها مدرسة كلية داخلية على شكل كلية بيروت تعلم الشبان وتربي اخلاقهم . فلما نهضت الامة لانشاء تلك المدرسة لا ندري من أشار بان تكون « جامعة » وان يقلدوا بها جامعات اوربا الكبرى بان يكون فيها التعليم خطاباً تافهاً وينصرف الطلاب الى شؤونهم بلا تحريص ولا تسميع . فظهرت لسنيتها الاولى أشبه بالنادي الادبي منها بالكلية العلمية فانتقدنا ذلك في الهلال الخامس من سنة ١٧ (فبراير سنة ١٩٠٩) في مقالة ضافية بينا فيها ان طريقة الجامعة وعلومها لا تفي بحاجة البلاد واقترحنا تعليم الطبيعيات والرياضيات بفروعهما . واطهرنا ما يترتب على تعلمها من تثقيف العقول وألحنا في التوسع في العلوم الاخرى . واقترحنا أن تكون المدرسة داخلية يدخنها الطالب يتلقى فيها العلوم ويتمرس بأسباب الترقى ويحجم بالآداب النافعة

فكان لندائنا صدًى لدى مجلس ادارة الجامعة فعدلت بروغرامها وجعلت للعلوم الطبيعية حظاً بين العلوم التي قررت تدريسها للسنة التالية . وارسلت شباناً يتلفون تلك العلوم في اوربا على نفقتها حتى يعودوا ويعلموا تلك العلوم فيها . فدلنا ذلك على تعقل المجلس المذكور ورغبته في تطبيق أعماله على حاجة الامة وصرنا نتوقع أن يغير طريقة

التدريس الى ما يلائم حاجة الامة فلم يفعل . ودل الاختبار في السنين التي مضت منذ انشاء الجامعة ان هذه الطريقة غير وافية بحاجة البلاد لان الطلبة يتناقصون كل عام عما قبله حتى اصبحوا يعدون على الاصابع . فلا بد من اعادة النظر في أمر هذه الجامعة وعلومها وطرق تدريسها . وتقدم بذلك الى مجلس ادارتها فانهم وجدهم المسؤولين عن هذا المعهد العلمي لدى الامة التي وضعت ثقفتها فيهم وعهدت بادارته اليهم

نحن لا نشك في صدق نية حضراتهم في خدمة الامة . ولكن صدق النية وحده لا يكفي لقيام الاعمال . ان سبعة آلاف جنيه تنفق على التعليم كل عام ينبغي أن تظهر أثمارها . لا ندرى ما أعدته الجامعة لهذا العام من التحسين لكنها في كل حال تحتاج في نظارنا الى تعديل أساسي بتغيير بروجرامها حتى يوافق حاجة البلاد . ونحن نعلم ان اعضاء مجلسها يعملون مجاناً وبمضهم نفق المال من جيبيه في خدمتها والرئيس أعزه الله يسافر كل عام وكابد مشاق الاسفار ونفقاتها في هذا السبيل - هذا كله مسلم وبدل على صدق نية المجلس وغيرته . ولكن يظهر من مجاري الاحوال انه لم يهتد بعد الى الخطة الملائمة لهذا الوسط . فنستأذنهم في ابداء ما يعن لنا من هذا القبيل ونرجو أن لا يسوءهم ذلك لاننا شركاء في هذه الخدمة وانما نعمل معاً لمصلحة هذه الامة

اذا اتقننا طريقة التعليم في الجامعة المصرية وقلنا انها لا تقيدنا فلا نريد انها لا تقيد غيرنا لانها الطريقة التي سارت عليها معظم جامعات اوربا . ولكن المطلوب ممن يريد ادخال حسنة من حسنات التمان الحديث الى الشرق ان يكيفها حتى تلائم طبائع أهله وتوافق مصالحهم ويسهل تناوؤها عليهم . لا ان يقدمها لهم كما هي اذ لكل أمة أحوال تختلف عما للآخرى

وحاجة هذا القطر كما قلنا مراراً انما هي الى ترقية النفوس وتدريب الشبيبة على العمل وتعليمهم قيمة الوقت وتدريب عقولهم على التميز بين الصحيح والفاقد . وهذه وامثالها لا تنال باستماع الخطب في آداب اللغة أو تاريخ الحضارة أو الفلسفة - ليس لان هذه العلوم لا ترقى العقول بل لان الطلبة عندنا غير مستعدين لفهمها والاستفادة منها لانها فوق ما يحتاجون اليه . كما أنهم لا يستفيدون الفائدة المطلوبة من المدارس الابتدائية والثانوية المصرية وما يلقى في الجامعة الان . وهذا الذي نريده بالانشاء

المدرسة الكلية العلمية لأنها تتكفل بسد هذا الخلل . والفرق بينها وبين المدارس الثانوية التي تمنح شهادة البكلوريا بمصر أنها أرقى كثيراً ولا سيما في العلوم الطبيعية والرياضيات التي ترتقي بها عقول الشبان وتعود النظر الصحيح والحكم المعقول فالبلاد في حاجة الى مدرسة علمية علومها أرقى من علوم المدارس الثانوية المصرية وتكون داخلية يتربى فيها التلامذة على الاخلاق الراقية والآداب الصحيحة ويحمل بها التلميذ على الدرس كرهاً وينشأ في وسط يكون أساتذته مثالا في الاخلاق السامية فضلاً عن العلم . وتكون هذه المدرسة مدرسة تعليم وتربية يدخلها الطالب لدن العود لين العربية فلا يزال يتلقى العلم ويتمرس بأسباب الترقى وبطبع على الاقدام وسائر الفضائل حتى يخرج مثقفاً قوي الارادة نشيطاً مستقلاً الفكر هماماً يحب وطنه ويتفانى في خدمته . هذا لا يتأتى بالحضور الاختياري لسماع الخطب لان معظم هذه المناقب تنال بالقدوة والمباحثة والمعايشة والمناقشة اثناء الليل وأطراف النهار . وبالجملة اتنا في حاجة الى مدرسة يسبك فيها الطالب سبكاً في قالب جديد يوافق مصلحة بلاده .

هذه هي المدرسة التي نحن في حاجة اليها فنقترح على مجلس ادارة الجامعة ان يحولوا اسم « الجامعة المصرية » الى « الكلية المصرية » ويجعلوا بروغرامها مثل بروغرامات الكليات العلمية الحقيقية . واذا أرادوا ان يكون ذلك البروغرام أقرب الى حاجة بلادنا فليجعلوه مثل بروغرام المدرسة الكلية الاميركية في بيروت مع ما تقتضيه حال مصر من التعديل . انما يشترط ان يكون تعليمها باللغة العربية فتكون لها مزية على سائر المدارس الكبرى بمصر والشام من حيث احياء الآداب العربية لاسباب تقدم بياناها

وفي صندوق الجامعة الآن بضعة وعشرون الف جنيه غير الاوقاف ولها ربع ثابت يزيد على سبعة آلاف جنيه وهذا رأس مال كاف للشروع في هذا العمل . فينفق من المال المجموع لانشاء المعارض العلمية اللازمة لتلامذة الطبعيات والتاريخ الطبيعي وأدوات الكيمياء وغيرها . ويشرع في اقامة بناء خاص للجامعة . وقد علمنا ان الحكومة ستهب الجامعة أرضاً واسعة في محل مناسب ولعلمنا تساعدنا في البناء ايضاً . والا فالجامعة تبنيها مما تجمع من التبرعات بتوالي الاعوام . وتتفق من الربيع السنوي على روائب الاساتذة مما لا يمكن تحديده تماماً . ولستنا على ثقة من ان ذلك كاف

للسروع في انشاء الكلية العلمية . ثم تنشأ الكليات الاخرى في الفروع الاخرى من العلوم العالية حسب الحاجة . وبعد ذلك يتألف من مجموع هذه الكليات « الجامعة المصرية »

هذا ما نراه وقد يكون في حاجة الى تعديل او تنقيح فلا بأس من المناقشة فيه . لكنه صحيح في أساسه وهو تحويل الجامعة المصرية الى كلية علمية مصرية تعلم العلوم الراقية في اللغة العربية فتحيي موات هذه اللغة بل تحيي الامة العربية . لان منها يخرج المعلمون لمدارس فرعية تربي الناشئة على خطتها ومنهجها فلا يمضي زمن طويل حتى تنتشر تلك الروح الراقية في الامة مما نبكي عليه الآن ونتمناه - والله ولي الامر

كتاب العربية وقراؤها^(١)

مرَّ على اللغة العربية دهور طوال تقلبت فيها بين الزهو والحمول والحبس والذبول تبعاً لما اقتضته الأحوال وما تقلب أهلها عليه من الرغد والرخاء والضيق والعناء لأن اللغة كما لا يخفى تسعد بسعادة أهلها وتشقى بشقاؤهم فإذا سادت الامة واعتز ملكها انطلقت ألسن عقلائها وانبرت أفلامهم فيرقون منابر الخطابة ويتسابقون في ميادين الكتابة وإذا ضربت عليهم الذلة والمسكنة انعقدت السننهم وتكسرت أفلامهم وخيم الجهل عليهم . يشهد بذلك تاريخ اللغة العربية من ظهور الاسلام الى الآن فقد كانت في أعصر الجاهلية مبعثرة ضائعة حتى ظهر الاسلام وانتشرت اعلامه واستولى المسلمون على خزائن العلم الرومانية واليونانية والفارسية والمصرية فجمعوا شتات اللغة وهموا باستخراج تلك الكنوز ولكن الحروب المتواصلة شغلهم عن الخوض في عباها فلما استتب لهم الملك في عصر العباسيين وقد تأيدت شوكتهم وخضعت دول الارض لمرهقات سيوفهم عكفوا على تلك العلوم فنقلوها الى لسانهم وأخذوا في التأليف والتصنيف ثم قضت سنة الله في خلقه بانتقال صولجان الملك وعرش السيادة الى دول الاعاجم فدالت دولة العرب واخذت عقول رجالها في الذبول والتقهر ومالت شمس اللغة العربية حتى كادت تؤذن بالزوال لو لم يقبض لها الله رجل الاصلاح

المغفور له محمد علي باشا مؤسس العائلة المحمدية العلوية في أوائل هذا القرن فاقضت مقاصده احياء موانها ونشر أعلامها فانشأ المدارس وأمر بترجمة الكتب وتأليف المؤلفات واتفق على أن ذلك قدوم جالية الافرنج الى ربوع الشام في أواسط هذا القرن فانشأوا المدارس وتسايقوا الى تعليم الشبان والشابات تسابق أهل التجارة الى ترويح سلعهم فزهت تلك الربوع بالعلم والمعرفة وكثر المؤلفون والكتب وأنشئت الجرائد والمجلات في القطرين المصري والسوري وهي النهضة العلمية الاخيرة التي بزغت شمسها في سماء هذا القرن

ولو تتبعنا تاريخ آداب اللغة العربية في العصرين العباسي والاندلسي وقابلناه بتاريخها في هذا العصر لرأينا بينهما مشابة كبرى لان العرب في العصور الاولى أخذوا علومهم عما تركه اليونان والرومان والفرس والمصريون والسريان وغيرهم فبدأوا بنقل الكتب الى لسانهم فكان أول كتبهم المترجمون فلما استوعبوا تلك العلوم وأتقنوها وأكثروا من التبحر فيها عكفوا على تلخيصها وتحريرها على ما يلائم تمدنهم ثم أخذوا في التأليف والتصنيف ما خلا العلوم التي اقتضاها تمدن الاسلامي كالتفسير والحديث والفقه وغيرها فان العرب وضعوها من عند أنفسهم

والظاهر ان ذلك طبيعي في تاريخ العمران عند كل امة أخذت العلم عن غيرها فانهم أول ما يبدأون بترجمة كتب ذلك الغير حرفياً لا يلاحظون في ترجمتها ما لا بد منه بين الالئم من اختلاف الازواق والموائد والاخلاق فاذا تدبروها وتشتفت عقولهم بها ادخلوا في ترجمتها بعض التحوير فصاروا اذا ترجموا كتاباً لخصوه وفقاً لاذواق قرائهم حتى يتمكنوا من تلك العلوم وتكثر تلك الكتب في لسانهم فيعمدون الى جمع الحقائق من كتب متعددة الى كتاب واحد وهو التأليف ثم يصير العلم ملكة فيهم فيكتبون من عند أنفسهم وهو التصنيف . ولكنهم اذا ألفوا او صنفوا انما ينسجون على منوال الكتاب الذين اخذوا العلم عنهم فيسرون على خطواتهم في كل ما يشرون فيه من الاعمال العلمية او الادبية . فتمر الامة في صناعة الكتابة على أربعة أدوار وهي الترجمة فالتلخيص فالتأليف فالتصنيف

ومثل ذلك يقال في نهضة هذا العصر فان أهله فتحوا أعينهم فراوا شمس المعارف مشرقة من الغرب فلم يجدوا سبيلاً الى اكتسابها الا بتعلم لغات الافرنج ثم أرادوا نقلها الى لسانهم فمكفوا على ترجمة ما وصلت اليه أيديهم على ما اقتضته

احتياجهم ثم عمدوا الى المكتابة فيها على ما يوافق اذواق المشاركة بين تلخيص وايضاح ثم قلدوهم بانشاء المشروعات الادبية كالمدارس والجمعيات وتأليف الكتب وانشاء الجرائد ونحوها

ولكن بين علوم هذا العصر وعلوم عصر العباسيين تبايناً لا ينطبق معه الحس في عصرهم عليه في عصرنا انطباقاً كلياً لان العلوم بمرورها في قارة اربا السنين الطوال تنوعت وتفرعت وتضاعف عددها وتبدلت مواضعها حتى صارت تعد بال عشرات وفيها شيء كثير مما لم يكن معروفاً في تلك العصور . فهي تنقسم الى ثلاثة أقسام كبرى (١) انطبيعات (٢) الادبيات (٣) الدينيات . والطبيعات تشمل كل ما يبحث في الطبيعة وموجوداتها ونواميسها كال فلسفة الطبيعة والكيمياء والجيولوجيا والفلك والتاريخ الطبيعي والجغرافيا الطبيعية والطب بفروعه والصيدلة وغيرها . والادبيات تشمل التاريخ وفلسفته والجغرافيا وعلوم اللغة بفروعها والفلسفة الادبية والعقلية واللغوية والمنطق والرياضيات وعلم الاخلاق والسياسة والقضاء وآداب السلوك وعلم الاقتصاد السياسي وعلم العمران والتربية وغيرها . والدينيات تشمل علوم الدين على انواعها وهي لا تدخل في بحثنا

فالعلوم الطبيعية قد بلغنا فيها الدور الثاني ولم نتجاوزه بعد فاذا كتبنا فيها انما نترجم ما كتبه الافرنج أو نلخصه وقتما نؤلف ولكننا لا نصنف فيها أبداً لان التصنيف في هذه العلوم عبارة عن الاكتشاف أو الاختراع وهو بعيد عنا حتى الآن . أما العلوم الادبية فقد ارتقينا في معظمها الى الدررين الثالث والرابع فقد نؤلف في التاريخ والجغرافيا وفي علوم اللغة والقضاء أو الاخلاق وقد نصنف في الفلسفة الادبية أو فلسفة التاريخ وغيرها ولو على قلة . ومن هذا القبيل المقالات الادبية والاجبحاث السياسية أو التهذيبية أو الاقتصادية . على أننا لا نعرف حداً فاصلاً بين هذه الادوار فقد يكون بين كتابنا من لا يزالون في الدور الاول أو الثاني وقد ترى بينهم من أدرك الثالث أو الرابع

والمترجمون والمخلصون هم اكثر كتابنا عدداً واقدمهم على الكتابة . والترجمة اذا روعيت فيها شروط الاختيار اكثر فائدة لنا من التأليف او التصنيف لان مؤلفات الافرنج في العلوم الحديثة أوفر مادة وادق بحثاً مما قد نكتبه نحن فضلاً

عما يقتضيه التأليف أو التصنيف من البحث والتنقيب والمراجعة والدقة بالنسبة الى الترجمة . فاذا نقلنا كتاباً في الطبيعيات من الفرنسية الى العربية مثلاً فنكون قد ربحنا اتعاب مؤلف ذلك الكتاب على أهون سبيل فضلاً عن الكتب المؤلفة في موضوع خصوصي من اناس بذلوا سني حياتهم في جمع حقائقه مثل مؤلفات المخترعين والمكتشفين العظام فهذه لا تستغني امة من امم الارض عن ترجمتها

وقد يتبادر الى الذهن ان الترجمة أو التلخيص من أسهل ضروب الكتابة لانها انما تحتاج الى معرفة لغة أو أكثر من لغات اوربا وذلك ميسور لسائر أبناء هذا القرن . فمن توهم ذلك فقد ارتكب خطأ فاحشاً لان المترجم لا يحسن الترجمة الا اذا كان معلماً بالموضوع الذي يختار الترجمة فيه والا فترجمته فاسدة قلما تأتي بفائدة وقد تضر . نعم ان الترجمة لا تحتاج الى بحث أو تنقيب ولكنها تحتاج الى تدبر وحسن اختيار ليكون ما ترجمه موافقاً لاذواق القراء مثقفاً لعقولهم ومهذباً لآخلاقهم مع اللذة والفائدة فقد يقرأ أحدنا كتاباً في بعض اللغات الافرنجية فيلتذ لمطامعته أو يتوهم النفع منه فيعمد الى نقله وطبعه ونشره فاذا ظهر في عالم المطبوعات لم يجد من يقرأه فينقم على العلم وبرجي القراء بالجهل ويزعم انه أراد خدمتهم فلم يقدروا اتعابه حق قدرها ولعل هذا هو السبب فيما ينسبه بعض الكتاب الى أبناء هذا الجيل من الانغماس في الجهل والنقاعد عن المطالعة وعندنا ان القراء عديدون والاقبال على الكتب كثير ولكن الخطأ من الكتاب لانه لم يحسن الاختيار

والكتب التي قد براد ترجمتها اما أن تكون طبيعية أو أدبية (فالكتب الطبيعية) كثيرة في لغات الافرنج ومعظمها من خيرة المؤلفات واكثرها فائدة ولكن بعضها لو نقل الى اللسان العربي لم يبلغ عدد قرائه بضع عشرات كما لو أراد أحدنا ترجمة مؤلفات العلامة داروين الفيلسوف الطبيعي الشهير فانها في المنزلة الاولى بين الكتب الطبيعية ولكن مترجمها لا يجني من اتعابه الا خسارة الوقت والمال معاً لالجهل القراء قدرها ولكن مواضيعها عويصة لا يدركها الا المتبحر في الفلسفة الطبيعية والتاريخ الطبيعي والطب وغيره وقل أن يكون بيننا من اتقن هذه العلوم الا وهو يحسن لغة أو أكثر من لغات الافرنج فيفضل مطالعة هذه الكتب فيها لان للانشاء في لغة طلاوة يخمرها بالترجمة الى لغة أخرى وقس على ذلك مؤلفات كثيرين من العلماء الطبيعيين في سائر لغات اوربا . فاذا عزم أحد كتابنا على ترجمة شيء من هذه

الكتب الى العربية فليختر أصغرها حجماً وأسهلها تناولاً لأن قراءه اكثرهم من عامة الناس لا من علماءهم وهكذا فعل استاذنا المرحوم الدكتور فانديك في كتابه « النقش في الحجر » فقد لخصه في شيخوخته بعد طول اختباره وبخنه في كتب افرنجية في تسعة أجزاء صغيرة جعل كلا منها في علم على اسلوب تفهيمه العامة وترضى به الخاصة وقد وجد بالتجربة والاختبار انه أفضل كتاب في بابه

وقد يعترض بعضهم بان الاختصار على هذه المؤلفات الصغيرة لا يؤمل معه وصول لغتنا الى ما وصلت اليه لغات أوروبا من الغنى بالعلم فالجواب على ذلك أن لغتنا من هذا القبيل لا تزال بمنزلة الطفل عند أول فطامه لا تقوى معدته على هضم الاطعمة الضخمة وإن كانت كثيرة الغذاء فهل تطعم طفلك رطلاً من اللحم أو دجاجة أو سمكة لكثرة غذائها أم تعتبر قوة معدته على الهضم فلا تطعمه الا اللبن او المرق أو نحوه فإذا اشتد ساعده وقويت معدته تدرجت في تغذيته شيئاً فشيئاً . وهذا هو شأن اللغة العربية والعلوم الطبيعية فان اللغة لا تزال في أول فطامها وهي في حاجة الى المؤلفات الصغيرة السهلة فإذا تنقف أهلها وتعلموا تدرجوا في نقل الكتب العالية . ولا يرحى ذلك الا بتعليم هذه العلوم مطولة بالمدارس العالية في اللغة العربية فيخرج الشبان وقد استوعبوا هذه العلوم وأصبحوا قادرين على فهم العويص منها كما كانت تفعل المدرسة السورية بيروت منذ بضع عشرة سنة فقد كانت تعلم هذه العلوم فيها باللغة العربية وكانت تعقد الاجتماعات العلمية في قاعاتها يناقش فيها التلامذة في العلوم على أنواعها وليس بين تلامذة هذه المدرسة ممن تخرجوا فيها قبل هذا التاريخ الا من يستوعب أي كتاب علمي قرأه في اللغة العربية ولو كان عويصاً وإذا تدبرت ما ألف من هذه الفنون في لغتنا لرأيت من أعمار تلك الايام وترى من الجهة الاخرى ان المؤلفات الطبية والطبيعية المطبوعة في سوريا باللغة العربية قبل خمسة عشر عاماً انما هي من تأليف اساتذة تلك المدرسة أو بعض تلامذتهم . ولكننا نعلم الاسف نقول انها عدلت عن هذه الخطة منذ بضع عشرة سنة فاصبح تلامذتها من ذلك الحين يخرجون منها وعلومهم في صدورهم قلما يستطيعون نشرها بين اصحابهم بلسانهم فهم بالطبع لا يستطيعون الكتابة فيها نعم انهم اذا قرأوا كتاباً علمياً في العربية فهموه ولكن من يكتب لهم تلك الكتب وهم الذين يرجي منهم التأليف فيها . فتعلم العلوم الطبيعية في المدرسة الكلية باللغة الانكليزية قد أضرَّ باللغة العربية ضرراً بليغاً .

ولا نستثنى من هذا اليوم المدارس الاخرى العالية كمدرسة الآباء اليسوعيين فانهم على رغبتهم في نشر آداب اللغة العربية نراهم قد أغفلوا أمر العلوم الطبيعية فيها أما مصر فقد سبقت سوريا وغيرها من البلاد العربية الى ترجمة الكتب الطبيعية وأول من سعى في ذلك المغفور له محمد علي باشا فكان يأمر بترجمة الكتب العلمية من الفرنسية أو الإيطالية ثم يطبعها على نفقته وقد اقتدى به خلفاؤه على الأريكة الحديثة فقلوا كتباً مطولة في الطب وفروعه والتاريخ الطبيعي والكيمياء كانت معتمد أهل اللسان العربي في دراسة هذه العلوم بسائر بلاد المشرق وما زالت المؤلفات تتكاثر في هذه الفنون الى زمن الثورة العربية فزهدت مصر بالكتاب والخطباء وأرباب الأقلام حتى اذا كان الاحتلال الانكليزي انصرفت العناية الى نشر اللغة الانكليزية في وادي النيل وكانت العلوم الطبيعية وغيرها تعلم بالمدارس الاميرية باللغة العربية ففي حوالي سنة ١٨٩٠ قررت نظارة المعارف العمومية ان لا تعلم تلك العلوم الا باحدى اللغتين الانكليزية أو الفرنسية وهما تعلمان في المدارس الاميرية

ومن الاسباب التي بنوا عليها العدول عن تعليم العلوم بالعربية واستبدالها بالفرنسية ثلاثة (١) ان تعليم تلك العلوم بلغة اجنبية يساعد التلامذة على اتقان تلك اللغة والتمكن من اساليب التعبير فيها (٢) ان اللغة العربية فقيرة بالمؤلفات الواضحة لتعليم هذه العلوم (٣) ان ليس بين أساتذة هذه العلوم الوطنيين أناس فيهم الكفاءة لتعليمها . وهي أسباب ضعيفة لا يصح التعلل بها في امانة اللغة العربية واستبدالها بلغة أخرى . نعم ان تعليم العلوم في لغة يساعد على اتقانها ولكن ذلك محصور في مصطلحات ذلك العلم فمن تعلم الكيمياء بالانكليزية اكتسب الالفاظ الانكليزية المصطلح عليها عند الانكليز للتعبير عن المسميات الكيميائية فقط وكذلك من يدرس الطبيعيات أو غيرها لأن لكل علم من العلوم اسلوباً من التعبير خاصاً به وهو ما نسميه (اللغة العلمية) وهذه هي الحال في العربية أيضاً فان الذي لا يدرس العلوم الطبيعية في العربية لا يفهم اصطلاحاتها فيها ولو كان عالماً في قواعد اللغة ومباني الفاظها فكانت نظارة المعارف تسعى في امانة اللغة العربية العلمية وبعبارة أخرى في امانة العلم بين أهل اللسان العربي لان تلامذة هذه الايام يخرجون من المدرسة ولغتهم العلمية انكليزية أو فرنسية فاذا أرادوا التعبير عن حقيقة علمية أو كتابتها بالعربية لم يستطيعوا ذلك

الا بالجهد والتسكف وبعكس ذلك لو تعلموا العلوم بالعربية فانهم يستطيعون التأليف وانشاء الخطب ومحادثة الناس فيها بكل سهولة فيكونون شموساً تنبعث أشعة علومهم الى كل الانحاء . أما اتقان اللغات الافرنجية فيستدرك بمطالعة كتب أخرى بمواضيع أخرى أو مطالعة مطولات العلوم التي درسوا مختصرها في الكتب العربية فيحصلون بذلك على فائدين معاً وهما اكتساب اللغة والتوسع في العلم . أما قولهم ان اللغة العربية فقيرة بالمؤلفات الوافية بتعليم هذه العلوم فهو سبب ضعيف جداً لعلنا أن في اللغة العربية كتباً تكفي لهذا الغرض الآن وهب أنها غير موجودة ففي امكان النظارة تأليفها بسهولة

وأما تعليم هذه العلوم في لغات أجنبية فمن أصعب الامور وخصوصاً على التلامذة المبتدئين لأنهم لا يكادون يفهمون هذه العلوم بلسانهم فكيف يفهمونها بلغة أخرى فضياع الوقت في تفهيمهم لغة العلم تكفي لتعليمهم علماً آخر فضلاً عما للغة من التأثير على أذهان اصحابها . وأما قولهم بعدم كفاءة المعلمين فهذا أضعف الحجج لان بين ظهر انبعا علماء مبرزين في العلوم الطبيعية على أنواعها مما لا يحمله أحد ومن أغرب ما سمعناه في توارخ الائم أن يعلم الناس ابناءهم ناريخ بلادهم بلغة أجنبية ولم تفقه الحكمة في ذلك ولا نظن رجال المعارف يجهلون تأثيره على مستقبل اللغة العربية فما أننا بعد أن سرنا في النهضة العربية شوطاً بعيداً عدنا فوقتنا هنيئة كأن عجالات مركبتنا عثرت بالاحتلال الانكليزي فوقفت

فلو كانت المدارس العالية بمصر والشام تعلم العلوم الطبيعية مطولة باللغة العربية لنشأ رجال الجيل القادم وقد تنققت عقولهم بالعلوم العصرية بلسانهم فينبغ منهم جماعة يترجمون مطولات هذه العلوم فيجدون بين ابناء بلادهم من يقدر اعمالهم حق قدرها فتروج سوق العلم ويكثر المؤلفون والمصنفون وتعدد المؤلفات وينبغ بيننا المخترعون والمكتشفون أما الآن فنقل مطولات العلوم الى لساننا لا يأتي بفائدة

أما (الكتب الادبية) فهي اكثر عدداً وأوسع دائرة من تلك ولكن نصيب بعضها من اقبال القراء نصيب الكتب الطبيعية التي أشرنا اليها وخصوصاً الكتب الفلسفية الحديثة كفلسفة سبنسر وشوبنهاور وهرشل وغيرهم

ومن هذا القبيل الكتب الفلسفية القضائية مثل كتاب روح الشرائع لمونتسكيو واصول الشرائع لبنتام وغيرهما فانها بدیعة في بابها على انها اذا ترجمت قد نلاقي اقبالاً

لان طلابها اكثرهم من المحامين وهم في الغالب من المثقفين المتعلمين ولكن معظم يحسنون اللغات الافرنجية فيفضلون مطالعة هذه الكتب فيها . وقس على ذلك كثير من الكتب الادبية العالية والسبب في ذلك تقاعد مدارسنا عن تعليم هذه العلوم مطولة واذا فعلت ذلك فانها تختار كتباً أعجمية كما قدمنا . على ان هناك مؤلفات كثيرة في علوم حديثة نحث المدارس على تعليمها وتقدم الى كتابنا أن ينقلوها الى لساننا لاتنا في حاجة اليها ككتب الاقتصاد السياسي وعلم العمران (السوسولوجيا) والترية وعلم الرياضة البدنية (الجباز) وتدير المنزل وآداب السلوك وغيرها فان المقول منها الى لساننا قليل جداً بالنسبة الى ما اذخره علماء الافرنج من جواهرها في لسانهم ومن هذا القبيل الكتب التهذيبية ككتاب سر النجاح الذي ترجمه العلامة الدكتور يعقوب صروف بايعاز استاذنا المرحوم الدكتور فاندريك فانه كتاب جليل لا ريب عندنا في أنه أثر تأثيراً كبيراً في انهاض همم الذين طامعوه لانه حاث على الاجتهاد والمثابرة على العمل والاعتماد على النفس بما لا يستغنى عنه في مثل حال شبابتنا اليوم

ومن أنفس كتب الادب التي لا تزال اللغة العربية مفتقرة اليها منظومات فطاحل شعراء الافرنج قديماً وحديثاً وفي مقدمتهم امام الشعراء واستاذهم وشيخهم هوميروس اليوناني الشهير ومن جاء بعده من شعراء اليونان والرومان والايطاليان والامان والفرنساويين والانكليز وغيرهم . اما هوميروس فقد نظم في العربية صديقنا العالم الفاضل سليمان افندي البستاني . ولكن هناك عدداً كبيراً من نوابغ شعراء الافرنج لا تزال أشعارهم محجوبة عنا منهم فرجيل وهوراس الرومانيان ودانتي وطاسو الايطاليان وغوتي وشيلر الالمانيان وشكسبير وميلتون وبيرون وتيسون وغيرهم من شعراء الانكليز وفيكتور هيكو وموليير وراسين وبوالو من الفرنسيين وغيرهم

فترجمة اشعار مثل هؤلاء الى العربية يكسبها رونقاً وجمالاً لانها تكسب بذلك أثمار عقول اكبر ادباء العالم بما تتضمنه من فنون الشعر وبدايع المماني فضلاً عن معرفة أخلاق الامم وعوائدهم وأطوارهم على اختلاف الازمنة والاصقاع

ومن الكتب الادبية التي لا غنى لنا عن ترجمتها التواريخ القديمة التي كتبها اليونان والرومان وغيرهم ولا بد لمطالع التاريخ من معرفتها مثل تاريخ هيرودوتس الرحالة الشهير وتاريخ يوسيفوس وديودوروس وزينوفون وبلينيوس واسترابون وغيرهم وكذلك التواريخ الحديثة التي وضعها بعض الافرنج عن الامم الشرقية القديمة بعد

البحث في آثارهم وبقاياهم كتاريخ ماسبرو وماريت وسائيس ورايت وغيرهم عن المصريين أو الاشوريين أو الفينيقيين أو الحثيين أو من عاصرهم ويدخل تحت هذا الباب أيضاً الرحلات الجغرافية وما جرى مجراها

ناهيك عن ترجمة الكتب التعليمية المدرسية لتعالم اللغات كالقواميس وكتب النحو وغيرها وهي أساسية في هذا الباب لأنها تساعد على درس اللغات وفهم دقائقها فتساعد على الترجمة عموماً ولكن يجب التدقيق في وضع الالفاظ العربية الصحيحة ازاء ما يقابلها من الالفاظ الافرنجية لان بين الكتب التعليمية التي تعلم الان في المدارس الاميرية وغيرها كتباً سقيمة التركيب عامية الالفاظ ليست من اللغة العربية في شيء فنل هذه الكتب مفسدة لللسان العربي لأنها تفرس في اذهان التلامذة ركاكة التعبير فتوجه انظار مؤلفيها الى ذلك

وهناك قسم كبير من الكتب التعليمية لنا مجال واسع للكلام فيها نغني بها الروايات . فالروايات في اللغات الافرنجية تعد بمئات الالوف وقراؤها أكثر عدداً من قراء سائر الكتب ولذلك فان مترجميها عديدون وفي ترجمتها فوائد أدبية عظيمة هذا اذا أحسن المترجمون اختيارها فانتقوا منها ما ينطبق على شروط الآداب الشرقية وقد كنا في بدء اهتمامنا بالعلم منقطعين الى العلوم الطبيعية لاعتقادنا أنها أساسية في أعمال البشر مع افتقار التمدن الحديث اليها ولأنها مصدر اختراعاته واكتشافاته وكنا نظن مطالعة الروايات وغيرها من الكتب الادبية لا فائدة منها سوى ضياع الوقت عبثاً ولكننا وجدنا بعد البحث والتجربة ان الانسان كثير الافتقار الى العلوم الادبية لنقص عقله وترقية عواطفه وتهذيب اخلاقه وتوسيع دائرة اختباره

والروايات الادبية أحسن وسيلة لبث تلك المبادئ على اسلوب يؤثر في النفس فتمثل بها الاخلاق الحسنة مع الحث على التمسك بها والافتداء باصحابها . ونذكر اننا طالعنا في حدائنا رواية صغيرة الحجم منقولة الى العربية اسمها « رواية جنيف » تمثلت فيها الفضيلة والعفة أحسن تمثيل ولا نذكر كتاباً أثر على عواطفنا مثل هذا التأثير فقد قرأناها ودموعنا تتساقط لما أودعه فيها المؤلف من الحوادث المعربة عما ينتاب محبي الفضيلة احياناً من مساعي أهل البغي والفساد وقد مضى زهاء خمس وعشرين سنة منذ قرأناها ولا تزال حوادثها نصب أعيننا ولم نسمع أحداً قرأها ولم تؤثر فيه مثل هذا التأثير . فنقل مثل هذه الرواية الى العربية خدمة جلية لابنائنا

ولكن من موجبات الاسف ان بعض مترجمي الروايات عندنا قلما يلتفتون الى موضوع الرواية ومنزلتها من الادب فيترجمون أقاصيص ينجبل الشاب من مطالعتها فضلاً عن العذراء . وما نذكره من هذا القليل رواية اسمها (الانتقام العادل) أهديت لنا للتقريب منذ بضع سنين فلم نقرأ بعضها حتى طوبناها آسفين على ما انفقه مؤلفها من الوقت في تأليفها وسبك عباراتها لما حوته من الحوادث المخجلة . ناهيك عن روايات كثيرة مفسدة للاخلاق مضرة بالهيئة الاجتماعية وفي ترجمتها خسارة كبرى

والروايات أنواع كثيرة منها التاريخية والعلمية والفكاهية والاخلاقية وغيرها تبعاً لما يراد تعليقه في ذهن القارئ من التاريخ أو العلم أو الآداب أو الاخلاق ولعل منها فائدة في بابها وكلها جديرة بالترجمة على شرط خلوها مما يفسد الاخلاق . وما نوجه الالتفات اليه أمور نستغرب وقوعها من بعض المترجمين فقد رأينا بعضهم يترجم الرواية وينتقلها لنفسه ويذكر في أولها أنها تأليفه وقد تكون مشهورة في اللغة التي كتبت فيها ورأينا بعضهم يتفان في الاتحال فيغير أسماء أشخاص الرواية من المصطلحات الافرنجية الى المسميات العربية فيبدل هنرياً بسعدى والفونس بسليم ويبدل مدينة ليون ببيروت وباريس بالاسكندرية أو نحو ذلك مع بقاء الحوادث على حالها فتصير آية في الغرابة والاختلال لان الحادث الذي كان بين ليون وباريس أصبح بين بيروت والاسكندرية وقد تكون المدينة في أصل الرواية برية فيجعلها المترجم بحرية أو بالعكس فترى بطل الرواية أبجر من ميناء بيروت صباحاً فبلغت به السفينة بعد ساعتين الى ميناء حلب (مثلاً) وفي ذلك من جهل الجغرافيا ما فيه فضلاً عن الاتحال فمثل هؤلاء المترجمين يشكرون لرغبتهم في الترجمة واسكنهم بلامون على الاتحال وبؤاخذون لجهلهم . واقع البلاد والتمييز بين ساحلها وبراها

وقد جرت عادة بعض مترجمي الروايات ان يعترفوا بترجمة الرواية ويففلوا اسم المؤلف الاصلي وقد فرط ذلك أيضاً من مترجمي بعض روايات الهلال وقاتنا اصلاحه ولكنه شائع بين كثيرين من المترجمين وفيه نجس لحق المؤلفين

وما علمناه بالاختبار ان الروايات اكثر الكتب رواجاً وخصوصاً التاريخية منها فمن يترجم رواية ويحسن اختيار موضوعها ويسبكها في قالب عربي سهل لا ريب عندنا في أنه يلاقي اقبالا ورواجاً وعليه أن براعي الشروط الآتية (١) ان

يختار من الروايات ما يوافق أذواق المشاركة وأخلاقهم (٢) أن تكون خالية من كل ما ينجل القراء أو يفسد أخلاقهم فإذا قرأها العذراء لا تخرج من حواشيها (٣) أن تكتب بلغة طبيعية سهلة بلا تكلف ولا تقعر فإن الالفاظ اللغوية أجدر بالمقامات وكتب اللغة منها بالروايات التي يقرأها الناس في ساعات الفراغ لترويض أذهانهم من عناء الاشغال لا لمراجعة القواميس وحل رموز الفاظها (٤) أن تباع بثمان معتدل يستطيع اقتناءها كل قارئ فقيراً كان أو غنياً

ومن أغرب ما رأيناه بين المترجمين والمؤلفين أيضاً أنهم إذا ترجموا رواية أو ألفوا كتاباً أذاعوا خبره قبل نجاز تأليفه وفتحوا فيه باباً للاشتراك وعينوا ثمن النسخة قل عشرة قروش قبل الطبع و ١٥ بعده فقد يشترك بعض الناس حياءً من كثرة التشويق والناس لم ينفروا من الاشتراك الا لكثرة ما قرأوه من الاعلانات عن قرب صدور كتب ثم لم يروها صدرت قط . فإذا جمع صاحبنا قدرأ لم يره كافياً لنفقات الطبع عدل عن طبع كتابه وقل أن يرد الدراهم لأصحابها . ولكننا لنفرض أنه تحمل نفقات الطبع وأصدر الكتاب فيوزع منه جانباً بين مشتركيه ويعرض ما بقي للبيع فيرى الثمن الذي ضربه كبيراً بالنسبة الى حجم الكتاب ونفقاته فيجعله عشرة قروش مثلاً ثم لا يرى رواجاً لسبب ربما كان متصلاً بموضوع الرواية أو لغتها أو غلائها فيجعله خمسة وقد يصل الى قرشين أو ثلاثة وهو يحسب نفسه مضطراً الى ذلك لانه لو لم يفعله لم يبيع شيئاً من الكتاب فبعد ان يظن المشترك نفسه راجحاً بالاشتراك يرى انه كان خاسراً فيقسم أن لا يشترك في كتاب قبل صدوره ولا حين صدوره بل ينتظر هبوط ثمنه وهذا هو سبب فشل بعض المؤلفين أو المترجمين عادة والحق في ذلك على الكتاب وليس على القراء فلوراعى الكتاب الشروط التي قدمناها لراحت كتبهم رواجاً حسناً

فهرس الجزء الاول

صفحة	صفحة
٩٧ البورصة والقمار او القمار البورصة	٣ مقدمة
١٠٣ القول والعمل	٥ ترجمة صاحب الكتاب
١٠٨ الاحسان دين على الانسان	القسم الاول
١١١ عيشة الوجهاء في مصر	الاخلاقيات والحكميات
١١٧ حقيقة الانسان وراء ثلاثة أستار	١٧ الاخلاق الراقية - حاجتنا الكبرى
١٢١ الجمالة من آفات الهيئة الاجتماعية	٢٤ المرأة بأخلاقه لا بذكائه
القسم الثاني	٢٦ الانسان - إما صادق وإما ساقط
المرأة والحب والزواج	٢٩ الصديق سيد الاخلاق
١٢٥ الامة نسيج الامهات	٣٣ المرأة الادبية او الجراة في الرأي
١٣٠ كيف نصنع الاخلاق	٤١ الصراحة في القول عنوان الاخلاق
١٣٦ الفنى والسعادة والمرأة	الراقية
١٤٠ المرأة الشرقية امس واليوم	٤٦ حربة القول عنوان ارتقاء الامة
١٤٦ الحب اختياري ام اضطراري	٤٩ الحاسة الاجتماعية او سلامة الذوق
١٤٩ ما هو الحب	٥٥ طبقات العقول او التدبير سيد القوى
١٥١ الحب الجنسي وفراسة الوجه	العاقلة
١٥٥ المرأة العربية قبل الحجاب وبعده	٦٤ فتش عن المعدة لانها بيت الداء
١٦٩ الحماة والكنة	٦٩ اعقل الناس اعذرهم للناس
١٧١ الزواج بالمراسلة	٧٢ العفاف سياج العمران
١٧٤ امتهان السيدات واستبدادهن	٧٤ احفظ شبابك والكمولة تحفظ نفسها
١٧٨ شبان اليوم	٧٦ الفراغ مفسدة - كلمة للشبان والشابات
١٨٠ الفتاة الشرقية في هذا العصر	٨٦ سوء التفاهم اصل التخاصم
١٨٤ الشاب الشرقي » »	٨٨ شفاء الانغيا
١٨٨ الكهل العزب » »	٩٠ الاعتراف بالخطأ صواب والاقرار
	بالعجز قوة

فهرس الجزء الثاني

صفحة	صفحة
٧٨ الجمهورية وسائر ضروب الحكومة	١ القسم الثالث
٨٥ الاجتماعية والاشتراكية	فلسفة التاريخ والاجتماع
١٠٣ العمال واصحاب المال	٣ الحقائق والاهام او الجواهر
١١٠ تاريخ الاحزاب السياسية	والاعراض
١١٩ الحرب - هل تبطل من الارض	٩ لا يصح غير الصحيح ولا يبقى الا
١٢٦ هل يسود السلام على هذه الارض	الانطب
١٣٣ اسباب الحروب الظاهرة والحقيقية	١٤ جامعة المنفعة مرجع سائر الجامعات
١٣٧ كتاب الامير او ميكافلي وابن خلدون	١٩ حب الشهرة من دعائم العمران
١٤٥ الجاذبية وحب الذات	٢٢ وتر الدين حساس
١٥٠ الحب والجاذبية	٢٧ بالضغط والمقاومة تظهر القوى
١٥٦ مجاري الطبيعة كلقضاء المبرم	الكامنة
١٦٣ وجود الخالق	٣١ العوامل الخفية في الهيئة الاجتماعية
١٧٠ هل في الوجود عالم آخر	٣٦ اقصى اماني الانسان
١٩٧ مذهب الماديين كما يرويه الماديون	٤٢ نظام الاجتماع وهل يمكن قلبه
انفسهم	٤٩ آجال الدول
٢٠٢ هل الانسان شخصان ؟	٧٣ الحكومة الدستورية وسائر انواع
٢٠٦ طبيعة الانسان للخير او للشر	الحكومة

فهرس الجزء الثالث

صفحة	صفحة
٧٣ الشجاعة في الحرب	القسم الرابع
٧٧ ثبات الامم في الدفاع	مقالات عمرانية وتهديبية
٨٣ هل السوريون عرب او ما هم ؟	٣ علموهم وكفى - ان كل الصيد في
٨٩ السوريون وتجنسهم بالجنسية الاميركية	جوف الفراء
٩٧ السوريون في مصر	٧ هذبوا ابناءكم وهم اطفال
١٠٠ العرب والترك	١١ التعليم الازامي والتعليم المجاني
القسم الخامس	١٧ جامعة او كلية
في اللغة والادب والصحافة	٢٢ ما هو الاستقلال الحقيقي
١٠٥ الاكاديمية العربية	٢٧ بنات الشوارع - الخطر على الشيبية
١١٢ حرية الصحافة في انكلترا ومصر	المصرية
١٢١ الجرائد وواجباتها وآدابها	٣٣ آفات التمدن الحديث
١٢٩ التأليف في اللغة العربية	٣٧ الاتجار الحاد والمزمن
١٣٥ اللغة العربية الفصحى واللغة العامية	٤٢ المسكر والهيئة الاجتماعية
١٣٨ اللغة العربية والتعليم في مصر	٤٥ الجامعة والعصية والجامعة الاسلامية
١٤٣ كُتَّاب العربية وقراؤها	٥٢ نظام الاجتماع في فرنسا
	٦٤ نظام الاجتماع في انكلترا

